

موسوعة تاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

**موسوعة تاريخ
الأدب والنقد والحكمة العربية
في العصر العثماني**

المجلد التاسع

**المؤلف
حسين علي الهنداوي**

الموسوعة مسجلة في:

- ١ - مكتبة الإسكندرية
- ٢ - مكتبة بيت الشباب في الشارقة
- ٣ - مكتبة جمعة بن ماجد - الإمارات
- ٤ - مكتبة الفهد الوطنية
- ٥ - مكتبة بن ادريس المغرب - مراكش
- ٦ - مكتبة بن باديس - الجزائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة صاحب الموسوعة حسين علي الهنداوي

- أ - أديب وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وصحفي
ب - له العديد من الدراسات الأدبية والفكرية
ج - نشر في العديد من الصحف العربية
د - مدرس في جامعة دمشق - كلية التربية - فرع درعا
هـ - ولد الأديب في سوريا - درعا عام ١٩٥٥ م
و - تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدينة درعا
ح - انتقل إلى جامعة دمشق كلية الآداب - قسم اللغة العربية وتخرج فيها عام ١٩٨٣
ك - حائز على إجازة في اللغة العربية
ص - حائز على دبلوم تأهيل تربوي جامعة دمشق
ع - عمل محاضراً لمادة اللغة العربية في معهد إعداد المدرسين - قسم اللغة العربية في مدينة درعا
ف - انتقل إلى التدريس في المملكة العربية السعودية عام (١٩٩٤ / ٢٠٠٠) في مدينتي عنيزة وتبوك.
- عضو اتحاد الصحفيين العرب
- عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب
- عضو تجمع القصة السورية
- عضو النادي الأدبي بتبوك

الصحف الورقية التي نشر فيها أعماله:

- ١ - الكويت (الرأي العام - الهدف - الوطن)
- ٢ - الإمارات العربية (الخليج)
- ٣ - السعودية (الرياض - المدينة - البلاد - عكاظ)
- ٤ - سوريا (تشرين - الثورة - البعث - الأسبوع الأدبي)

المجلات الورقية التي نشر فيها أعماله:

- ١ - مجلة المنتدى الإماراتية
- ٢ - مجلة الفيصل السعودية
- ٣ - المجلة العربية السعودية
- ٤ - مجلة المنهل السعودية
- ٥ - مجلة الفرسان السعودية
- ٦ - مجلة أفنان السعودية
- ٧ - مجلة السفير المصرية
- ٨ - مجلة إلى الأمام الفلسطينية

مؤلفاته:

أ - الشعر:

- ١ - هنا كان صوتي وعيناك يلتقيان / ١٩٩٠
- ٢ - هل كان علينا أن تشرق شمس ثبير / ١٩٩٤
- ٣ - أغنيات على أطلال الزمن المقهور / ١٩٩٤
- ٤ - سأغسل روعي بنفط الخليج / ١٩٩٦
- ٥ - المنشئ يسلم مفاتيح ايلياء / ١٩٩٦
- ٦ - هذه الشام لا تقولي كفانا / مخطوط

ب - القصة القصيرة:

شجرة التوت / ١٩٩٥

ج - المسرح:

١ - محاكمة طيار / ١٩٩٦

٢ - درس في اللغة العربية / ١٩٩٧

٣ - عودة المتنبي / مخطوط

٤ - أمام المؤسسة الاستهلاكية / مخطوط

د - النقد الأدبي:

١ - محاور الدراسة الأدبية ١٩٩٣

٢ - النقد والأدب / ١٩٩٤

٣ - مقدمتان لنظريتي النقد والشعر / مخطوط

٤ - أسلمة النقد الأدب

هـ - الدراسات الدينية:

١ - الإسلام منهج وخلاص - الجزء الأول

٢ - الإسلام منهج وخلاص - الجزء الثاني

٣ - الإسلام منهج وخلاص - الجزء الثالث

٤ - فتاوى واجتهادات / جمع وتبويب

٥ - هل أنجز الله وعده؟

الصحف الالكترونية التي نشرها:

١ - قناديل الفكر والأدب

٢ - أنهار الأدب

٣ - شروق

- ٤ - دنيا الوطن
- ٥ - ملتقى الواحة الثقافي
- ٦ - تجمع القصة السورية
- ٧ - روض القصيد
- ٨ - منابع الدهشة
- ٩ - أقلام
- ١٠ - نور الأدب

الباب الأول
الحياة العامة
في العصر العثماني

مقدمة

العلاقات العثمانية المملوكية وفتح الوطن العربي

أ - كان السلطان سليم مدفوعاً نحو بلاد الشام بعوامل سياسية تجاه الدولة الصفوية التي يريد أن يمنعهم من الوصول إليها، وليضع حلاً لانتشار المذهب الشيعي.

ب - وفي تلك الأثناء كانت إسبانيا والبرتغال قد بدأتا حربهما ضد المسلمين في شمال إفريقيا، البرتغال في السواحل الغربية للمغرب الأقصى وإسبانيا في المغرب الأوسط وتونس من أجل قطع دابر الجهاد الإسلامي.

ج - وقد كانت البرتغال تسعى لاحتكار تجارة الشرق الأقصى لها وإقصاء العرب المسلمين عنها، وتحالف البرتغاليون مع الصفويين ضد المماليك مما أفقد المماليك سمعتهم وقدرتهم في حماية ديار المسلمين.

د - ومن هنا جاءت مهاجمة العثمانيين للمماليك:

١ - لبسط السيطرة على حوض المتوسط.

٢ - ومد النفوذ إلى بلاد المغرب الإسلامي.

٣ - ومنع تطويق البرتغاليين للعالم الإسلامي.

٤ - وإنقاذ المواقع المقدسة من الوقوع تحت أيديهم.

٥ - والمحافظة على طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي التجاري بيد المسلمين

٦ - وإبعاد البرتغاليين عنه والحصول على ما تدرّه بلاد الشام ومصر وسائر البلاد العربية

من خيرات.

هـ - وقد كانت علاقة المماليك بالعثمانيين علاقة وئام وسلام، بل عقدوا تحالفاً ضد الهجوم

التركي حتى أن المماليك زينوا القاهرة لعدة أيام بعد فتح محمد الثاني القسطنطينية.

- و - إلا أن العلاقات أخذت تسوء بسبب مطامع الدولة العثمانية، وساعد العثمانيون قانصوه الصفوي ضد البرتغاليين وأمدّه بالسلاح والمراكب.
- ز - ولكن صراع العثمانيين مع الصفويين وموقف المماليك المتفرج جعل العثمانيين يرسلون جيشهم لمرج دابق وفتح الشام وحلب فحماة فدمشق ثم غزة ثم القاهرة
- ح - سبق الخليفة العباسي المتوكل على الله وحضر أمام السلطان سليم ليهدئ من خوف الناس من الفاتح الجديد.
- ط - وبعث بركات بن محمد شريف مكة بفروض الطاعة للسلطان سليم الذي أصبح خادماً الحرمين الشريفين.
- ي - وأعلنت اليمن الولاة للسلطان أيضاً وتلقب السلاطين العثمانيون بلقب خليفة المسلمين، وتدور الدائرة بمصر في القرن التاسع عشر، فبعد أن أصبحت دولة قوية تجيِّش الجيوش العسكرية والعلمية في عهد محمد علي تقع تحت ضغط الديون في عهد إسماعيل وتثور مصر بزعامة عرابي علي توفيق وتدوس أقدام الإنكليز مصر.

الباب الأول

الفصل الأول

الحياة السياسية

- أ -

الحملة الفرنسية على مصر وسورية ١٧٩٨ - ١٨٠١ م

أصبحت مصر إحدى ولايات الدولة العثمانية بعد مقتل السلطان المالك طومان باي. واحتلال السلطان العثماني سليم الأول لها عام ١٥١٧ م. وفي منتصف القرن الثامن عشر تمكن المالك من استعادة سلطتهم الفعلية في مصر، وبقيت للوالي العثماني السلطة الاسمية في البلاد.

أولاً: أسباب الحملة الفرنسية على مصر:

١ - رغبة فرنسا في إجبار إنكلترا على إنهاء حالة الحرب وعقد الصلح معها بعد حصول حروب طويلة بينها، وقد قررت فرنسا تهديد مصالح إنكلترا على طريق الهند عن طريق احتلال مصر.

٢ - رغبة فرنسا في إعادة بناء إمبراطوريتها الاستعمارية التي خسرت قسماً كبيراً منها نتيجة لحرب السبع سنوات مع إنكلترا.

٣ - ادعاء فرنسا بأن المالك لم يحسنوا معاملة التجار الفرنسيين الموجودين في مصر.

٤ - رفض المالك عقد معاهدة مع فرنسا يتم من خلالها منحها امتيازات تجارية في مصر.

ثانياً - الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت

١ - إعداد الحملة:

كلف الحكومة الفرنسية نابليون بونابرت بقيادة الحملة الفرنسية على مصر، فقام بإعدادها سرّاً خوفاً من الأسطول الإنكليزي الذي كان متواجداً في البحر المتوسط بقيادة نلسون، كما أن نابليون أراد أن يفاجئ المالك عند قدومه لغزو مصر.

وقد اختار نابليون لحمته خيرة الضباط والجنود، كما أنه اصطحب معه مطبعة عربية وعدداً كبيراً من العلماء، وتألّفت الحملة من حوالي أربعين ألف جندي، وانطلقت من ميناء طولون الفرنسي.

٢ - احتلال نابليون لمصر - معركة إمبابة:

وصلت الحملة إلى مدينة الإسكندرية في تموز عام ١٧٨٩ م، وقد هاجم الجنود الفرنسيون مدينة الإسكندرية، وتمكنوا من السيطرة عليها بعد مقاومة شديدة أبدتها الجنود المصريون المدافعون عن المدينة.

بعد ذلك توجه نابليون إلى مدينة القاهرة، وعندما وصل إلى منطقة الأهرام القريبة منها دارت معركة حامية بين الغزاة الفرنسيين من جهة، وأبناء مصر وجنودها الذين قاوموا الغزاة بقيادة المهاليك بكل شجاعة وبسالة، ولكن الفرنسيين تمكنوا من إحراز النصر بسبب كثرة عددهم من جهة وامتلاكهم الأسلحة الحديثة والمتطورة من جهة أخرى، وهذه المعركة التي جرت بين المصريين والفرنسيين في تموز ١٧٩٨ م تسمى (معركة الأهرام) أو معركة (إمبابة).

٣ - موقعة أبي قير البحرية:

بعد ذلك دخل نابليون مدينة القاهرة، ووزع منشوراً على الأهالي باللغة العربية حاول من خلاله أن يخدع المصريين، مدعياً بأنه جاء لينقذهم من ظلم المهاليك وأنه ليس معادياً للدين الإسلامي.

عندما علمت إنكلترا بخبر الحملة الفرنسية كلفت أسطولها بالبحث عنها في مياه البحر، وقد حصلت معركة بحرية بين الأسطول الإنكليزي بقيادة نلسون والأسطول الفرنسي الذي كان راسياً في خليج أبي قير قرب مدينة الإسكندرية. وكانت نتيجة المعركة هزيمة الفرنسيين وتحطم الأسطول الفرنسي وغرقه مما أدى إلى انقطاع الصلة بين الحملة وفرنسا.

٤ - ثورة القاهرة الأولى - تشرين الأول عام ١٧٩٨ م:

أ - أسبابها:

١ - سوء الأحوال الاقتصادية في مصر بسبب محاصرة الإنكليز للسواحل المصرية.

٢ - تحريض المصريين على مقاومة الفرنسيين من قبل المماليك والعثمانيين.

٣ - مخالفة الفرنسيين لبعض التقاليد الدينية والوطنية في مصر.

ب - وقائعها:

تألفت في القاهرة لجان ثورية تمركزت في جامع الأزهر والأحياء الشعبية المجاورة، وبعد مقتل أحد الضباط الفرنسيين مع عدد كبير من جنوده أمر نابليون بضرب مدينة القاهرة بالمدافع، واحتل الجامع الأزهر واتبع سياسة القسوة والبطش فتوقفت الثورة.

٥ - حملة نابليون على سورية عام ١٧٩٩:

أ - أسبابها:

١ - إرسال حملتين برية وبحرية من قبل العثمانيين لإخراج الفرنسيين من مصر.

٢ - رغبة نابليون في حرمان الإنكليز من الاستفادة من الموانئ السورية.

٣ - رغبة نابليون في توسيع ممتلكاته.

ب - وقائعها:

غادر نابليون مصر عام ١٧٩٩ م، واستولى على عدد من المدن الساحلية في فلسطين، ولكنه لم يتمكن من احتلال مدينة عكا.

وقد فشلت الحملة الفرنسية على سورية، وعاد نابليون مع جيشه إلى مصر، ثم غادرها سراً إلى فرنسا.

ثالثاً - الحملة الفرنسية بقيادة كليبر

أ - أوضاع الحملة في عهد كليبر:

قرر نابليون العودة إلى فرنسا سراً، وعهد بقيادة الحملة إلى الجنرال كليبر الذي ازدادت أوضاع الحملة سوءاً في عهده.

حاول العثمانيون والإنكليز الضغط على الفرنسيين وإخراجهم من مصر فاضطر كليبر إلى توقيع اتفاقية العريش عام ١٨٠٠ م، التي تتضمن جلاء القوات الفرنسية عن مصر، ولكن لم تنفذ الاتفاقية بسبب إصرار الإنكليز على اعتبار الفرنسيين أسرى حرب.

ب - ثورة القاهرة الثانية - آذار عام ١٨٠٠ م؛

أشعل نار الثورة علماء الأزهر وفي مقدمتهم الشيخ عمر مكرم، واستبسل السكان في المقاومة، وقدموا كثيراً من التضحيات لكي تنجح الثورة.

عندما عاد كليبر إلى القاهرة بعد انتصاره على العثمانيين في معركة عين شمس عام ١٨٠٠ م، أمر بضرب مدينة القاهرة بالمدافع وأخذ الثورة بقسوة.

وقد انتهت حياة كليبر على يد الشاب السوري سليمان الحلبي، الذي تمكن من قتله في حزيران عام ١٨٠٠ م.

رابعاً - الحملة الفرنسية بقيادة مينو:

بعد اغتيال كليبر تولى الجنرال مينو الحملة الفرنسية على مصر، ونتيجة لتقدم الجيوش الإنكليزية والعثمانية نحو مصر لإجلاء الفرنسيين عنها، وبسبب تفجر الثورات الشعبية داخل مصر، اضطر الجنرال مينو إلى طلب الصلح بما ينسجم مع شروط اتفاقية العريش، وقد حملت السفن الإنكليزية الجنود الفرنسيين إلى بلادهم، وبذلك تم جلاء الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ م، وعادت مصر إلى حكم العثمانيين.

خامساً - نتائج الحملة الفرنسية على مصر

أ - النتائج السياسية:

- ١ - فشلت الحملة سياسياً، ولم تحقق أي هدف من أهدافها.
- ٢ - نبهت هذه الحملة إنكلترا إلى أهمية موقع مصر على طريق الهند.
- ٣ - أضعفت نفوذ المماليك مما سهل وصول محمد علي إلى الحكم.

ب - النتائج الاجتماعية:

- ١ - كانت هذه أول اتصال مباشر بين المجتمع الأوروبي والمجتمع العربي في مصر.
- ٢ - تعرّف العرب على حضارة جديدة تختلف عما عرفوه وألفوه.

ج - النتائج العلمية:

- ١ - دراسة أحوال مصر وجمعها في كتاب اسمه (وصف مصر).

٢ - إدخال أول مطبعة عربية إلى مصر .

٣ - وضع أول مصوّر دقيق لمصر .

٤ - اكتشاف حجر رشيد، وفيما بعد تمكن العالم الفرنسي (شامبليون) من فك رموز هذا الحجر المتعلقة بالكتابة المصرية القديمة عام ١٨٢٢ م .

سادساً - عصر محمد علي

أ - تعيين محمد علي والياً على مصر ١٨٠٥ م :

عندما خرج الفرنسيون من مصر عام ١٨٠١ م بدأت القوى التي تعاونت على إخراجهم تتصارع للوصول إلى السلطة، وفي تلك الفترة ظهر محمد علي الذي وصل إليها مع الفرقة الألبانية التي أرسلتها الدولة العثمانية من أجل إخراج الفرنسيين من مصر . ولقد استفاد محمد علي من صراع القوى المختلفة من أجل الوصول إلى الحكم معتمداً في ذلك بشكل رئيسي على ممثلي الشعب من العلماء والمشايخ مثل: عمر مكرم، وعبد الله الشرقاوي، الذين نجحوا بتعيينه والياً على مصر عام ١٨٠٥ م / مرسوماً يعترف بمحمد علي والياً على مصر .

ب - تثبيت حكم محمد علي :

استطاع محمد علي الانفراد بحكم مصر من خلال المراحل التالية:

١ - التخلص من الزعامة الشعبية .

٢ - استمالة بعض الزعماء بالوظائف أو بالمال .

٣ - ومن لم تُجِد معه هذه الوسائل، عمد محمد علي إلى نفيه مثلما فعل بالشيخ عمر مكرم .

سابعاً - حملة فريزر عام ١٨٠٧ م :

في عام ١٨٠٧ م أرسلت إنكلترا حملة فريزر لاحتلال مصر، وقد احتلت الحملة مدينة الإسكندرية، ولكنها أصيبت بهزيمة كبيرة في مدينة رشيد، وبسبب سحب الحملة ظهر محمد علي بمظهر البطل المدافع عن بلاده، فأحبه الشعب وتعلق به وازدادت شعبيته .

ثامناً - القضاء على المماليك :

بقي المماليك يشكلون خطراً على محمد علي حتى تخلص منهم عن طريق مذبحة القلعة، حيث دعا زعماءهم للمشاركة في الاحتفال بوداع ابنه طوسون الذي سوف يذهب إلى نجد لمحاربة السعوديين عام ١٨١١ م، وكلما خرج أحد المماليك من باب القلعة كان جنود محمد علي يقتلونه، ونتيجة لذلك لقي معظم زعماء المماليك مصرعهم، وتخلص محمد علي منهم.

تاسعاً: إصلاحات محمد علي:

كانت أعمال محمد علي تهدف إلى تحويل مصر إلى دولة قوية وحديثة، وقد شملت إصلاحاته المجالات التالية:

١ - مجال التعليم:

اهتم محمد علي بالتعليم من أجل بناء مصر الحديثة، فأرسل البعثات العلمية إلى أوروبا وبخاصة فرنسا، وأنشأ المدارس بمختلف أنواعها ومراحلها.

٢ - الجيش والأسطول:

اعتمد محمد علي على الخبراء الفرنسيين في تأسيس جيشه، وأنشأ عدداً من المدارس الحربية، كما أنه أوفد البعثات العسكرية إلى أوروبا، واهتم ببناء أسطول قوي، وأنشأ داراً لبناء السفن في مدينة الإسكندرية.

٣ - المجال الاقتصادي:

بالنسبة للزراعة اهتم محمد علي كثيراً بتحسين الأمور التي لها علاقة بالزراعة، وانطلاقاً من ذلك فتح ترعة المحمودية التي تصل مدينة الإسكندرية بفرع رشيد من نهر النيل، كما أنه بنى القناطر الخيرية، وشجع على إدخال زراعات جديدة إلى مصر.

وبالنسبة للصناعة أنشأ محمد علي المصانع التي تدار بالآلات، مثل مصانع الغزل والنسيج، إضافة إلى المصانع الحربية.

وبالنسبة للتجارة وطّد محمد علي الأمن، ونظم المواصلات، وأسس أسطولاً تجارياً حديثاً.

وبشكل عام فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في عهد محمد علي، وقد اعتبر نفسه المالك الوحيد للأراضي الزراعية في مصر ووزعها على الفلاحين لكي يعملوا فيها مقابل دفع ضرائب للدولة، كما أنه احتكر شراء المحاصيل الزراعية، واحتكر التجارة في مصر لنفسه.

عاشراً - حروب محمد علي:

أ - في شبه جزيرة العرب عام ١٨١١ - ١٨١٨ م:

حصلت هذه الحروب بتكليف من السلطان العثماني، وكانت الغاية منها القضاء على الدولة السعودية، بدأت هذه الحروب بقيادة طوسون بن محمد علي عام ١٨١١ م. وانتهت على يد ابنه إبراهيم باشا الذي حارب السعوديين، وتمكن من القضاء على دولتهم عام ١٨١٨ م.

ب - احتلال السودان عام ١٨٢٠:

أرسل محمد علي جيشاً لاحتلال السودان بقيادة ابنه إسماعيل عام ١٨٢٠ م، وفي عام ١٨٢٣ م، بنيت مدينة الخرطوم بأمر من محمد علي.

ومن أسباب فتح السودان:

١ - الرغبة في استخراج الذهب من أراضي السودان.

٢ - السيطرة على وادي النيل الممتد من السودان إلى مصر.

٣ - القضاء على المماليك الهاربين من مصر والمقيمين في شمال السودان.

ج - حروب محمد علي في اليونان عام ١٨٢٤ - ١٨٢٧ م:

أعلن اليونانيون استقلالهم وثاروا على الحكم العثماني عام ١٨٢١ م، ولما عجز السلطان عن إخماد الثورة استنجد بمحمد علي الذي لبي رغبته آملاً بمكافأة السلطان له عن طريق منحه ولاية الشام.

أرسل محمد علي ابنه إبراهيم باشا على رأس حملة بحرية قضت على الثورة اليونانية، ولكن الدول الأوروبية تدخلت في الحرب لصالح اليونان، وأرسلت أسطولاً تمكن من تحطيم الأسطولين العثماني والمصري على سواحل اليونان عام ١٨٢٧ م في معركة نافارين، وكانت نتيجة تلك الحرب هزيمة كبيرة لمحمد علي.

د - حروب محمد علي في بلاد الشام ما بين عامي ١٨٣١ - ١٨٤١ م:

١ - كان محمد علي يأمل في أن يمنحه السلطان العثماني ولاية سورية مقابل مشاركته في حرب اليونان، ولما رفض السلطان العثماني محمود الثاني ذلك أرسل محمد علي قواته إلى بلاد الشام بقيادة ابنه إبراهيم باشا عام ١٨٣١ م، فقام باحتلال المدن المهمة مثل دمشق وحلب، وهزم القوات العثمانية عند ممر بيلان في لواء الإسكندرون.

٢ - ولما وصل إبراهيم باشا إلى حدود الأناضول طلب محمد علي من السلطان العثماني منحه ولاية سورية، إضافة إلى مصر، ولما رفض السلطان العثماني ذلك احتل إبراهيم باشا أضنة، وانتصر على العثمانيين في معركة قونية عام ١٨٣٢ م، وأصبح الطريق إلى مدينة إستانبول عاصمة العثمانيين مفتوحاً أمامه.

هـ - صلح كوتاهية عام ١٨٣٣ م:

قلقت الدول الأوروبية على مصالحها فسارعت إلى التدخل وضغطت إنكلترا وفرنسا على السلطان العثماني ومحمد علي لإيقاف القتال وعقدت بينهما (صلح كوتاهية) عام ١٨٣٣ م، الذي وافق من خلاله السلطان العثماني على منح ولاية سورية لمحمد علي.

و - معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م:

حرك السلطان العثماني جيشاً باتجاه سورية، ثم جرت عام ١٨٣٩ م (معركة نزيب) التي انتصر فيها المصريون على العثمانيين.

استاءت الدول الأوروبية من انتصارات جيوش محمد علي واتفقت بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م، أن يعرض السلطان العثماني على محمد علي أن يحكم مصر حكماً وراثياً، مقابل إنهاء حالة الحرب مع الدولة العثمانية.

رفض محمد علي معاهدة لندن، فأنزلت إنكلترا قواتها على السواحل السورية، واضطر محمد علي إلى سحب جيوشه من بلاد الشام، ثم ظهرت تسوية عام ١٨٤١ م.

ز - تسوية عام ١٨٤١ م بين محمد علي والسلطان العثماني:

١ - يحكم محمد علي مصر حكماً وراثياً، ويتولى الحكم أكبر الأفراد سنأً.

٢ - تسري قوانين الدولة العثمانية على مصر باعتبارها ولاية عثمانية.

٣ - يدفع محمد علي للسلطان مبلغاً من المال سنوياً.

٤ - يتألف الجيش المصري من (١٨) ألف جندي فقط.

٥ - يتم بناء الأسطول المصري بموافقة السلطان.

حادي عشر - الاحتلال الإنكليزي لمصر

أ - مشروع قناة السويس:

تنازل محمد علي عن الحكم في أواخر حياته لابنه إبراهيم باشا الذي توفي في حياة أبيه، فخلفه في الحكم عباس بن طوسون ١٨٤٨ م، وعندما تولى محمد سعيد بن محمد علي الحكم (١٨٥٤ - ١٨٦٣) حصل صديقه المهندس الفرنسي (فرديناند دولسبس) على امتياز حفر قناة السويس بشروط مجحفة بحق المصريين من أهمها:

١ - تقديم العمال المصريين سخرة لشق القناة.

٢ - منح الشركة أرضاً دون مقابل على طرفي القناة.

٣ - منح الشركة حقاً بحفر ترعة من النيل لتأمين المياه العذبة.

٤ - أخذ الحكومة المصرية ١٥٪ من أرباح الشركة.

وقد أدى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ إلى نتائج مهمة، منها:

اختصار المسافات بين الغرب والشرق الأقصى.

إنشاء مدن جديدة مثل بورسعيد والإسماعيلية.

إعطاء مصر أهمية كبيرة مما شجع إنكلترا على احتلالها عام ١٨٨٢ م.

ب - الخديوي إسماعيل والتدخل الأجنبي:

كان الخديوي إسماعيل الذي حكم مصر ما بين عامي (١٨٦٣ - ١٨٧٩) معجباً بالحضارة الأوروبية، وأراد أن يجعل من مصر دولة كبرى حديثة، فقام بأعمال عديدة وإصلاحات واسعة أدت إلى قيام الأزمة المالية.

الأزمة المالية:

لم تستطع ميزانية مصر تحمل الأموال الكثيرة التي أنفقها الخديوي إسماعيل في المجالات المختلفة، فبدأ بالاستدانة من المصارف الأوروبية.

وعندما عجز عن سداد الدين اضطر إلى بيع حصة مصر في أسهم شركة قناة السويس إلى إنكلترا، كما اضطر إلى قبول لجنة مالية (إنكليزية فرنسية) لمراقبة ميزانية الدولة لسداد الدين، كما تم تشكيل وزارة مختلطة ضمت وزيرين أجنيين أحدهما فرنسي والآخر إنكليزي.

وعندما حاول الخديوي إسماعيل الاستعانة بالعناصر الوطنية وعزل الوزارة المختلطة، سارعت فرنسا وإنكلترا إلى إقناع السلطان العثماني بعزله وتولية ابنه فاروق بدلاً منه بحجة إسراره وتبذيره.

ج - الخديوي توفيق وثورة أحمد عرابي:

ازداد التدخل الأجنبي في عهد الخديوي توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢) وتوضحت الأطماع الإنكليزية لاحتلال مصر، وتهيأت الأسباب لقيام ثورة عرابي.

د - أسباب ثورة عرابي:

- الأسباب البعيدة لثورة عرابي عام ١٨٨٢ م:

- ١ - ازدياد التدخل الأجنبي في شؤون مصر.
 - ٢ - الوعي الشعبي نتيجة لتأثير الصحافة وآراء المفكرين.
 - ٣ - الرغبة في إقامة نظام دستوري.
 - ٤ - إهمال شؤون الجيش.
- السبب القريب:

تسريح عدد من الضباط المصريين بحجة توفير النفقات.

هـ - أحداث ثورة عرابي:

قاد أحمد عرابي مظاهرة من العسكريين انضم إليها عدد من أبناء الشعب توجهت إلى قصر عابدين، وقدم للخديوي توفيق عدداً من المطالب الوطنية التي لها علاقة بإقالة الوزارة المختلطة، وإعادة الحياة الدستورية وزيادة عدد أفراد الجيش.

وعندما بدأ الخديوي توفيق بالاستجابة لمطالب عرابي تدخلت فرنسا وإنكلترا وتوترت الأوضاع، وتشكلت وزارة ثورية جديدة برئاسة محمود سامي البارودي، وأصبح أحمد عرابي وزيراً للحربية فيها.

ثاني عشر - معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ م:

أشعلت إنكلترا فتنة الإسكندرية التي بدأت باعتداء أحد الأجانب الذي يحمل الجنسية الإنكليزية على أحد المواطنين المصريين، وطلبت من أحمد عرابي تسليمها حصون الإسكندرية.

وعندما رفض أحمد عرابي الإنذار بدأ الأسطول الإنكليزي بقصف مدينة الإسكندرية، وانسحب منها أحمد عرابي وتحصن في كفر لدوار.

وعندما فشل الإنكليز في اقتحام دفاعات الجيش المصري في كفر الدوار أنزلوا قواتهم في مدينة الإسماعيلية، واتجهوا براً نحو القاهرة حيث حصلت معركة التل الكبير، التي انتصر فيها الإنكليز على المصريين عام ١٨٨٢ م، بعدما قدم المصريون كثيراً من التضحيات، وأظهروا شجاعة وبسالة فائقة للدفاع عن وطنهم وعروبته.

أما أحمد عرابي فقد تم القبض عليه، ونفي إلى جزيرة سيلان وبدأت بذلك صفحة الاحتلال الإنكليزي لمصر.

ثالث عشر - المقاومة الوطنية في مصر:

بالرغم من جميع وسائل الشدة والقمع التي استخدمها الإنكليز لإخماد الحركة الوطنية في مصر وتنفيذ سياسة استعمارية فيها من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، فقد ظهر عدد من المفكرين والمصلحين الذين لعبوا دوراً مهماً في ظهور الحركة الوطنية، ومن أشهرهم جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده ومصطفى كامل.

رابع عشر - حادثة دنشواي عام ١٩٠٦ :

وهي من الحوادث المهمة التي أثارت الرأي العام المصري ضد إنكلترا، وخلاصتها أن بعض الجنود الإنكليز كانوا يصطادون الحمام في قرية دنشواي فأصابوا امرأة مصرية وقتلوها، ثم توفي أحدهم نتيجة ضربة شمس، فاتهم الإنكليز سكان القرية بقتل الجندي الإنكليزي، وحكموا على بعض المواطنين بالإعدام وعلى بعضهم الآخر بالسجن أو الجلد، وبتشوا بسكان القرية، فاستاء المصريون من تصرف الإنكليز، وتعاطفوا مع سكان القرية، وبدأت المؤشرات الأولى للثورة ضد الإنكليز تلوح في الأفق.

الباب الأول

الفصل الأول

الحياة السياسية

- ب -

تطور السودان

أولاً - السودان في عهد محمد علي:

بعد أن وطّد محمد علي حكمه في مصر فكّر باحتلال السودان وأرسل عدة حملات عسكرية تمكنت من جعل النفوذ المصري يمتد إلى السودان، ولقد حققت هذه الحملات امتداد الوجود العربي في وسط إفريقيا، وتم بناء مدينة الخرطوم عام ١٨٢٣ م، لكي تصبح عاصمة البلاد.

ثانياً - قيام الثورة المهدية عام ١٨٨١ م:

في عهد الخديوي إسماعيل تم التوسع الكبير في مناطق السودان، وفي عهد الخديوي توفيق حصلت الثورة المهدية التي قادها عام ١٨٨١ م محمد أحمد الذي لقب نفسه بالمهدي، وأطلق على أتباعه اسم الأنصار، وادّعى أنه جاء لتخليص الناس من الظلم ونشر العدل ومقاومة الفساد.

أحداث الثورة المهدية:

اشتعلت الثورة في السودان عام ١٨٨١ م، وفشلت مصر في القضاء عليها، وبعد احتلال الإنكليز لمصر عام ١٨٨٢ م، شاركت إنكلترا في القضاء على الثورة، ولكنها فشلت في ذلك؛ لأن أنصار المهدي تمكنوا من هزيمة الإنكليز، ودخلوا مدينة الخرطوم، كما أنهم قاموا بقتل الحاكم العام الإنكليزي (غوردون)، مما أدى إلى انسحاب القوات المصرية والإنكليزية من السودان عام ١٨٨٥ م. وبعد وفاة المهدي تمكّن الإنكليز من القضاء على الثورة وإعادة احتلال

السودان، حيث تم إرسال حملة عسكرية مصرية بقيادة ضباط إنكليز تمكنت من القضاء على الثورة المهديّة.

ثالثاً- الحكم الثنائي في السودان عام ١٨٩٩ م:

بعد فشل الثورة المهديّة وإعادة احتلال السودان، تم تنظيم الأمور الخاصّة بإدارة السودان من خلال اتفاقية الحكم الثنائي بين مصر وإنكلترا، التي نصت على ما يلي:

- ١ - إلغاء السيادة العثمانيّة على السودان.
- ٢ - إلغاء الامتيازات الأجنبيّة في السودان.
- ٣ - يكون الحكم في السودان مشتركاً بين مصر وإنكلترا على أن يكون الحاكم العام للسودان إنكليزيّاً.
- ٤ - رفع العلمين المصري والإنكليزي على الدوائر الرسميّة في السودان.

الباب الأول

الفصل الأول

الحياة السياسية

- ج -

تطور دول الخليج العربي

أولاً - التنافس البرتغالي الإنكليزي:

بعد اكتشاف البرتغاليين رأس الرجاء الصالح، وتمكنهم من الدوران حول قارة إفريقيا للوصول إلى الهند، قاموا بالسيطرة على بعض السواحل العربية وبخاصة في عمان، وأنشؤوا بعض المراكز والقلاع الحصينة في جنوب شبه الجزيرة العربية والمناطق القريبة منها، وضربوا حصاراً اقتصادياً على البلاد العربية وأغلقوا منافذ البحر الأحمر والخليج العربي في وجه أساطيلها. وفي نهاية القرن السادس عشر بدأت إنكلترا تبحث عن نقاط ارتكاز لها على طريق الهند، فاستغلت ضعف البرتغال في تلك الفترة، وأخذت تعمل على السيطرة على سواحل شبه الجزيرة العربية وطرد البرتغاليين من تلك المنطقة.

ثانياً - الاستعمار الإنكليزي في جنوب شبه الجزيرة العربية:

لقد تمكنت إنكلترا تدريجياً من القضاء على النفوذ البرتغالي في منطقة الجنوب كما أنها أبعدت النفوذ الفرنسي عن تلك المنطقة حيث كانت فرنسا تسعى للحصول على امتيازات في عمان، ولكن إنكلترا منعتها من ذلك، وعقدت مع سلطان عمان معاهدة تعهد فيها بإبعاد الفرنسيين نهائياً عن المناطق التابعة له.

إن اهتمام إنكلترا بحماية طريق الهند، وبخاصة بعد حملة نابليون على مصر وظهور محمد علي جعلها تحاول السيطرة على مناطق الجنوب العربي متبعة من أجل ذلك أساليب متعددة، فقد احتلت جزيرة بريم، ثم احتلت عدن بالقوة عام ١٩٣٩ م وبدأت تتوسع بالمناطق القريبة منها.

كما وقعت إنكلترا معاهدات مع شيوخ الإمارات الداخلية، ثم ما لبثت هذه الاتفاقيات أن تحولت إلى معاهدات حماية.

ثالثاً - المملكة العربية السعودية:

تعد المملكة العربية السعودية واحدة من دول الخليج العربي الست التي تشمل إضافة إلى المملكة كلاً من عمان والإمارات العربية المتحدة والكويت وقطر والبحرين.

أ - تأسيس الدولة السعودية:

يعود الفضل في تأسيس الدولة السعودية الأولى في منطقة نجد إلى الأمير محمد بن سعود. وقد حصل خلاف بين السعوديين والدولة العثمانية التي لم تتمكن من إيقاف توسعهم إلا بعد الاستعانة بواليتها في مصر محمد علي باشا الذي أرسل ابنه إبراهيم باشا على رأس جيش كبير تمكن من القضاء على دولتهم وهدم عاصمتهم الدرعية عام ١٨١٨ م.

استطاع السعوديون بعد فترة من الوقت استعادة حكمهم في نجد، لكن بسبب النزاع الذي حصل بين الأمراء السعوديين، تمكن خصومهم - آل الرشيد - أمراء - حائل - من التغلب عليهم وبسط نفوذهم على نجد، وغادر الأمير السعودي عبد الرحمن بن فيصل الرياض وقصد الكويت ونزل ضيفاً على أميرها عام ١٨٩٢ م.

ب - استطاع الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن عام ١٩٠٢ م إعادة سيطرة السعوديين على مدينة الرياض، وطرد آل الرشيد منها، وبدأ يتوسع في منطقة نجد وفي عام ١٩١٣ م، تمكن من ضم منطقة الأحساء إلى دولته ونودي به سلطاناً على نجد.

وبعد قضاء السعوديين على إمارة آل الرشيد في حائل ساءت العلاقات بينهم وبين الشريف حسين، وتدخلت إنكلترا لحل الخلاف، ولكنها لم تتمكن من ذلك، وفي عام ١٩٢٤ م تقدمت قوات السلطان عبد العزيز نحو منطقة الحجاز وتمكنت من هزيمة قوات الشريف حسين، واحتل السعوديون مدينة الطائف، ثم احتلوا مكة المكرمة وسائر مدن الحجاز. وفي عام ١٩٣٢ احتل السعوديون منطقة عسير التي كان يحكمها الأدارسة، وتم الإعلان عن تشكيل دولة جديدة موحدة اسمها (المملكة العربية السعودية) وبعد قيام الحرب بين السعودية واليمن بسبب الخلاف على منطقة عسير، تم عقد معاهدة الطائف بينهما عام ١٩٣٤ م، واعترفت اليمن من خلالها بحدود المملكة العربية السعودية بما فيها منطقة عسير الواقعة شمال اليمن.

الباب الأول

الفصل الأول

الحياة السياسية

- د -

تطور أقطار المغرب العربي وليبيا

(الجزائر - تونس - المغرب - ليبيا - موريتانيا)

أ - تطور الجزائر:

كانت الجزائر منذ القرن السادس عشر تابعة اسمياً للدولة العثمانية، وكان حاكمها الذي يسمى (الداي) يتمتع بالاستقلال الكامل في الأمور الداخلية، وفي القرن التاسع عشر بدأت المطامع الفرنسية تتركز حول الجزائر بقصد احتلالها والسيطرة على مواردها وتصريف البضائع الفرنسية فيها.

أولاً - أسباب احتلال فرنسا للجزائر:

أ - الأسباب البعيدة:

- ١ - رغبة فرنسا في تكوين إمبراطورية استعمارية مثلما هو الحال بالنسبة لإنكلترا.
- ٢ - رغبة التجار الفرنسيين بجعل الجزائر مجالاً لتصريف بضائعهم.
- ٣ - رغبة ملك فرنسا شارل العاشر بصرف أنظار المعارضين لحكمه عن طريق تحقيق نصر خارجي.

ب - السبب القريب أو المباشر:

اشترت فرنسا كمية من القمح من حكومة الجزائر، وعندما طالبت الجزائر بثمن القمح ماطلت الحكومة الفرنسية بالرد فاستدعى الداي حسين القنصل الفرنسي، واستوضح منه عما تم بأمر الدّين فأجابه جواباً استفزازياً يخلو من اللباقة، مما دفع الداي إلى لطمه بمروحة كانت بيده.

وقد ادعت فرنسا بأن هذا الحادث يعد إهانة للشرف الفرنسي، وقررت احتلال الجزائر، لمعاقبة الداي.

ثانياً - احتلال الجزائر:

أرسلت فرنسا عام ١٨٢٧ م أسطولاً فرنسياً حاصر مدينة الجزائر ثم انسحب من المنطقة بسبب مشاركة فرنسا في حرب اليونان ضد الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٣٠ م أرسلت فرنسا أسطولها الحربي إلى الجزائر، وقد حاصر هذا الأسطول العاصمة الجزائرية التي أبدى سكانها والجيش المدافع عنها مقاومة شديدة للغزاة الفرنسيين، ولكن تفوق هؤلاء في العدد والأسلحة جعلهم يحتلون مدينة الجزائر، وبعد ذلك بدأ الجيش الفرنسي يتوغل في أنحاء الجزائر المختلفة ويرتكب الجرائم والمجازر وأعمال البطش والقتل ضد السكان الوطنيين، ولقد كان غزو فرنسا للجزائر وارتكابها المجازر فيها صدمة للوطنيين العرب كما كان بداية لتحقيق مطامع فرنسا الاستعمارية في منطقة المغرب العربي.

ثالثاً - سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر:

- أعلنت فرنسا أن الجزائر أرض فرنسية وعيّنت عليها حاكماً فرنسياً.
- شجعت هجرة الفرنسيين إلى الجزائر ووزعت عليهم الأراضي الخصبة.
- احتكرت موارد البلاد وأغرقتها بالمصانع الفرنسية.
- بدأت بإثارة الفتن بين سكان الجزائر بقصد تفريق صفوفهم.
- حاربت اللغة العربية والدين الإسلامي.
- بدأت بنشر اللغة والثقافة الفرنسية في الجزائر.

رابعاً - مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري للاحتلال الفرنسي:

بعد دخول الفرنسيين إلى الجزائر لم يتمكن الداوي من مقاومتهم فغادر البلاد، وبدأ الشعب العربي بالجزائر بمقاومة الفرنسيين وحصلت عدة ثورات، من أهمها ثورة الأمير عبد القادر الجزائري التي تعد مفخرة للجزائر وللأمة العربية.

١ - مرحلة النصر ما بين عامي ١٨٣٢ - ١٨٣٩ م:

أعلن الأمير عبد القادر الجزائري الجهاد ضد فرنسا واتخذ من مدينة (معسكر) مركزاً له فالتف حوله الشعب الجزائري، لكي يكون قائداً للثورة، تمكن الأمير عبد القادر من تحرير مدينة تلمسان وأحرز انتصارات كبيرة على الفرنسيين فاضطرت فرنسا إلى عقد معاهدة (التافنا) عام ١٨٣٧ م التي تخلت بموجبها عن حكم مدينة وهران.

عمل الأمير عبد القادر على إعمار عاصمته وتنظيم حكومته وأنشأ جيشاً قوياً منظماً ومدرباً كما أنه أنشأ مصانع الأسلحة.

٢ - مرحلة التراجع ما بين عامي ١٨٣٩ - ١٨٤٧ م:

عيّنت فرنسا الجنرال بوجو حاكماً عاماً على الجزائر وزودته بجيش كبير، وطلبت منها إنهاء ثورة الأمير عبد القادر الجزائري، اتبع بوجو سياسة الأرض المحروقة حيث دمرت فرق الجيش الفرنسي المدن والقرى والمزارع وطردت الأهالي من مساكنهم وأبادت قسماً كبيراً منهم عن طريق ارتكاب المذابح الجماعية.

ولما هوجمت مدينة (معسكر) لجأ الأمير عبد القادر إلى المغرب، ثم عاد إلى الجزائر وتابع القتال ضد الفرنسيين، ثم اضطر إلى الاستسلام عام ١٨٤٧ م واختار مدينة دمشق مقراً لإقامته وبقي فيها حتى وفاته عام ١٨٨٣ م.

وقد أصدرت فرنسا مرسوماً عام ١٨٤٧ م أعلنت فيه الجزائر جزءاً من فرنسا وأصبحوا يطلقون عليها اسم (فرنسا ما وراء البحار).

خامساً - ثورة المقراني عام ١٨٧١ م وثورة أولاد سيدي الشيخ عام ١٨٨١ م:

قامت ثورة جديدة في الجزائر عام ١٨٧١ م قادها محمد المقراني في منطقة جبال القبائل، ثم امتدت الثورة إلى العاصمة والجنوب، ولكن سقوط المقراني شهيداً في إحدى المعارك أدى إلى نهاية الثورة.

وفي عام ١٨٨١ م حصلت في الجزائر ثورة جديدة قرب مدينة وهران سميت بثورة أولاد سيدي الشيخ، ولكن الفرنسيين قمعوها بشدة وقسوة.

سادساً: الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية:

١ - بعد فشل الثورات التي قامت بالجزائر في القرن التاسع عشر تحول النضال العسكري إلى نضال سياسي، وبدأ الجزائريون يحاولون استخلاص حقوقهم من فرنسا عن طريق المفاوضات، واستمر ذلك حتى قيام الحرب العالمية الثانية حيث قاتل الجزائريون إلى جانب فرنسا بعد أن وعدتهم بمنحهم الحرية والاستقلال بعد انتهاء الحرب.

٢ - ولكن النتيجة كانت على عكس ما توقعه الجزائريون؛ لأن فرنسا عادت إلى اتباع سياسة البطش والقتل والإرهاب، كما أنها ارتكبت مذبحه قسطنطينية عام ١٩٤٥ م التي ذهب ضحيتها ٤٥٤ ألف جزائري، ورافق ذلك اعتقال الآلاف من أبناء الجزائر وإعدام الكثير منهم.

ب - تطور تونس:

كانت في أواخر القرن التاسع عشر تابعة اسماً للدولة العثمانية. ويحكمها فعلياً حكام محليون يحملون لقب (الباي) مثلما حمل حكام مصر في تلك الفترة لقب الخديوي.

أولاً - أسباب الاحتلال الفرنسي لتونس:

١ - حكم تونس في القرن التاسع عشر عدد من البايات حصلوا على قروض مالية كبيرة من بعض الدول الأجنبية بقصد القيام ببعض الإصلاحات وقد عمد الباي إلى جمع الضرائب الباهظة من السكان، وكذلك الاستدانة من الدول الأجنبية مما أتاح لهذه الدول الاستعمارية التدخل في شؤون تونس ولاسيما فرنسا.

٢ - وعندما عجزت ميزانية تونس عن سداد الديون بادر الباي إلى منح الدول الأجنبية بعض الامتيازات، ثم أصدر عام ١٨٦٩ م مرسوماً يقضي بتأليف لجنة أوروبية مؤلفة من إنكلترا وفرنسا وإيطاليا مهمتها إيجاد الحلول المناسبة لمشكلة الديون الخاصة بتونس.

٣ - وقد استغلت فرنسا هذه الظروف المواتية للاحتلال، وبدأت تزيد من تدخلها في شؤون تونس بحجة وفاء الديون، ثم حصلت على موافقة إنكلترا على تدخلها في شؤون تونس مقابل السماح لإنكلترا باحتلال جزيرة قبرص.

٤ - وقد عارضت الدولة العثمانية الاحتلال الفرنسي لتونس، كما عارضت إيطاليا هذا الاحتلال؛ لأنها كانت ترغب باحتلال تونس وجعلها مستعمرة لها.

ثانياً: احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ م

- السبب المباشر:

في عام ١٨٨١ م ادّعت فرنسا قيام قبائل تونسية بمهاجمة الحدود الجزائرية، لكي تبرر تدخلها في تونس. متذرة بتأديب تلك القبائل، فأرسلت فرنسا حملة عسكرية كبيرة دخلت إلى تونس ووصلت إلى العاصمة، وفرضت على الباي معاهدة باردو التي جعلت الاستعمار الفرنسي يمتد من الجزائر إلى تونس.

ثالثاً - معاهدة باردو عام ١٨٨١ م:

نصت هذه المعاهدة على ما يلي:

١ - تحتل فرنسا في تونس المراكز التي تراها صالحة لتوطيد الأمن والنظام إلى أن تصبح تونس قادرة على القيام بهذه المهمة.

٢ - تكليف ممثلي فرنسا الدبلوماسيين بحماية رعايا تونس ومصالحهم في الخارج.

٣ - الاتفاق بين فرنسا وتونس على وضع نظام مالي يساعد على وفاء الديون.

٤ - يتعهد الباي بمنع إدخال الأسلحة والذخائر من تونس إلى الجزائر.

رابعاً - اتفاقية المرسى عام ١٨٨٣ م:

ولقد نتج عن فرض معاهدة باردو على تونس ثورة عنيفة بدأت في القيروان، ثم امتدت إلى بقية البلاد، وقد أخذت فرنسا هذه الثورة بشدة وقسوة، وأجبرت الباي على توقيع معاهدة المرسى عام ١٨٨٣ م، التي تقرر من خلالها فرض الحماية الفرنسية على تونس، حيث وجدت فرنسا أن نظام الحماية أفضل من الاحتلال المباشر، وهكذا تمكنت فرنسا من فرض سيطرتها على تونس من خلال معاهدة باردو واتفاقية المرسى.

خامساً - سياسة فرنسا الاستعمارية في تونس:

- ١ - عينت فرنسا مقيماً عاماً فرنسياً إلى جانب الباي جمع بيده جميع السلطات.
- ٢ - جعلت الشؤون المالية تحت الإدارة الفرنسية.
- ٣ - صادرت الأراضي الخصبة ووزعتها على المهاجرين الفرنسيين.
- ٤ - أصبح اقتصاد تونس بمجالاته المختلفة تحت سيطرة فرنسا.
- ٥ - حاربت فرنسا اللغة العربية والدين الإسلامي.
- ٦ - بدأت بنشر اللغة والثقافة الفرنسية في تونس.

ج - تطور المغرب:

أولاً - أوضاع المغرب قبل الاحتلال الفرنسي:

١ - لم يخضع المغرب للعثمانيين كما حصل بالنسبة لبقية أقطار المغرب العربي، بل حافظ على استقلاله حتى أوائل القرن العشرين، وتعاقد على حكمه أسرتان أولاهما أسرة الأشراف السعديين التي انتهت دورها في حكم المغرب عام ١٦٦٠ م، ومن أشهر حكامها السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ والسلطان أحمد المنصور.

أما الأسرة الثانية فهي أسرة الأشراف العلويين التي لا تزال تحكم المغرب حتى الوقت الحاضر، ونظراً لأهمية موقع المغرب فقد تعرض لغزو الإسبان الذين احتلوا مدنها ومليحة والجزر الجعفرية منذ أواخر القرن الخامس عشر بهدف إقامة قواعد عسكرية فيها. والسيطرة على ثرواتها السمكية كما قامت إنكلترا باحتلال طنجة.

٢ - يتميز المغرب بوجود واجهتين بحريتين له على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وهذا الموقع أكسبه أهمية جعلت الدول الأوروبية وخاصة فرنسا تتنافس من أجل تحقيق مطامعها فيه والسيطرة على مقدراته.

ثانياً - التناهم الاستعماري:

عمدت فرنسا تمهيداً لاحتلال المغرب إلى إبعاد الدول المنافسة وإرضائها فعقدت مع إيطاليا معاهدة ١٩٠٢ م، التي أطلقت يدها في ليبيا مقابل موافقة إيطاليا على احتلال فرنسا للمغرب، وعقدت مع إنكلترا الاتفاق الودي عام ١٩٠٤ م، الذي يطلق يدها في مصر. واتفقت فرنسا مع إسبانيا على منحها منطقة نفوذ في منطقة الريف وهي الساحل الشمالي للمغرب ومنطقة أفني في الجنوب. وفي عام ١٩١١ م تنازلت فرنسا لألمانيا عن جزء من الكونغو الفرنسية مقابل اعتراف ألمانيا بالحماية على المغرب.

ثالثاً - فرض الحماية الفرنسية على المغرب عام ١٩١٢ م:

١ - في عام ١٩١٢ م انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي تأمرت من خلاله الدول الاستعمارية على استقلال المغرب.

وبعد أن تفاهمت فرنسا مع بقية الدول الاستعمارية بدأت باحتلال بعض المدن المغربية تدريجياً مثل الرباط وفارس والدار البيضاء. وقد تم عزل السلطان عبد العزيز بسبب قبوله بمقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، واستلم الحكم من بعده أخوه السلطان عبد الحفيظ.

٢ - وفي آذار عام ١٩١٢ م وقعت فرنسا مع سلطان المغرب معاهدة الحماية الفرنسية التي تضمنت عدة بنود من أهمها:

١ - التزام فرنسا بحماية السلطان ومساعدته ضد أي خطر يتهدهه.

٢ - السماح لفرنسا باحتلال المناطق التي ترغب بها في المغرب.

٣ - تقوم فرنسا بتمثيل المغرب بالخارج.

٤ - يلتزم السلطان بالامتناع عن عقد أي اتفاق دون موافقة فرنسا.

٣ - ثار الشعب المغربي وقاوم المعاهدة، ولم يستطع السلطان التعاون مع فرنسا بضغط من القوى الوطنية فتنازل عن العرش، وجاء بعده مولاي يوسف بن الحسن (والده السلطان محمد الخامس)

رابعاً - تقسيم المغرب:

اتفقت الدول الاستعمارية عام ١٩١٢ م على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام وهي:

١ - منطقة النفوذ الإسباني وتشمل الريف وعاصمة هذه المنطقة هي مدينة تطوان. إضافة لمنطقة أفني في الجنوب.

٢ - منطقة النفوذ الفرنسي وتشمل بقية مناطق المغرب.

٣ - منطقة طنجة وقد أصبحت دولية بسبب أهمية موقعها عند مضيق جبل طارق.

خامساً - سياسة فرنسا في المغرب:

اتبعت فرنسا في المغرب سياسة استعمارية تشبه مثلتها في تونس والجزائر، ومن أهم معالم هذه السياسة.

١ - السيطرة على اقتصاد المغرب وتوجيهه بما ينسجم مع مصالح الاستعمار الفرنسي.

٢ - مصادرة الأراضي الزراعية الخصبة وتوزيعها على الفرنسيين.

٣ - إهمال التعليم والصحة.

٤ - إثارة التفرقة العنصرية بين السكان.

٥ - نشر اللغة والثقافة الفرنسية في البلاد.

جزر القمر

تألف هذه الدولة من عدة جزر تؤلف أرخبيلاً في المحيط الهندي يمتد ما بين قارة إفريقيا غرباً وجزيرة مدغشقر شرقاً.

وهناك أربع جزر رئيسية وهي:

١ - جزيرة القمر الكبرى وفيها العاصمة موروني.

٢ - جزيرة أنجوان.

٣ - جزيرة موهيلي.

٤ - جزيرة مايوت.

أولاً - جزر القمر قبل القرن التاسع عشر:

انتشر الإسلام كما انتشرت اللغة العربية في هذه المنطقة عن طريق التجار والدعاة والمهاجرين، حيث وصلت إليها هجرات عربية من عمان واليمن وغيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية. وهذه الهجرات أعطت البلاد طابعاً عربياً إسلامياً، علماً بأن العلاقات التجارية بين العرب ومناطق شرقي إفريقيا قديمة، وهي تعود إلى الفترة التي سبقت ظهور الإسلام.

احتل البرتغاليون جزر القمر عام ١٥٠٢ م، وعاملوا أهلها بقسوة ووحشية، ثار سكان هذه الجزر على البرتغاليين وتمكنوا من طردهم من البلاد، وتولى الحكم فيها جماعة من الحكام الوطنيين.

ثانياً - فرض الحماية الفرنسية على جزر القمر:

لقد خضعت جزر القمر للحماية الفرنسية عام ١٨٩٢ م، حيث وقع حاكم البلاد معاهدة مع فرنسا اعترف من خلالها بالحماية الفرنسية على بلاده، وفي عام ١٩١٣ قررت فرنسا وضع جزر القمر تحت السيطرة الفرنسية التامة، وأصبحت هذه الجزر مستعمرة فرنسية تم إلحاقها بجزيرة مدغشقر عام ١٩١٥ م، واستمر ذلك إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث تشكلت جمعية مؤلفة من ثلاثين عضواً تحكم جزر القمر. اتبعت فرنسا سياسة استعمارية في جزر القمر حيث سيطرت على اقتصاد البلاد، وأبقت السكان في حالة الفقر والجهل والمرض وحرمتهم من المدارس، وفرضت الثقافة الفرنسية واتبعت سياسة البطش والقسوة أثناء تعاملها مع أهل البلاد.

الباب الأول

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية في العهد العثماني

أ - عاش الاقتصاد العربي في العهد العثماني خادماً للعثمانيين فقد عاش هذا الاقتصاد تلكوفاً في نشاطه محافظاً على فعالياته وتقاليدته السابقة مجمداً اكتفائياً، الإنتاج فيه مقيد بحاجة الاستهلاك المحلي غير متفاعل مع متطلبات السوق الخارجية العالمية.

ب - كما أن الفرد العربي فيه لم يخرج عن عقليته السابقة القانعة بالقليل بسبب تأصل العادة في نفوس الأفراد واعتماده على الزراعة والرعي في المرتبة الأولى والتجارة في المرتبة الثانية والصناعة في المرتبة الثالثة مع تأثر قليل وسلبى بالتطور الاقتصادي الأوروبي وتأثره بالتذبذبات المناخية كالجفاف وموجات الجراد وانتشار الأوبئة والأوضاع السياسية السائدة في كل إقليم.

ج - واعتماد الاقتصاد المغربي على الجهاد البحري ضد المراكب الأوروبية في المتوسط.

د - وهجرة العرب المسلحين تحت تأثير الضغط الإسباني حيث حملوا رؤوس أموالهم إلى المغرب.

هـ - ولم يسهم العثمانيون في تطوير صناعة وزراعة الوطن العربي.

١ - ففي مجال الزراعة لم يطرأ أي تغير؛ لأن العثمانيين حافظوا على نظم الزراعة السابقة، ولم يغيروا توزيع الأرض على السكان وكان لهم نظامهم الإقطاعي الذي يشبه النظام الإقطاعي المملوكي، وكذلك في المغرب الأقصى عند السلالتين السعدية والعلوية، وقد وزعت الأرض كما يلي:

- أرض ملك بنيت عليها المدن والضواحي.

- وأرض أميرية زراعية يستثمرها الفلاحون مع بقاء حق الأمير التصرف بها.
- وأرض وقف ينفق منها على المساجد والمدارس والمشافي والزوايا ومطابخ الفقراء
والخانات.

- وأرض مشاعات والمراعي التي هي حق لكل الناس.

- وأرض موات لم تزرع.

- وأرض المراعي.

و - ويعمل الفلاحون في هذه الأرض أجراء يسدون رمتق ذويهم يزرعون المحصولات
التي يحتاجون إليها (الحبوب - الأشجار المثمرة - القطن - التوت - السمسم - قصب
السكر - الورد - التبغ - القهوة).

ز - ولم تحقق الزراعة ازدهاراً كبيراً بسبب:

- انتشار الإقطاع.

- واستغلال الفلاحين.

- وإهمال وسائل الري.

- واضطراب الأحوال السياسية.

- والتصادمات المسلحة.

- وتعرض القرى الزراعية لغزو البدو والكوارث الطبيعية والاجتماعية.

- وعدم تنظيم الزراعة والمحصولات.

- وحياة الفلاح الصعبة التعسة.

٢ - أما الرعي فقد كان يعتاش منه فئة كبيرة من الناس برعي الغنم، الإبل، الجاموس،

الثيران، بحيث قد تُغير القبائل الرعوية على الأرض الزراعية.

٣ - وفي مجال الصناعة فقد عاشت على التطور الذي أصابها حتى في نهاية عهد الدول

المتسابقة كصناعة القطن الحرير، وفي المغرب العربي أسهمت الدولتين السعدية والعلوية في

تنشيط الصناعة وخاصة بعد هجرة العرب الأندلسيين مطرودين من إسبانيا، وقد خبا ازدهار الصناعة بعد ذلك لأسباب عدة:

- أ - جذب الصناع من المدن العربية من قبل الدولة.
 - ب - وعدم الأخذ بمعطيات الانقلاب الصناعي الأوروبي.
 - ج - وعدم إلحاق بالتطورات الاقتصادية الكبرى في أوروبا.
 - د - ومنافسة الصناعة الأوروبية المتطورة للصناعة العربية.
- وأهم الصناعات العربية (النسيجية - الصوفية - الحريرية - القطنية - الكتانية - السجاد - الصباغة الجلدية - الدباغة - الخشب المحفور - الصياغة - الموزاييك - البارود - الورد - العطر - الصابون - الحلوى - السفن).

٤ - وفي مجال التجارة فقد قام العثمانيون:

- أ - بالقضاء على احتكار البرتغاليين للتجارة في الشرق الأقصى.
- ب - وصارت الدول العربية وسيطاً تجارياً بين دول شرق الوطن العربي وغربه.
- ج - وقد كانت التجارة الداخلية تتم بين البلاد العربية والأناضول بوساطة القوافل البرية والبحرية.
- د - وقد لعبت قوافل الحجيج دوراً تجارياً بين مكة المكرمة وبقية أجزاء العالم العربي والإسلامي
- هـ - ومن أهم السلع المتاجر بها: (الخشب - الحديد - الملابس - السجاد - الثمار المجففة - الفرو - الشمع - التوابل - الكتان - الرز - السكر - الصابون).
- و - ومن المدن التجارية: (دمشق - حلب - القاهرة - الإسكندرية - جدة - بغداد - الجزائر - تلمسان - طرابلس الغرب - مراكش - فاس).
- ز - وظهرت أسواق محلية كثيرة يطول تعدادها، وعلى الرغم من ضعف نشاط التجارة العربية؛ فإن التجار قد كَوَّنوا طبقة اجتماعية غنية متنفّذة لها نقابتها وشيخها.

الباب الأول

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

في العهد العثماني

أ - لم يغير العثمانيون من التركيب الاجتماعي العربي السابق له؛ ولم يعتمد التغير الاجتماعي الطبقة الأرستقراطية المشاركة بالحكم وإن تكونت طبقة جديدة نتجت من تزاوج الانكشارية مع السكان الأصليين أثرت في الحياة السياسية المحلية.

ب - ولم تحارب اللغة العربية في البداية على الرغم من كون اللغة التركية هي اللغة الرسمية، وكان فقهاء الدولة وعلماؤها يجيدون اللغة العربية.

ج - وبقي المجتمع مقسوماً إلى قسمين الطبقة الحاكمة والرعية مع تباعد بين الطبقتين كان يقرب ما بينهما من قبل العلماء الذين شكلوا طبقة ذات ترابط كبير مؤلفة من شيخ الإسلام القاضي المفتي نقيب الأشراف يشرفون على المساجد ودروس العلم والخطابة وحل مشاكل المجتمع.

د - وهناك أهل الذمة من اليهود والنصارى من الذين عاملهم العثمانيون معاملة حسنة.

١ - اليهود: وقد عوملوا معاملة حسنة يمثلهم حاخاماتهم وكان أطباء العثمانيين منهم وعاشوا تجاراً وصناعاً وأطباء، وقد كان يسيطر على تجارة الجزائر أسرتان يهوديتان هما (بوشناق - وبوخريص).

٢ - ويمثل النصارى بطاركتهم واعترفوا بالكنيسة (الأرثوذكسية - الأرمنية - والنسطورية - والتوفستية - والمارونية - والكاثوليكية).

هـ - ولم ينقص التآلف بين المسلمين والنصارى واليهود سوى سياسة التريك وإحلال اللغة التركية محل اللغة العربية، ومحاولة الدول الأوروبية الادعاء بحماية الأقليات المسيحية واليهودية.

الباب الأول

الفصل الرابع

الحياة الثقافية

في العهد العثماني

أ - عاد الفكر في البلاد العربية في هذا العهد إلى التقليد والتركيب والجمع أكثر مما اتجه إلى الإبداع، فالحياة جامدة في الوطن العربي، الاضطراب السياسي والفقر مسيطر مع ركود في الجانب الاقتصادي وعدم تشجيع الدولة للابتكارات الأدبية والعلمية.

ب - وكان التعليم دينياً بالدرجة الأولى في المسجد والبيت ودينياً في الدرجة الثانية، وكان (حفظ القرآن الكريم - والحديث الشريف - وعلم الفقه - والتفسير - والمنطق - والحساب - والهندسة - والطب - والخط) في الجامع (الأزهر - والأموي - والزيتونة - وجامع القرويين - والجامع الكبير - والجامع الجديد) إضافة إلى المدارس التي تعلم الطرق الصوفية.

ج - وقد تجاذب المجتمع الغربي تيارات فكرية مختلفة:

١ - التيار الديني السني.

٢ - التيار الديني التصوفي.

٣ - التيار الديني الشيعي.

ولكل منها أسسه وعلماؤه وشيوخه وعلومه وسلوكه.

٤ - وتيار العلوم اللغوية والعلوم: (العقلية - الهندسية - والرصد - والطب - والعلوم الاجتماعية - والتاريخ - والجغرافيا - والأدب الغربي).

د - وانتشرت تجارة الكتب والمكاتب.

هـ - وكان للنشاط الفني مجراه الخاص في العمارة والزخرفة وغيرها متأثرة:

- ١ - بالمدرسة الفنية العثمانية.
- ٢ - أو بما حملته العرب الأندلسيون بعد طردهم من الأندلس للمغرب العربي.
- ٣ - والمدرسة العثمانية مزيج من مؤثرات فارسية وبيزنطية و سلجوقية.
- ٤ - وقد تأثر بناء المساجد ببعض الكنائس ككنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية التي حولت إلى جامع مع الاعتناء بزخرفة المساجد بأنواع الخطوط العربية والخزف الملون.
- ٥ - وهناك المدرسة المغربية الزليج.
- و - وكذلك اهتم العمرانيون بالمدارس المدنية والعسكرية والحمامات.
- ز - ومن أهم المساجد: (جامع الدراويشية - التكية السليمانية - جامع السنانية - جامع مراد باشا).
- ح - واهتم العثمانيون بالمساجد الثلاث: (مسجد مكة المكرمة - مسجد المدينة المنورة - ومسجد الصخرة).
- ط - وكذلك بناء القصور: (كقصر العظم في الشام - وقصر العظم في حماة) وقد بناهما أسعد باشا العظم، وكذلك بنى أحمد المنصور السعدي قصوراً أشهرها: (قصر البديع) وبنى مولاي إسماعيل العلوي مجموعة أبنية جميلة في مكناس.

الباب الأول

الفصل الخامس

النهضة العربية

في نهاية العصر العثماني

أولاً - رفض للحياة العثمانية:

أ - مقدمة:

عاش العرب في ظل الدولة العثمانية منقادين لسياستها الدينية والدينيوية ورضوا بها فترة طويلة لإدراكهم أن القاسم المشترك بينهم وبين الأتراك الدين الإسلامي، وتعد اليقظة العربية بمضمونها الشمولي هي تنبيه المجتمع في كل أنحاء الوطن العربي إلى وجوده في حالة خمول وتخلف وتبعية لدولة أضحى ضعيفة ميئوس منها لا تهتم بأمر رعيته وتتصارع عليها دول غربية طامعة بها مع ما لها من ماضي عريق وحضارة أصيلة وسيادة سابقة حيث ظهرت حركات مبكرة، وهذه اليقظة تسعى إلى التحرر من السلطة العثمانية وإعادة الوحدة للفكرة العربية متطللة في دولة واحدة، ومن ثم التخلص من الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي المعيق للتطور.

وقد أنضجت هذه اليقظة العربية التخمرات الفكرية الخصبة التي احتضنتها طلائع النهضة العربية من خلال التجارب السياسية والاجتماعية التي اطلع عليها أبناء العرب من خلال احتكاكهم بالغرب، ومن أهم السمات العامة لهذه اليقظة في العهد العثماني: (تسلل الحضارة الأوروبية للدولة العثمانية وإلى المجتمع العربي من خلال الاحتكاك المباشر للدبلوماسيين والتبشير والتجار والطلاب الدارسين وغيرهم).

ب - وتتمثل اليقظة العربية بمظهرين:

١ - مظهر فكري:

تجلى في كتابات وأفكار العلماء والأدباء التي تصوّر سوء المجتمع العربي، وفي هذا التطور الفكري ظهر:

أ - تيار يقظوي ديني يدعو إلى العودة إلى تطبيق مبادئ الإسلام للوصول إلى النهضة بالمجتمع وتخليصه من الخرافات والبدع من خلال موقف متشدد من كل تجديد طارئ على الحياة العربية الإسلامية ومن الاستغراب، وقد اتخذت هذه الفكرة صفة (السلفية الوهابية في نجد - والسنوسية في شمال إفريقيا - والمهدية في السودان) طارحة على الشعب مفهوم الحكم الصالح ومن خلال موقف ينادي بضرورة إحياء الدين الإسلامي مع التأكيد على ضرورة دعم الخلافة الإسلامية بحيث يكون تحرك الدين مع تطور الحياة العامة، ومثل ذلك حركة المجددين في الإسلام (الشيخ جمال الدين الأفغاني - والشيخ محمد عبده) في مصر، و (سليمان بن محمد - والأمير عبد القادر الجزائري) في المغرب.

ب - وتيار يقظوي نصف علماني مزيج من الدين والعلمانية لم يتخذ طابع الشمول للعالم الإسلامي ولا للعالم العربي.

ج - وتيار ثالث يقظوي علماني لا ينظر إلى الدين أساساً للنهوض بالمجتمع مثله (فرانسيس مراش الحلبي الأصل - وشبلي شميل).

وقد كان المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي أول من زاوج بين مفهوم القومية العربية والجامعة الإسلامية.

وقد لعبت الصحافة العربية دوراً مهماً وأساسياً في نشر أفكار تلك التيارات بين الشعب وتعميم الثقافة (صحيفة الجوائب) ومجلة (المنار) يضاف إلى ذلك انتشار التعليم والطباعة.

٢ - مظهر سياسي:

تمثل في حركات ثورية سياسية ضد حكم العثمانيين (الثورة السعودية في نجد - ثورة ظاهر العمر في الشام - ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين).

٣ - مظهر اقتصادي في استفادة محمد علي باشا من الصناعة الأوروبية وكذلك الباي موده باشا في المغرب.

ثانياً - عوامل اليقظة العربية:

أ - أسباب اليقظة:

إذا رحنا نبحت عن عوامل اليقظة العربية نجد أنها تمثلت في:

- ١ - ضعف الدولة العثمانية وعدم قدرتها على حماية شعوبها.
- ٢ - الاستعمار الغربي الذي سعى لتقويض هذه الإمبراطورية الإسلامية الواسعة.
- ٣ - محاولات الإصلاح في الدولة العثمانية.
- ٥ - التحديات التي جابهت البلاد العربية بعد ضعف الدولة العثمانية.
- ٦ - الرغبة العربية بالرجوع إلى الأصول العربية الإسلامية.
- ٧ - محاولة إظهار الضمير العربي المستقل في حكم الشعوب العربية.
- ٨ - ولقد كان عامل الضعف في الدولة المحرك الأساسي لذلك:

أ - فقد فسد الحكم في البلاد العربية.

ب - وتحول إلى فوضى وقهر وظلم وتسلط.

ج - وضعفت هيبة الدولة في الداخل والخارج.

د - وتفشت الرشوة.

هـ - وبرز انحطاط الجيش بكل فرقته.

و - وظهر التفكك السكاني بين شعوب الإمبراطورية العثمانية.

ز - وتضعضع الاقتصاد لعدم اهتمام الدولة به.

ح - وتفوقت أوروبا سياسياً وعسكرياً على العثمانيين.

ط - وسياسة أوروبا مع الدولة العثمانية في المسألة الشرقية.

ي - وتقاسم الأوروبيون وريثة هذه البلاد.

ب - حركة الإصلاح العثماني:

وبالرغم من حركة الإصلاح في الدولة العثمانية من خلال:

- ١ - إصلاح الجيش.
 - ٢ - وإصلاح النظم الإدارية.
 - ٣ - قويت سلطة الدولة المركزية.
 - ٤ - وأضعفت سلطة الولاية.
 - ٥ - وأثرت هذه الإصلاحات على اليقظة العربية.
 - ٦ - وأدخلت السرور على نفوس العرب بصورة الدستور الذي يميز لممثلي المجلس النيابي العربي حق التقدم للاعتراض على المظالم.
- ج - الضرر الذي وقع على العرب:
- ١ - أضرت باللغة العربية حيث منعت استخدامها.
 - ٢ - وفجرت قضية تقسيم اليمن بين العرب تحت حكم الإمام والترك.
 - ٣ - وأثارت قضية تهاون الترك في تهينة وسائل الدفاع عن ليبيا أمام الطليان.
 - ٤ - وقد كان لمنح الدولة العثمانية امتيازات اقتصادية للدول الأوروبية على الأرض العربية أشد الوقع.
 - ٥ - سياسة التتريك التي دفعت بالعرب إلى تفجير الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ م.
- وبذلك أدرك العرب أن سياسة الاتحاديين العثمانيين قد خيبت آمالهم في البقاء مع الدولة، وأكدوا على ضرورة المطالبة بالانفصال عنها.

الباب الثاني
حال الأدب في
العصر العثماني

الباب الثاني

الفصل الأول

الأغراض التقليدية في الشعر في العصر العثماني

طرق الشعراء في العصر العثماني معظم أغراض الشعر التقليدي، وذلك في ضوء الصورة القديمة للشعر العربي، ومن هذه الأغراض:

١ - المدح:

على الرغم من تلاشي دواعي المدح في العصر العثماني فقد بقي هذا الغرض ظاهراً في شعرهم، فالحكام أترك لا تهزهم قيم المدح العربية، وأصحاب الثروة لم يعثروا في الشعر على فائدة تسعفهم، ومع ذلك ظل لغرض المدح أهمية خاصة، وقد أتبع الشعراء في مدحهم:

أ - طرائق المدح القديمة المعروفة.

ب - زادوا عليها قيماً جديدة استجدت في عصرهم.

ج - خلط قيم المدح القديمة بالجديدة في عصرهم.

وقد مدح الشعراء السلاطين والوزراء والقضاة والعلماء، وقد كان منهاج شعراء المدح في هذا العصر العثماني يتميز بـ:

أ - الخلط بين الصفات العامة والخاصة في المدح.

ب - عدم مراعاة مراتب الممدوحين.

ج - اختلاط معاني المدح.

د - إظهار الحب للممدوح.

هـ - استخدام معاني الغزل في التعبير عن عاطفة الشعراء نحو الممدوح.

و - مدح الأدباء في المطارحات التي تبادلها الشعراء.

ز - مدح الأدباء في القصائد التي وجهها الأدباء الناشئون للأدباء الكبار.

٢ - الفخر:

جاء الفخر في هذا العصر استجابة لقيم العصر ومعطياته فكان:

أ - الفخر بالنسب والمآثر.

ب - الفخر بالأخلاق والترفع عن الدنيا.

ج - الفخر بالموهبة الأدبية.

وقد كان الفخر في هذا العصر رداً على استهانة الحكام بالشعراء وتدني النظرة إليهم.

ذلك أن معاني الفخر القديمة قد اندثر بعضها بسبب تغير البنى الاجتماعية ومقاديرها فقد أصبح الحاكم غير عربي، مفاخره مختلفة عن مفاخر العرب.

٣ - الرثاء:

لم يتغير نهج الرثاء في هذا العصر عما كان عليه في العصور السابقة، فأكثروا منه وذهبوا فيه كل مذهب فقد بكى الشعراء أهليهم ومن يقع مواقعهم وأبنوا الأعمام من الأصدقاء وأصحاب الشأن والمكانة، وبرز رثاء العلماء وشيوخ الصوفية، ورثاء المدن والحيوانات.

٤ - الهجاء:

كتب الشعراء في العصر العثماني بغرض الهجاء بدوافع عدة من بينها.

أ - الظلم والاضطراب الذي يزرع الكره في النفوس.

ب - المنافسة الموصلة للخصومة والهجاء.

ج - الميل عند الشعراء لانتقاد الآخرين.

د - اتخاذ الهجاء مادة للسخرية والإضحاك.

هـ - اتخاذ الهجاء وسيلة للتسلية.

و - تحريك نزعة الشر عند الشعراء.

وقد كثر هجاء أهل الدولة والحكام بسبب ظلمهم للرعية ومن بينهم الشعراء، وبقيت معاني الهجاء القديمة سارية في هذا العصر العثماني مع بعض التجديد في المعاني والصور والأساليب.

٥ - الغزل:

الذي غلب على شعر الشعراء في هذا العصر بألوانه المختلفة:

أ - الغزل التقليدي.

ب - الغزل العفيف.

ج - الغزل الصريح.

د - الغزل المصطنع.

هـ - الغزل المستهجن.

وقد أعلن الشعراء شغفهم بالمرأة وكلفهم بالحديث عنها ووصف جمالها وتأثيرها بهم،

وقد اعتمد الشعراء في غزلهم على:

أ - التفكير العقلي في بناء الصور والمعاني.

ب - الابتعاد عن الارتجال في أدائه.

ج - قلب معانيه على وجوهها.

د - اتخاذ مسلك الخفة والسهولة فيه.

هـ - الاهتمام بغنائيته.

و - الافتتان في عرض صورة المرأة.

ز - عدم الخوض في عرض العواطف ووصف حالات العشق ومعاناته.

٦ - الوصف:

وهو الغرض الأهم في عرض قدرة الشاعر على الإبداع، وقد مال الشعراء إلى هذا الغرض ميلاً شديداً حيث وصفوا كل ما حولهم من طبيعة ورياض ومنتزهات وخلعوا على الطبيعة مشاعرهم وأحاسيسهم وأكثروا من وصف النواير والنوافير والشموع وما استجد في عصرهم من مبتكرات في عصرهم مثل (النظارة الطبية - الساعة - دولايب العيد) وكذلك شاع وصف الرسائل المكتوبة والقصائد المرموقة.

٧ - الحديث عن القهوة (البن):

بعد اكتشافها في اليمن حيث أصبح موضوع جدل في حلها وحرمتها وفوائدها ومضارها، وقد وصفها الشعراء واستعاروا لها صفات الخمرة، ثم انفردوا بوصف رائحتها وطعمها وإنائها ولونها.

٨ - الحديث عن المخدرات:

التي عرفها العصر العثماني بأنواعها (الحشيش - البرش) التي أشاعها الصوفيون وأشاد بها الشعراء بداية لما يمنحه لهم من السعادة والإنعاش لكنهم لما عرفوا أضرارها ذموا وحاربوها.

٩ - الحديث عن التبغ:

الذي وصل من أوروبا إلى الدولة العثمانية بعد اكتشافه في أمريكا فاختلف الناس عليه بين محبذ ومنكر، ثم غدا ظاهرة اجتماعية شارك الشعراء في الجدل حوله (إباحة وتحريمًا) مدحه بعضهم وذمه آخرون.

١٠ - الحديث عن الخمرة:

فقد أفاض شعراء العصر العثماني في وصفها ووصف مجالسها معتمدين على سابقهم في تصويرها، وإن كان البعض قد ذمها وبيّن ما تفعله في الإنسان من فقدان العقل.

١١ - الشعر الاجتماعي:

واجه الأديب في العصر العثماني مجتمعه بتحد وعناد وناقش مشاكل مجتمعه بكافة أشكالها واشتكى من سوء الأحوال في عصره وانقلاب المفاهيم الاجتماعية وتغيرها ونقد العادات السيئة، وسخر من هذا المجتمع الذي دفعه إلى الإحساس بالغربة والاعتراب، وقد شمل الشعر الاجتماعي الحديث عن:

أ - الإخوانيات:

التي تمثل علاقات الشعراء ببعضهم البعض والتي توحدت بسبب قلة المنافسة بينهم، ولأن الأحوال البائسة قد جمعهم بعد ضيق دائرة التلقي عليهم مما جعلهم يتوجهون إلى أنفسهم

بشعرهم بسبب رفض أصحاب المال للشعر وانصراف العامة عنه لانشغالهم بالعمل وطلب العيش، وهكذا فقد أكثر شعراء العصر العثماني من المطارحات الشعرية والدعوة إلى الاعتذار والعتاب، وقد أظهر الأدباء في مطارحاتهم قدرتهم على العطاء الأدبي خاصة من الشعراء الناشئين، وقد سلكت قصيدة المطارحة:

١ - مقدمة غزلية.

٢ - المدح وطلب الرد.

٣ - الانتهاء بالدعاء.

وقد صارت المطارحات شكلاً أدبياً يظهر فيه الأديب أفكاره ومشاعره وإبداعه وعواطفه الرقيقة السامية، كما تبادل الأدباء التكريز والصدقة.

ب - النقد الاجتماعي:

لم يرض شعراء العصر العثماني عن كثير من الظواهر الاجتماعية في عصرهم فنقدوها بجرأة أحياناً وبتخفى أحياناً أخرى، وبالتلميح تارة ثالثة ودعوا إلى الإصلاح وتنقية المجتمع من العادات السيئة والمفاهيم المغلوطة من خلال الإكثار من الانتقاد والنصح وقد تناول النقد:

١ - الممدوحين والبخلاء.

٢ - المتصدرين للعلم والقضاء من الأتراك والجهلة.

٣ - تصرفات المتصوفين الشاذة الخارجة عن الدين.

٤ - انقلاب المقاييس والمفاهيم الاجتماعية.

٥ - مظالم العثمانيين وفسادهم.

ج - الشكوى:

اشتكى شعراء العصر العثماني من كثير من الظواهر الخاطئة في حياتهم وازدادت الشكوى بسبب انحدار المجتمع باتجاه السوء والغلط والفساد، وأكثر ما كانت الشكوى منه:

١ - الشكوى من تغير مكانة الشاعر.

٢ - الشكوى من كساد سوق الشعر.

٣ - الشكوى من حرمان الشعراء من العطايا.

٤ - الشكوى من الاضطراب والفوضى.

٥ - الشكوى من غياب الأمن.

وقد كانوا يحسون بالغبن فيئسوا من الحياة وعزوا أنفسهم بأن الفضل يرفع مكانة صاحبه، ولو لم يعترف المجتمع بذلك وكانوا يلجؤون إلى التضرع إلى الله تعالى أن يخلصهم من كربهم وأن يفرج عنهم ضيقهم.

د - السخرية:

استخدم شعراء العصر العثماني ظاهرة السخرية من المشاكل التي تعرضوا لها وتجهم الحظ لهم، وجعلوا هذه السخرية وسيلة لتخفيف وقع الحياة عليهم وتحولت سخريتهم إلى نافذة ينظرون إلى الحياة من خلالها، ومن مظاهر السخرية في شعر العصر العثماني:

١ - رثاء الحيوان.

٢ - التعزية به.

٣ - وصف الحال وصفاً مضحكاً.

٤ - معارضته القصائد الجادة بسخرية.

وما ذلك إلا للتنفيس عن هموم وإضحاك الناس وإيصال صورة من الشكوى بطريقة غير مباشرة.

هـ - الغربة والحنين:

التي جاءت بسبب تنقل شعراء العصر العثماني من قطر إلى قطر ومن دولة إلى دولة طلباً للعلم والرزق وتشوقاً لمعرفة معاني الشعر، وقد غلب على شعراء العصر العثماني شعور الغربة فيكتب في الحنين إلى وطنه، وقد تحول بعض الشعراء من الحنين إلى التعبير عن الغربة لعدم قدرتهم على الانسجام مع المحيط الخارجي مما يدفعهم إلى القلق والكآبة والإخفاق، وقد كان انقلاب القيم وتغير المفاهيم والافتقار إلى العدالة سبباً في الإحساس بهذه الغربة.

الباب الثاني

الفصل الثاني

حال الشعر في بلاد الشام في نهاية العصر العثماني

- ١ -

في الأردن وفلسطين

تعد الأردن وفلسطين الواقعتان جنوب بلاد الشام امتداداً لسورية ولبنان التي تشكل جميعها ذاتية ثقافية متقاربة ورؤى متمازجة أسهم شعراؤها في دفع حركة الشعر نحو الأمام، وقد ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر شعراء أسهموا في حركة الشعر الحديث في نهاية العصر العثماني وتثقفوا ثقافة تراثية ونالوا تعليماً دينياً أزهرياً كيوسف النبهاني ١٨٤٩ - ١٩٣٢ م، وعلي الريحاوي ١٨٦٠ - ١٩١٩ م ومحبي الدين الملاح وأبو إقبال اليعقوبي ١٨٨٠ - ١٩٤١ م، وإبراهيم الدباغ ١٨٨٠ - ١٩٤٦ م، وإسعاف النشاشيبي ١٨٨٥ - ١٩٤٧ م، وقد غلب على شعرهم المنهج التقليدي في الشعر حيث يغلب مدح الرسول عليه الصلاة والسلام على شعرهم يقول النبهاني:

هواي طيبة لا..... ومنتي عينها الزرقاء لا النيل
وقصائد الشعراء في هذه الفترة هي صنوف قصائد شوقي والبوصيري متأثرة في معجمها اللفظي والصوري والموسيقي مع ولع شديد بالمحسنات البديعية.

يقول الشيخ علي الريحاوي في تكريم جورج زيدان:

خطرت فقلت قضيبي بأن وبدت فقلت البدر بأن
وقد اعتمد الشعراء في هذه الفترة على صياغة تقليدية وتعبيرات جاهزة مألوفة في السبك ولغة مطروقة ومراوحة بين لغة التراث ولغة العصر ومفردات جديدة تسربت إلى معاجم

الشعرية في محافظة على الصياغة التقليدية معجماً وتراكيب ومعاني وتصويراً مع استخدام لغة العامة المعاصرة مترسمين حُطاً الأقدمين مع تجديد نسبي للغة الشعرية في سياق الاستعمار التراثي للغة مع ميل للتحرر من الشكل التقليدي بشكل سطحي لا يمس سوى الوزن والقافية والشكل الخليلي للشعر باتجاه الموشحات والمشطرات والمربعات والمخمسات والدوبيت والموالي والأدوار، كقول إسكندر الخوري البيتجالي:

خرجت من كناسها تتخطر بعضاها
غادة سبوح الإله وكبر من رآها

- ۲ -

فے سوریا ولبنان

- ٣ -

في الجزيرة العربية

- أ -

السعودية

عاشت الجزيرة العربية عزلة سياسية وفكرية بسبب بعد أقاليمها عن الاحتكاك المباشر بالغرب أو البعثات العلمية، وبقيت حالة الشعر في ضعف وركاكة وعجمة وسجع ومحسنات بديعية وموضوعات مكررة من إخوانيات ومدائح ومراثٍ وتهانٍ واجترار للأخيلة والصور والمعاني التي لاكها الشعراء منذ القديم، وكان من الأصوات الشعرية في تلك الفترة عبد الجليل برادة ابن المدينة المنورة المتميز بالقوة والجزالة والفحولة، والذي مدح السلاطين العثمانيين دون أن تبدأ قصائده بالمقدمات الطللية، وكذلك الشاعر إبراهيم الأسكوي الذي قال في العثمانيين:

يا آل عثمان فالمضروور من غزا بأهل أوروبا أو عهد طرا
تمالؤوا فخذوا حذراً فإنهم يرون إبقاءكم بين الورى ضرا
فهذه دولة الطليان حيث رأت أسطولكم ليس يغني فاجأت غدرا
وقد أشارت القصيدة إلى هزيمة العثمانيين أمام الطليان وضعف الخلافة بسبب ابتعادها عن الدين، وقد ثارت ضجة كبيرة حول القصيدة باعتبار أنها فريدة العصر على الرغم من كونها لا ترقى إلى مستوى يجعلها تنال هذا الاهتمام، ثم كانت تجربة الشاعر محمد العمري الجزائري المنشأ التي ساندت العثمانيين ضد فرنسا وبريطانيا، وهو شاعر طويل النفس سيال الطبع مفتق للمعاني في نزعة عروبية كثيرة الشكوى، أما عبد الواحد الجوهري الأشرم المكي، فقد كان شاعراً غزلياً شاع شعره على ألسنة المغنين في عصره لألفاظه السهلة ومعانيه القريبة.

وأما عبد المحسن الصمان فقد ناصر الشريف حسين في ثورته، وقصائده خطب سياسية جاءت على شكل النظم، وبرز في نجد الشاعر سليمان بن سحمان الذي تعد قصائده خطباً دينية تبدأ بالحمد لله تعالى وذكر الشهداءتين، ثم شرح المسائل الدينية بينما كان شعر أحمد بن علي بن مشرف أقرب إلى النثر والمباشرة، ونظم علوم النحو والفقه وباقي شعر نجد شعر عامي.

وكذلك كان شعر عبد الله بن علي آل عبد القادر وعبد العزيز بن عبد اللطيف من آل مبارك يهتم بالرسائل الإخوانية والعتاب والاعتزاز والتهنئة كوسيلة من وسائل التفكه في المجالس في الأحساء، وكان الشاعر حسن علي البدر وعلي الجشي بأسلوبهم القديم في الأسلوب والأغراض (مدح رثاء مناسبات دينية) في منطقة القطيف، وقد انقسم الشعراء الحجازيون إلى قسم يناصر الجامعة الإسلامية ومن ضمنها العثمانيين وأغلبهم من المدينة وقسم انضم للثورة مع الشريف حسين في مكة ضد العثمانيين.

- ب -

في الكويت

عاش الشعر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حالة رديئة، فقد كانت هذه الفترة فقيرة بالشعراء، وقدم الشاعر عبد الجليل الطباطبائي بالوفود للكويت ١٨٤٣ م، وظهر الشعر الفصيح في الكويت وعبد الله الفرج وخالد عبد الله العدساني، وقد كان عبد الله الفرج ١٨٣٦ - ١٩٠١ م يكتب الشعر الفصيح والنبطي ويمارس الغناء.

- ج -

في قطر

١٨٠٠ - ١٩١٩ م

تميز الشعر العربي في قطر في هذه المرحلة بالجمود والركود وغلبة الروح التقليدية من الناحية الفنية ومن ناحية الموضوعات، وقد كان أغلب الشعراء في هذه الفترة في تنقل دائم كالشاعر عبد الجليل الطباطبائي والشاعر محمد بن تيمية يقول الطباطبائي في تصوير شوقه وحنينه للعودة إلى الزيارة وهو في العراق:

هواي ديارى ولست بكماتم هواي ولا مصغ للام وعائب
أتوق إذا هب الجنوبي لأنني أشم الغوالي من مهب الجنائب
وقد كان ابن تيمية صاحب الريادة في إيقاظ الروح الأدبية والشعر التقليدي بلغته العظمى
حيث كثر الشعر باللغة النبطية ويعد مجادين صالح الخليلي أول من كتب بالفصحى في هذه
الفترة حيث ظهرت جزالة الأسلوب وقوة التراكيب واستقامة المعنى والدقة في اختيار الألفاظ
الفصيحة التي مثلها أكبر شاعر قطري في هذه الفترة محمد عثمان، وكانت أول قصيدة نظمها
في مدح الشيخ عبد الله بن قاسم ١٩٠٧م:

نعم هذه أطلال سلمى فسلم وأرض بها سيل الشؤون وأسجم
وقف في مغانيها وعفر بترها صحيفة حر الوجه قبل التندم
وقد أثر ابن عثيمين بمن عاصروه من أمثال محمد حسن المرزوقي وابن درهم عبد الرحمن
بن صالح الخليلي، وأحمد بن يوسف الجابر، ولم يبلغوا مبلغه ومعظم شعرهم في الرثاء
والإخوانيات والمدح والحكم والأمثال والشعر الديني، وبالمجمل فقد كان شعرهم تقليدياً
ينهل من الشعر القديم والثقافة الدينية.

- د -

في عُمان

١٦٢٢ - ١٩١٦م

نشط الشعر العُماني في نهاية القرن التاسع عشر ١٨٧٥ م حيث برزت أشكال متعددة من
الإبداع الأدبي، وقد كتب عن هذه الفترة نور الدين السالمي في كتابه (تحفة الأعيان بسيرة أهل
عُمان) حيث قدم لنا نماذج من الشعر العُماني مع سيرة حياتهم والأحداث التاريخية التي رافقتهم
كقصائد عبد العزى بن معولة أحد أفراد الأسرة الثانية التي حكمت عُمان، كما ويشير إلى
شاعر النباهنة سليمان بن سليمان الظفر والفترات اللاحقة ١٨٦٨ - ١٨٧١ م.

وقد رصدت الحركة الشعرية بكل أبعادها من خلال كتب عدة تاريخية وأدبية صرف
ركزت على الشعر العُماني، وقد رصدت هذه الكتب قصائد الشعراء التي قيلت في المناسبات

الرسمية وفتوحات السلاطين وغيرها، ولقد لعب الجانب الديني دوراً مهماً في ترسيخ التجربة العُمانية الأدبية فكان النظم الفقهي عند نور الدين السالمي وخلفان بن جميل السيابي وسالم بن حمود السيابي.

وقد مرَّ الشعر العُماني في هذه الفترة بمراحل مثل الروح القومية بعد انتصارات العُمانيين على البرتغاليين وطردهم من عُمان كما فعل عبد الله بن خلفان الذي سجّل سيرة الإمام ناصر بن مرشد شعراً، وعند الشاعر الصارمي الذي سجّل فتوحات اليعاربة ١٦٢٢ - ١٧٤١ م وعهد دولة البوسعيد ١٧٤١ م حيث صار الشعر فناً مزدهراً يسير في حلقات متصلة من خلال مجالس الشعر وإغراق الأموال على الشعراء.

- ه -

في البحرين

برز في البحرين في العهد العثماني شاعران مهمان من الأسرة العيونية، هما سليمان النهباني وجعفر الخطي في القرن السادس عشر والسابع عشر، ثم تبعهم الشاعر السيد عبد الجليل الطباطبائي ١٧٧٦ - ١٨٥٣ م، والذي مهد في تنقلاته الكثيرة لمرحلة الإحياء حيث أعاد العثمانيون السيطرة عليها بقيادة والي مصر سنان باشا واحتل صنعاء ٩٨٧ - ١٥٧٠ م، وعاد الزيديون إلى الثورة بقيادة الإمام القاسم بن محمد ١٠٠٦ - ١٠٣٠ هـ / ١٥٩٧ - ١٦٢٠ م، وسيطروا على منطقة اعترف لهم العثمانيون بها، ثم عاد الزيديون إلى الثورة في عهد الإمام محمد المؤيد بن قاسم ١٠٣٠ - ١٠٥٧ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٤٦ م، فاستعادوا صنعاء وتعزز ١٠٣٨ - ١٦٢٨ م، فاضطر الأتراك إلى الخروج من اليمن ١٠٤٤ - ١٦٣٥ م فكان اليمن أول بلد عربي استقل عن العثمانيين وبقي الزيديون أقوىاء بقيادة الإمام إسماعيل ١٠٥٧ - ١٠٨٧ هـ / ١٦٤٦ - ١٦٧٦ م فضعف الإمام إسماعيل فزادت الصراعات الداخلية، وظهرت دويلات مستقلة منها الدولة العبدلية في لحج وعاد العثمانيون إلى السيطرة على اليمن ففشلوا ١٢٦٦ هـ - ١٨٤٩ م.

- ٤ -

في اليمن

قدم الجيش المملوكي في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية (بلاد اليمن) آيات الولاء للعثمانيين بعد فتح العثمانيين لمصر في عهد السلطان سليم الأول ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م، وثبت السلطان سليمان القانوني السلطة العثمانية فيها عام ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م، وعين عليها حاكماً عام ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ - ١٥٤١ م، وبقيت المرتفعات الجبلية في اليمن بيد الأئمة الزيديين، لكن القائد المملوكي أزدمر باشا المعين من العثمانيين استولى عليها بعد دعمه بإمدادات عسكرية قوية وسقطت صنعاء بيد العثمانيين ٩٣٥ هـ / ١٥٤٦ م، فثار الزيدون ٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ م، واستخلصوا صنعاء وعدن ومعظم البلاد.

ولم تكن حالة الشعر في هذه الفترة بأحسن حالاً مما هي عليه في أطراف الجزيرة العربية.

في العراق

عانى المجتمع العراقي في القرن التاسع عشر من انحطاط فكري وروحي بحيث تحول الشعر إلى لون من ألوان احتراف الصنعة، وتحولت القصيدة إلى مهارة عروضية وإمام بتصريف اللغة، ذلك أن الشعر العراقي لم يشهد أحداثاً كبيرة وبقي خاملاً لا يتحدث عن هموم الناس، بل عن مزاج الحكام والولاة لافتقار الشاعر العراقي إلى الثقافة والوعي بحقائق السياسة، وافتقار الشعر لقوة الحياة ودفء المكان والبناء الشعري المحكم وغياب ملامح التمييز في الشخصية الشعرية كما في شعر (محمد سعيد الحيوي - وعبد الغني جميل وعبد الغفار الأخرس وحيدر لطفي) وكانت قصائد الشعراء تجمع مظاهر الاستجداء والتبذل باستثناء الشاعر عبد الغني جميل الذي تجرأ على الأنظمة الحاكمة.

- ٦ -

في مصر والسودان وليبيا

- أ -

حالة الشعري في مصر

أهبت الحملة الفرنسية على مصر الشعور الوطني لدى الأهالي الذين رأوا فيها غزواً لبلادهم وعدواناً على حياتهم، فقاوموا المستعمر الفرنسي مقاومة حادة وعنيفة ومثيرة تمثلت في ثورة القاهرة الأولى، ثم ثورة القاهرة الثانية والثورات الأخرى في بقية المناطق المصرية بعد أن ترك المماليك الميدان هارين.

وقد جلبت الحملة معها مطبعة أسهمت في التواصل المصري وكان محمد علي حين تولى الحكم قد أدرك قيمة البعثات العلمية في نهضة البلاد، وقد كان للناس في هذه الفترة محاولة للنهوض بمناحي الحياة العامة، ومنها الأدب والشعر، فقد درس بعض الأدباء في باريس ونشأ في الأستانة، وكان منهم من نشأ في الأزهر الشريف.

ولقد ظل الشعراء في هذه الفترة منخرطين في أفق ضيق من النشاط الشعري المتمثل في تزجية وقت الفراغ من خلال صنعة شعرية قائمة على المحسنات البديعية وعلى رأسهم الشاعر إسماعيل الخشاب، ثم جاء بعده رفاعه رافع الطهطاوي

(١٨٠١ - ١٨٧٣) م على الرغم من كونه رجل إصلاح وتنوير فقد كان شاعراً وطغى شعره في مدح الأسرة الحاكمة وتمنته عليه القوم في المناسبات السعيدة ومدح رسول الله عليه الصلاة والسلام ومدح آل البيت من خلال تضمين القصائد، وقد كان رفاعه قد اطلع على الحياة الفرنسية بحكم ابتعائه لها ١٨٢٦ - ١٨٣١ م، واطّلع على حياة وآداب الغرب وتكون لديه حس وطني تجاه وطنه:

(هيا نتحالف يا إخوان

بأكيد العهد والإيمان

أن نبذل صدقاً للأوطان)

وقد وصف الطهطاوي (الوابور والمركب البخاري) وقد كان الشعر العربي في عهد الطهطاوي يعبر عن رؤية للواقع واستشراف المستقبل مع بساطة مفرطة من خلال تقرير لمعانٍ عادية أكثر من كونه انفعالاً بالأشياء مع ضعف في الأداء اللغوي وابتعاد عن المحسنات، وظهر بعد الطهطاوي مجموعة شعراء (عبد الله فكري وقد كان وزيراً، الشيخ علي الليثي، عبد الله النديم، محمد عثمان جلال) وكلهم لم يخرج عن منهج التقليد وإن اختلفت بيئاتهم الثقافية الخاصة لهم ولم يحدثوا في حياة الشعر حدثاً يضمن لشعرهم البقاء وشعرهم بقي بين المحسنات البديعية والبساطة والركاكة، ولم يبرز في هذه الحقبة سوى الشاعر إسماعيل صبري ابن القاهرة المرفه الذي سافر إلى فرنسا فاطلع على آداب الغرب، وقد كان شعره يجمع بين رقة المشاعر وترف الذوق صادقاً في تعبيره، ومن ذلك:

أبشك ما بي فإن ترحمي رحمت أخالوعة ذاب حبا
وأشكو النوى ما أمر النوى على هائم إن دعا الشوق لبي
والشاعر محمود سامي البارودي الذي لم يقدم جديداً في عالم الشعر رغم أنه قدم شعره في طريقة القدماء ليشاكل المستويات العليا للشعر القديم، وقد عاش البارودي بين مجموعة مؤثرات (الحرب - الاغتراب) واستعاد الشعر معه دوره الصحيح في حياة الفرد والجماعة، وقد أخلص لدور الشعر في حياته وأعاد له قوة الأداء ونبضة الشعور مع وثوب بالعبارة الشعرية، من خط الركاكة إلى خط المتانة، وبقي الشاعر تقليدياً.

أكثر البارودي من الحديث عن نفسه والاعتزاز بها في صباه وشيخوخته في غزله ونسيبه ووصفه للطبيعة ومجالس اللهو يشبه شعره أشعار العذريين أحياناً وأشعار عمرو بن كلثوم أحياناً أخرى وقد ينهي أبياته بالحكمة:

يرجو الفتى في الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلص
وهو في مجاراته للأقدمين رد للشعر قدرته على صنع النماذج المميزة، وقد يصفو شعره حين يتحدث عن الغربة وخاصة في منفاه في جزيرة سرنديب:

يانديمي في سرنديب كُفّا عن ملامي وخلياني لمابي
كيف لا أنذب الشباب وقد أصبحت كهلاً في محنة واغتراب
ثم كان شوقي الذي ابتعته الخديوي توفيق إلى فرنسا فاطّلع على ثقافتها ومسرحها ووقف
شعره على صنعة شعرية أتقنها حيث كان يفكّر في الشعر قاعداً وقائماً استفاد من تجربة
البارودي وتجاوزها وتعلق بالتماذج القديمة يطاؤها ويعارضها وبخبرة التراث ومواكبة العصر
تحدت معالم تجربة شوقي الشعرية التي تحدثت عن هموم العصر واصطنع الإطار المسرحي
للشعر لتحقيق أهدافه، ويغطي هموم الواقع المصري والعربي والإسلامي سياسياً واجتماعياً
واقتصادياً، وقد ألقى في مؤتمر المشرقية في جنيف ١٨٩٤ م همزته ذات النفس المحلي ٢٩٠
بيتاً، والتي مطلعها:

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء
وشملت هموم شوقي الأطفال فكتب لهم حكايات، وقد اهتم شوقي بالدائرة الإسلامية
فكتب قصائد تتعلق بالمشاعر الدينية كذكرى الرسول صلى الله عليه وسلم:

سلوا قلبي غداه سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا
وأخرى تتعلق بالمشاعر السياسية تجاه الخلافة الإسلامية ودعمها بوصفها رمزاً للإسلام
كما في قصيدته التي قالها حين ألقيت قذيفة على السلطان عبد الحميد ١٩٠٥ م ونجا منها:
هنيئاً أمير المؤمنين فإنما نجاتك للدين الحنيف نجاة
كذلك عندما سقط السلطان عبد الحميد قال قصيدة مطلعها:

سل يلدز ذات القصور هل جاءها نبأ البذور
شيخ الملووك وإن تضع ضع في الفؤاد وفي الضمير
وإذا تركنا شوقي في أيامه في العهد العثماني وانتقلنا إلى الشاعر حافظ إبراهيم الذي اقترن
اسمه بشوقي وعاش حياة اليتيم والفقر وواجه قسوة الحياة حيث كفله خاله وأدخله مدرسة
خيرية، ثم استقل يسعى لكسب لقمة العيش وقد وصف هذه الحياة قائلاً:

قضيت عهد حداثتي ما بين ذل واغتراب

وأنا ابن عشرين في طوقى مكافحة الصعاب
وقد تلقى ثقافته في مصر ولم يتسن له الاطلاع على أدب الغرب كغيره فاتجه إلى الصياغة
الشعرية والحرص على موسيقا الشعر، ومن قصائده في هذا العصر تحية للعام الهجري ١٣٢٧
هـ - ١٩٠٩ م:

أطل على الأكوان والخلق تنظر هلال رآه المسلمون فكبروا
وكذلك قصيدته في العام الهجري التالي ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م

لي فيك حين بدا سناك وأشرقاً أمل سألت الله أن يتحققاً
وتحدث كذلك عن سعد زغلول حيث رثاه بقصيدة:

قدر شاء أن يزلزل مصر فعلى فزلزل الألبابا
وتحدث عن حادثة دانشواي مخاطباً رموز الاحتلال:

ألم تخبر بني التايمز عنا وقد بعثوك مندوباً أميناً
وقد ألقى حافظ قصيدة في عام ١٩٠٨ م مبرزاً فيها عاطفته القومية تجاه أبناء الشام قائلاً:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب
وتحدث حافظ عن هموم الخلافة الإسلامية وخاصة خلع السلطان عبد الحميد وتولية محمد
الخامس سلطاناً:

لا رعى الله عهداً من جدود كيف أمسيت يا بن عبد الحميد
كنت أبكي الأسى منك فمالي بت أبكي عليك عبد الحميد
وقد كان شعر حافظ رسالة حياة تشرق النهضة الحديثة قبل وجودها.

أما الشاعر خليل مطران اللبناني الموطن فقد هجر بلده إلى مصر وبقي فيها حتى وفاته،
ونضجت تجربته الشعرية هناك وعاصر البارودي وشوقي وحافظ وصبري، مثل النموذج
الشعري القديم (رصانة اللغة، قوة العبارة، متانة السبك، قرب المأخذ للتشبيه والاستعارة)
وقد فتح باب الشعر المحتفي بالتجارب الذاتية والوجدانية.

- ب -

حالة الشعر في السودان

على مدار الستين عاماً التي عاشها الحكم التركي في السودان ابتداءً من ١٨٢١م لم يفلح الأتراك في إقناع السودانيين بقبولهم، ومع أن سياسة محمد علي في السودان قامت على توثيق الصلات الدينية من خلال تشجيع الصوفية حيث بعث مع أبي إسماعيل نخبة من علماء مصر (القاضي محمد الأسيوطي والسيد أحمد البقلي والسيد السلواوي الغربي) وطلب منهم إقناع الناس بأن إطاعة أمير المؤمنين واجب ديني.... رغم كل ذلك فقد ظل الحكم معزولاً عن الشعب السوداني، وأدى التمايز بين الحاكم والمحكوم مع فساد الحالة السياسية والبطش والإرهاب إلى تمكّن شديد للطرق الصوفية في نفوس العامة.

وفي مجال الأدب فقد كانت القصيدة الفصحى في صراع مع القصيدة العامية التي كانت تعبّر عن ضمير الناس بصدق وأمانة تحمل في طياتها محتوى سياسي طبقي تستخدم كل الأغراض الشعرية التقليدية، وقد فشلت الثقافة التركية في الالتحام بالسودانيين وإن نجحت في جمع العلماء والمتعلمين حولها، وقد كان هناك مستويات للشعر في هذه الفترة.

المستوى الأول: شعر المدائح النبوية الذي ذهب فيه الشعراء والعلماء والفقهاء مذهب الأقدمين (تشطير، تخميس، معارضة) من خلال نظرة صوفية تهتم بالإرشاد والوعظ عبر اجتماعية (عبر دينية) يبتهلون فيه المديح للنبي صلى الله عليه وسلم مع أن الابتهاج لا يجوز إلا لله، ويعبر عن عشقه لشخصية النبي، ثم يذكر الشاعر ذنوبه باكياً مستغفراً متودداً، وقد عبّر عن ذلك عثمان المريغي والشيخ إسماعيل الولي والشيخ أبو القاسم أحمد هاشم، وشعرهم شعر وجداني تغلب عليه المحسنات البديعية والتكرار، قال المريخي:

ياربهم وبأهم عجل بالنصر وبالفرج
اشتدهواي على المهج يارب فعجل بالفرج
وهذا الضرب من المديح لا يعدد - وإن كان تودداً شخصياً - وصلة بالعشق الصوفي بين الشاعر والرسول صلى الله عليه وسلم وتبدأ القصائد بالغزل بامرأة متخيلة، ثم الحديث عن الغيبات والمعجزات والشكوى من لواجع الحب بعاطفة صادقة:

بسمت عن در ثغر مستبين منع البدر ضياه أن يبين
وبدت للورد من خد نضير فراح الورد مصفر الجبين
المستوى الثاني: مستوى شعر العلماء الذين جمعتهم السلطة التركية حولها ممن اشتغلوا في
القضاء الشرعي والتدريس الديني وغيره، ولم يكن للشعر أثر كبير في حياة الناس على الرغم
من كون قصائدهم عربية فصيحة تقترب من القصيدة التقليدية مع ميل إلى أسلوب
المحسنات والتلاعب اللفظي، وقد مدح الشيخ الأمين محمد الضرير الخديوي توفيق قائلاً:
الود مآدبة والصدق خوان والصادقون لدى الآداب إخوان
وكذلك ظهر شعر سوداني يدافع عن المهدي الذي ظهر على سوء من الحالة الاقتصادية
والاجتماعية، كما في قول الشاعر حسين الزهراء:

يروح الخفا والحق فيه خفاء وتوالت الآيات والأنباء
ونجحت الثورة المهديّة وسقطت الخرطوم بيده ١٨٨١ م، وتولى الخليفة التعايشي الحكم
بعد المهدي، وقد نظم الشيخ أحمد الشامي عشية فتح الخرطوم قصيدة عبّر فيها عن فرحه
بانتصار المهديّة وهروب الخليفة بعد ثلاثة عشر عاماً.
بشرى لجيش بالفتوح لقد ظفر بالصبر في زمن فبشر من ظفرا
وقد بقي الشعر على حالة من حيث المضمون والشكل حتى سقوط السودان في يد
المستعمر البريطاني.

- ج -

حالة الشعر الليبي

١٥٥٣ - ١٩١٦ م

دخلت ليبيا تحت سيطرة الحكم العثماني منذ سنة ١٥٥٣ بعد أن قام الأتراك بطرد فرسان
القديس يوحنا القادمة من بيت المقدس إلى ليبيا، ومع وجود الاحتلال العثماني لليبيا فقد
تمتعت بشي من الاستقلال وظلّت تابعة للباب العالي حتى ١٩١١ م، وقد مدح أكثر الشعراء
الليبيين السلطان عبد الحميد لكونه خليفة المسلمين.

يقول الشاعر مصطفى بن زكريا ١٨٥٣ - ١٩١٨ م:

قمر تجلى في سماء كماله ولدى الخلافة تم بدر جلاله
سلطاننا عبد الحميد وناصر الدين الذي حمدت جميع خلاله
ورث الخلافة والمفاخر بعدما حرز المكارم والعلال بنباله
وكذلك أشاد الشاعر سليمان الباروني ١٨٧٠ - ١٩٤٠ م بفتح مدرسة في عهد السلطان
عبد الحميد:

ظهرت محاسن ذا الزمان فقابلت بالبشر والإقبال والخير المزيد
إذ عاد تشييد المدارس قربة في ظل سلطان الوري عبد الحميد
وقد كتب الشعراء الليبيون قصائدهم في هذه الفترة على الطريقة التقليدية الموروثة من
خلال معارضاتهم لقصائد شعراء العصر العباسي كرائية أبي فراس الحمداني:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر
وقصيدة أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
وكتبوا كذلك الثنائيات والثلاثيات والرباعيات مع قصائد الشعر الخليلي وكتبوا على
طريقة الموشحات، وقد مر الشعر الليبي في العهد العثماني بالحنة نفسها التي مر بها شعراء
الوطن العربي تحت السيطرة العثمانية حيث كان شعراً راكداً خالياً من الإبداع ومن انطلاق
الفكر وجنوح الوجدان، وبقيت الأغراض الشعرية نفسها التي عاشها الشعر العربي في هذه
الفترة من مدح للحكام والوصف المبتذل مع إسفاف وركاكة بالأساليب وتصنع في المحسنات
البديعية.

- ٧ -

في المغرب العربي في نهاية القرن التاسع عشر

- أ -

حالة الشعر في (مراكش) المغرب

يعتبر الشعر المغربي في هذه الفترة أداة للعلوم الفقهية واللغوية ووسيلة لحفظ الشواهد في سياق علوم البلاغة والنحو والأمثال السائرة، وهو ليس إلا طريقة للوصول إلى المناصب الإدارية والفقهية، ولقد عرف في هذه الفترة شعراء كثر ودواوين شعرية تناولت مختلف الأغراض التقليدية ولم يخرج مفهوم الشعر عن كونه جانباً ثقافياً متمماً لشخصية الكاتب والفقيه والقاضي، وقد كان شعر المناسبات هو السائد في هذه الفترة سواء أكانت مناسبات دينية (شعر المدح النبوي أو مدحاً للملوك والأمراء والأحرار؟) ولم تتعد أشعار الشعراء النظم والأقوال، وقد وصف الشاعر علي مصباح الشعر بكونه يمثل جزءاً بسيطاً من الحياة كما يمثل الملح بالطعام:

وما الشعر إلا مثل ملح قليل صلاح وإن يكثر أثار الدواهيا
وحسب الشعر مكانة أن يكون خادماً لأفضل العلوم وهو الفقه.

- ب -

في تونس

يعد الشعر في هذه المرحلة ممثلاً للتيار التقليدي على يد الشاعر محمد قبادو ١٨٧١ م، وقد أثر في شعر قبادو ثقافته التقليدية التي أخذها من شيوخ مشهود لهم في تونس وطرابلس وجريدة الرائد التونسي التي أنشئت للمراسيم العسكرية وخصصت حيزاً خاصاً للأدباء، وكتب قبادو في هذه الصحيفة بعد أن درس العربية في مدرسة باردو العسكرية ١٨٤٠ م،

وهكذا فقد سعى قبادو إلى أن يكون شاعراً إحيائياً يسعى إلى الفخامة والجزالة في تهنئة الملوك ومدحهم، وذلك في مرثيته ومراسلاته وشكواه واستعطافه ومدحه للأدباء ورجال الطرق الصوفية، وكذلك كانت معانيه المدحية تقليدية، وفي ذلك يقول:

إن المديح مناهج مـسلوكة لكن عـلاك طريـقة عـذراء
وقد أصبح شعر قبادو في أغراضه وأساليبه نموذجاً محتذى لمن بعده في نهاية القرن التاسع عشر وأسهم في تطور الشعر ظهور المدرسة الصادقية في تـكونت ١٨٧٥م والمدرسة الخلدونية ١٨٩٦م كمشروع ثقافي إضافة إلى وجود عدد من الصحف التي أسهمت في طباعة عدد من الكتب والمؤلفات ونشر شعر ما لا يقل عن خمسين شاعراً في مجلة الرائد التونسي وحمل الشعراء لواء التمدن والرقي والأخذ بأسباب النهوض، وقد اعتبر الأدباء أن كل من لم يقرض الشعر ليس بأديب إضافة إلى أن الشعر يفتح أمام الأدباء أبواب السلاطين والملوك، وبرز في هذه المرحلة مطولات من المدح، وقد كان شعراء هذه الفترة من الموالين للسلطة العثمانية العاملين في دواوين الدولة. وقد كان الشعر في أغراضه وأسلوبه وروحه يمثل أسلوب شعراء العصر العثماني من مدح وثناء وغزل ووصف ومساجلة وألغاز وتاريخ وتشطير وتخميس ضمن أسلوب بديعي مصطنع مهلهل النسج، وظهرت جماعة جديدة الحاضرة التي كانت أول صوت دعا إلى نبذ التقليد ومنهج القدماء في المدح والثناء والتهاني ورفض شعراؤها نشر القصائد الموالية للسلطة.

- ج -

في الجزائر

حال الشعر الموريتاني

عاش المجتمع الموريتاني في هذه الفترة انكفاء على نفسه وفتوراً في صلاته العربية الشمالية، ولم تخضع البلاد لسلطة مركزية بعد سقوط دولة المرابطين، وقد ظل الشعر في بلاد شنقيط شعراً بدوياً أصيلاً يعكس بيئته المحيطة به (الخيمة والجمال وملاحظة مساقط الغيث)، وقد ضمنت هذه الحالة للإنسان الموريتاني صناعة ذوقه والتصاقه الحميم بالقصيدة الجاهلية؛ لأن بيئته المعاصرة تشبه بيئة الجاهليين في الجزيرة العربية، وقد أسقط الشعراء الموريتانيون من قصائدهم الأغراض غير المنسجمة مع القصيدة الإسلامية كالغزل الفاحش ملتزمين بالأوزان والقوافي التقليدية والرتابة على الرغم من تنوع أغراضه، وقليل منهم من استمالته الموشحات والأوزان التي تخرج عن أعاريض الشعر.

يقول الشاعر سيدي محمد ولد الشيخ سيدي المتوفى ١٢٨٦ هـ:

حووا أدباً على حسب فداسوا أديم الفرقدين بأخمصين
ويقول الشاعر الشيخ محمد ولد حنبل:

لا تملي يا عين رعي النجوم وانهلالات دمك المسجوم
قد جنيت الهوى شهياً جناه فاستحالت ثماره كالسموم

وقد كان لنمط الحياة الموريتانية والروح الدينية لدى الموريتانيين وركود الحياة الاقتصادية والاجتماعية أثر كبير في بقاء القصيدة الموريتانية في تلك الفترة على شكلها الجاهلي وإن كان مضمونها دينياً.

الباب الثالث
حال الأدب
قبل سقوط العثمانيين

- أولاً -

حال الأدب قبل سقوط الدولة العثمانية

بلغ الشعر العربي أوجه في العصر العباسي، ثم أدركه الهرم في عصر الانحدار والدول المتتابعة، ثم تحول إلى تمويه وصنعة في نهاية العصر العثماني في الأغراض والمعاني والأساليب؛ لأن الحكومات التي كانت تتعور الشعوب العربية كانت أعجمية لا تقيم وزناً للغة العربية، وقد أولع الشعراء بالمحسنات البديعية المتكلفة، فانحطت المعاني لديهم، وكذلك الأخيلة وأصبح الشعر مؤرخاً للأحداث لم يتعد المدح والهجاء والغزل والرثاء والوصف والإخوانيات وتلاعب الشعراء بالشعر فنظموا قصائد ذات حروف مهجئة منقوطة أو خالية من النقط أو أبيات تقرأ من أولها وآخرها مع الاقتباس والتضمين والتشطير بحيث لا نجد معنى عميقاً ولا خياراً مبتكراً ولا لفظاً جميلاً، ولم تتغير هذه الحالة إلا بعد (١٨٥٠) م حيث أعاد الشعراء الشعر لنشاطه وإشراقه.

ولا يمكن لنا أن نتوقع من الأدب أن يتألق في زمن أصبح الحكام فيه غير أصحاب لغتنا، فقد تراجع الأدب في عصر الانحدار تراجعاً مريعاً، وتضاءل كثيراً في العهد العثماني، وإذا كان الشعر والأدب قد كسدت سوقه فإن فنون الأدب الأخرى قد أصابها الإهمال كالمقامات والبديعيات والرسائل.

واستمرت الحالة على ما هي عليه إلا من بعض الوجوه الأدبية التي بقيت محافظة على جزء من روح الشعر العربي، وذلك بعد يقظة العرب في نهاية الحكم العثماني وقبل قرن وستة عشر عاماً من سقوط الدولة العثمانية عام ١٩١٦ م، حيث عاش العرب نهضة جديدة لم تأت من الحكم العثماني، وإنما بفعل تأثر العرب بالنهضة الأوروبية حيث انتقل أدب العرب من الخمول والجمود بسبب الاستبداد العثماني إلى دور البعث والنهوض؛ فعصر النهضة في ظل الاستبداد العثماني يبدأ منذ: (١٢٢٠) هـ - ١٧٩٨ م، حين حدثت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر حين كان يسود الظلم والفساد والجهل والظلام بسبب ما فرضه المماليك من

استبداد واهتبال الفرصة من قبل الأوروبيون بالإغارة على البلاد العربية بدعوى نشر العلم والأدب، سبقت بعثات تبشيرية لنشر الثقافة الأجنبية، فاصطحب نابليون معه اختصاصيين في العلوم وأنشأ مدرستين وجريدتين ومسرحاً للعرض وللتمثيل ومجمعاً علمياً ومكتبة ومطبعة ومعامل كيميائية ومرصد فلكية.

وقد كانت هذه الحملة رغم قصرها (١٧٩٨ - ١٨٠١) م جرساً منبهاً أيقظ الحكام والبلاد، ثم جاء محمد علي فأنشأ المدارس وجلب علماء فرنسيين للتدريس في مصر وأسس مدرسة طبية، وأوفد الطهطاوي ومعه (٤٤) طالباً إلى فرنسا عادوا مترجمين ومعلمين نقلوا عن الفرنسية للعربية آلاف الكتب وكثر العلماء والأطباء والمهندسون، وأنشئت جريدة (الوقائع المصرية) وأسهم الشهابيون في سورية بالنهضة وخاصة الأمير بشير الشهابي، وأنشئت المدارس الطائفية في سورية بإرساليات أمريكية وفرنسية وبروتستانتية ويسوعية كاثوليكية، وكثرت المعاهد والمدارس والمطابع والصحف وألفت الكتب وتجمع نخبة من الكتاب والشعراء والمترجمين والصحفيين، وتعاون المصريون والسوريون لإنجاح النهضة، ولكنها ركزت على يد عباس وسعيد باشا ونشطت من جديد في عهد إسماعيل.

- ثانياً -

أحداث وشخصيات مثلت النهضة

أ - من الأحداث التي سبقت النهضة العربية وأسهمت فيها:

١ - الاتصال بالغرب: من خلال حملة نابليون والإرساليات المسيحية ونشر الثقافة الغربية، وهذا ما جلب الاستعمار لهذه البلاد.

٢ - البعثات والترجمات: التي أرسلت في عهد محمد علي وعهد إسماعيل كبعثة الطهطاوي ومرافقيه حيث أنشأ بدعوته مدرسة الألسن لتعليم اللغات الفرنسية والتركية والإيطالية والإنكليزية والعربية وترجمت الكثير من الكتب.

٣ - المدارس والمعاهد والتعليم: التي أنشئت في عهد محمد علي بمساعدة الأوروبيين وأسست المدرسة الحربية عام (١٨٢٥) م ومدرسة الصيدلة ومدرسة الطب حيث كان التعليم مجانياً، وكان لمدرسة دار العلوم الأثر الكبير في النهضة (١٨١٧ م) التي أسسها علي مبارك والذي أنشأ دار الكتب الوطنية وأنشئت جامعة فؤاد والتي تحولت إلى جامعة القاهرة.

وفي الشام كانت المدارس قبل النهضة دينية لدراسة القرآن والفقه على المذاهب الأربعة والحديث الشريف ومدرسة الطب والصيدلة أغلقت بعد دخول الأتراك، وأسست مدرسة للحقوق ومعهداً للطب تحولاً إلى كليتي الحقوق والطب، وكذلك كان في حلب مدارس كثيرة، وفي لبنان كانت مدرسة (عين ورقة) (١٧٨٩) م، ومدرسة (عين طورة) (١٨٣٤) م، ومدرسة (عبدة) (١٨٤٧) وأقدم المدارس الإسلامية كانت (كلية المقاصد الإسلامية) (١٨٨٠) م وافتتح بدمشق كليات لطب الأسنان والعلوم والآداب والتجارة والهندسة والزراعة، وفي بيروت الكلية الأمريكية (١٨٩٩ م) واليسوعية (١٨٧٤ م).

٤ - الطباعة والصحافة: التي تطورت بفضل مطبعة نابليون وأنشئت مطبعة بولاق (١٨٢٢ م) ومطبعة ماريو حنا (١٧٣٢) م، ثم دار الطباعة في القسطنطينية التي طبعت كتب التراث والمطبعة الأمريكية (١٨٣٤) م ومطبعة الآباء اليسوعيين (١٨٤٨) م، وقد أسهم طبع

الكثير من كتب التراث في فتح العقول وتيسير الثقافة، وكذلك أسهمت صحيفة الوقائع المصرية برئاسة الشدياق ومحمد عبده وعبد الكريم سلمان ومجلة (روضة المدارس) برئاسة الطهطاوي (ومجلة يعسوب) الطبية وصحيفة (وادي النيل) السياسية و (نزهة الأفكار) و (أبو نظارة) و (التنكيت والتبكيت) و (الأهرام والمقطم) برئاسة الأفغاني ومحمد عبده في النهضة العربية الجديدة.

هذا في مصر. وفي الشام ظهرت صحيفة (مرآة الأحوال) الحلبية (١٨٠٠) م و (حديقة الأخبار) البيروتية (١٨٠٨) م و (الجرائد) للشدياق.

٥ - الجمعيات والأندية العلمية والأدبية: وذلك لممارسة النشاط المدني خارج نطاق المدارس كالمجمع العلمي بدمشق بفضل محمد كرد علي ومجمع اللغة العربية في القاهرة و (المجمع العلمي) و (جمعية المعارض) (١٨٦٨) م و (الجمعية الجغرافية) (١٨٧٥) م. (الأندية والمنتديات) لإلقاء المحاضرات والخطب.

ب - ومن الشخصيات التي أسهمت في النهضة العربية:

(الجبرتي - حسن العطار - علي درويش - الطهطاوي - محمود صقر - الساعاتي - حسين المرصفي - عبد الله فكري - علي مبارك - عبد الله النديم - محمد عثمان جلال - قاسم أمين - مصطفى كامل - المنفلوطي - سعد زغلول - محمد المويلحي - البارودي - أحمد شوقي - حافظ إبراهيم - بطرس كرامة - الأمير بشير الشهابي - فرنسيس مراش - أديب إسحق - الكواكبي - طاهر الجزائري - جرجي زيدان - يعقوب صروف - محمد كرد علي - آل الألوسي - وشهاب الدين - محمد شكري - وعبد الغفار الأخرس والرصافي).

وقد قلّ الإنتاج العلمي والفكري في العهد العثماني؛ لأن قسماً من العلماء انتقل إلى القسطنطينية.

- ثالثاً -

من المؤلفين في العصر العثماني

- ١ - ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور.
- ٢ - طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة.
- ٣ - المقري: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب.
- ٤ - حاجي خليفة: كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون.
- ٥ - يوسف البديعي: الصبح المنبي عن حيشة المتنبي.
- ٦ - عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب.
- ٧ - شهاب الدين الخفاجي.
- ٨ - المحبّي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.
- ٩ - السيد المرتضى الزبيدي: تاج العروس.

- رابعاً -

شواهد على

ضعف الشعر وانحطاطه

في أغراضه وتعبيراته

١ - قول الشاعر بطرس كرامة في مدح الأمير بشير الشهابي (١٧٧٤) م:

وباقة زهر من مليك منحتها معطرة الأرواح مثل ثنائه
فأبيضها يحكي جمال خصاله وأصفرها يحكي نضار عطائه
وأزرقها عين تشاهد مقلته وأحمرها يحكي دماء عداته

٢ - وكذلك قول ناصيف اليازجي في الزهر:

مر النسيم على الرياض مسلماً سحرأ فرد هزارها مترنماً
أحنى إليه الزهر مفرق رأسه أدبأ ولو ملك الكلام تكلماً
يا حبذا ماء الغدير وشمسه تعطيه ديناراً فيقلب درهماً

٣ - ويقول علي أبو النصر في وصف قدح:

أهدي الحبيب لمن أحبه قدحاً محلى بالذهب
لو أفرغت فيه الطلأ لأطل ينظره الحبيب
ومدحت من أهدها لي ومنحته شكراً وجب

٤ - وكذلك شعر المدح لم يتحول عما كان عليه كما في قول علي الليثي يمدح الملك عبد

العزیز بمناسبة جلوسه على العرش:

مولى الملوك الذي من يمين دولته ظل العدالة في الأفاق ممدود
عبد العزیز الذي آثاره حمدت أبو الألى جدهم في المجد محمود

٥ - ويقول محمد الساعاتي أيضاً معرضاً ببعض نحاة عصره الذي يتخذون من العمائم وسيلة لإيهام الناس بعلمهم:

إذا ارتفعت بالنحو أعلام علمنا جعلنا جواب الشرط فوق العمائم
ليعلم من بالنصب يرفع نفسه بأن حروف الجر غير الجوازم
٦ - ومن الشعر الموفق إلى حد ما قول عبد الله فكري ينصح ولده الأمين:

إذا نام غر في دجا الليل فاسهر وقم للمعالي والعوالي وشمر
وخل أحاديث الأمانى فإنها علالة نفس العاجز المتحير
وسارع إلى ما رقت ما دمت قادرا عليه فإن لم تبصر النجح فاصبر
٧ - أما التأريخ الشعري فلم يتخل عنه أحد من الشعراء.

يقول الشاعر علي أبو النصر مهنتاً مصطفى باشا نعماني برتبة الباشوية / ١٢٩٥ هـ:

بشير الهنا لاحت بحين قدومه بدور بهان نور البشائر قد صفا
وبدر التهاني فاق بالأنس نوره فأهدى لنا أسنى السرور وأتحفا
١٢٩٥ هـ = ١٠٠ + ٨١ + ١٢١ + ٤٩٧ + ٤٩٦

٨ - وكان الشعراء يتبارون بالتأريخ بحيث جعل كل مصراع يساوي تأريخ الحادث

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القرم هان لنا الصعب
١٣٤ + ٤٠ + ٣٤٠ + ٦٦ + ٥٦٥ = ١٢٧٢ هـ / ٨١ + ٤٩٠ + ٣٧١ + ٥٦ + ٨١ +
١٢٧٢ = ١٩٣ هـ

٩ - ولم تكن نهضة الشعر بالثورة على القديم، بل كانت تتصل بالتراث؛ لأن الشعراء عادوا إلى أساليب تعبيره القديمة وأفكاره ومعانيه وأخيلته بمعارضة شعراء العصر العباسي والأموي والجاهلي، كما صنع البارودي بعكس بعض الشعراء الذين قلدوا شعراء عصر النهضة كعلي أبي النصر والساعاتي وعبد الله فكري، ومن هنا جاءت مكانة البارودي وشوقي الذين عارضوا القدماء بينما رفض حافظ إبراهيم تقليد القدماء وطالب بتجديده:

صعقت بين النهى وبين الخيال يا حكيم النفوس أين المعالي
آن يا شعر أن نذك قيوذا قيادتنا بها دعاء المحال
وكان تجديد شوقي في مسيرة حياته الشعرية التي لم يوفق بها كثيراً بسبب نقصان دراسته
المعمقة للمسرح وبقي شعرنا حركة سطحية في التجديد؛ لأنه لا يقوم على منهج مرسوم ولا
اتجاه معين؛ لأن التجديد الحقيقي يقوم على دعامين هما:

أ - دراسة المذاهب الفنية في الشعر العربي القديم دراسة دقيقة حتى يتفاعل الشعراء مع
آبائهم الأدياء تفاعلاً فنياً.

ب - استلهاهم الثقافة الغربية وفنها الشعري ومزج وجهتها مع التفكير الفني العربي.

١٠ - وكل يعلم ما كان للأدب العربية في القرون السابقة من الرونق والبهاء، لكن هذا
الخمول والحمد لله لم يدم زمناً طويلاً، فازدهرت شجرة الآداب ولما تنفس القرن التاسع عشر
كانت أحوال أوروبا في هرج ومرج والحروب قائمة على ساق بين دولها فلم تحط عن أوزارها
إلا بعد نفي بونابرت إلى هيلانة. وكان الشرق راصداً لحركات الدول ومما نقض حبل الآداب
في ذلك العهد قلة المدارس التي يتخرج فيها الأحداث فغاية ما كان يرى منها بعض الكتابيب
الابتدائية، وكان في الحواضر كدمشق وحلب والإسكندرية والقاهرة مدارس أعلى رتبة لكنّها
في الغالب كانت محصورة في العلوم الدينية، وما يُحتاج إلى إتقانها من المعارف اللسانية كمبادئ
الصرف والنحو.

١١ - أما الكتب فكانت عزيزة الوجود أكثرها من المخطوطات الغالية الثمن التي لا
يحصل عليها إلا القليلون. وكذلك الطباعة العربية كانت قليلة الانتشار فإن مطبوعات
أوروبا العربية لم يكن يعرفها إلا أفراد قليلون من أهل الشرق وكانت موضوعاً لمنفعة العلماء
أكثر منها لفائدة الدارسين.

١٢ - أما المطبوعات في الشرق فلم يكن يوجد منها إلا في دار السلطنة العلية، وكانت في
الغالب تركية وفي لبنان كانت مطبعة واحدة عربية، وكانت أكثر مطبوعاتها دينية لا مدرسية،
أما مصر فإنها حصلت على أول مطبعة عربية قبل القرن التاسع عشر بثلاث سنوات فقط. فإن

اللجنة العلمية التي كانت في صحبة نابليون كانت أتت بأدوات طبعية واستأنف المصريون فن الطباعة في أيام محمد علي سنة ١٨٢٢ م.

١٣ - ووجد قومٌ من الكتبة الذين خدموا في الدواوين المصريَّة والشاميَّة وكانوا يتولَّون قلم الإنشاء فيها عند عمَّال الدولة العلية فينالون في الكتابة بعض الشهرة منهم إبراهيم الصبَّاغ وأولاده، والذي صار ابنه حبيب كاتب القلم العربي عند أحمد باشا الجزائر فتسلَّم دائرته، ثم تغيَّر هذا عليه فحبسه ومات محبوساً.

واشتهر المعلم عبود البحري وأخواه جرمانوس وحنَّاً عند إبراهيم باشا أوزون القطر أغاسي في حلب وفي دمشق، ثم عند خلفيه عبد الله باشا العظم ويوسف آغا كنج.

وكان في مدينة صور أيضاً المعلم حنا عوراء من جملة الكتَّاب أخذ عن أبيه ميخائيل الذي كان فريداً في الكتابة يُحسن الإنشاء في العربية والتركية والفارسية، فلما توفي ميخائيل في سنِّ الأربعين نال ابنه حنَّاً رتبته في ديوان الجزائر، ثم عند سليمان باشا واستخدم معه ابنه إبراهيم، ومن خدموا أيضاً في دواوين الإنشاء في ذلك الوقت الأخوان إبراهيم وخليل النحاس ابنا عم حنَّاً عوراء كتب الأول في عكا والثاني في صور، واشتهر أيضاً بالكتابة في الوقت عينه غير هؤلاء كميخائيل سكروج وأخيه بطرس وإبراهيم أبي قالوش ويوسف مارون وإلياس بن إبراهيم أده الذي دون سيرته وشعره.

وكذلك فضُول الصابونجي وأخوه، وقد خدموا كلهم أحمد باشا الجزائر وذاقوا حلوه ومره.

وفي عهدهم اشتهر عند الأمير بشير الشهابي الشيخ ساوم الدحاح، ثمَّ ابنه الشيخ منصور وبعدهما بطرس كرامة. كما حظي عند الأمير يوسف الشيخ سعد الخوري وعُرف في ذلك الوقت جرجس باز وعبد الأحد أخوه، عندما أولاد الأمير يوسف وهم حسين وسعد الدين وسليم الذين كانوا يزاحمون الأمير بشير على الحكم.

وكان في مصر القبطيَّان جرجس الجوهري وغالي. فكان الأوَّل رئيس الكتبة في أيام إبراهيم بك وحظي لدى محمد باشا خسرو ثم نُكب. وقد ذكره الجبرتي في تاريخه عجائب الآثار

وجعل وفاته في شعبان سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م. وقام من بعده المعلم غالي، وكان زاحمه في حياته فصار في خدمة محمد علي باشا وابنه إبراهيم متولياً رئاسة الكتابة.

١٤ - ومما ساعد أهل مصر على صيانة الآداب العربية في ظهرانيهم مدرسة الأزهر الشريف، وكان متولياً تدبيرها في ذلك الوقت الشيخ عبد الله بن حجازي الشهير بالشرقاوي مولده في شرقية بلبيس سنة (١١٥٠هـ) (١٧٣٧م) درس في الأزهر وانتقلت إليه مشيخته سنة ١٢٠٨هـ وبقي عليها إلى سنة وفاته في ٢ شوال سنة ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م / وله عدة تصانيف دينية في التوحيد والعقائد والتصوف.

ومن تأليفه مختصر (مغني اللبيب في النحو) وله في التاريخ كتاب: (طبقات فقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين) وكتاب (تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين)، والشيخ محمد الخالدي المعروف بابن الجوهري فكان يقرأ الدروس في الأزهر وطار صيته ووفدت عليه الوفود من الحجاز والمغرب والهند والشام توفي في (١١ ذي القعدة ١٢١٥هـ) ١٨٠١م ومؤلفاته في الفقه وملتقاته، ومن أدباء الأزهرين الشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بالصاوي لزم شيوخ الأزهر وبرع في العلوم الدينية واللسانية، وكان لطيف الذات مليح الصفات محباً للآداب له النثر الطيب والشعر الحسن روى منه الجبرتي شيئاً في عجائب الآثار.

١٥ - وكان افتتاح القرن التاسع عشر في أيام السلطان الغازي سليم خان الثالث، وكان من أفضل ملوك دولته دمث الأخلاق مغرم بالآداب محباً لترقية رعاياه في معارج الفلاح. ثم صار الملك إلى ابن عمه السلطان مصطفى خان الرابع الذي لم يملك أكثر من سنة فضبط من بعده سنة ١٨٠٨م، زمام السلطنة أخوه محمود خان الثاني فطالت مدته وكان كالسلطان سليم هائماً بترقي سعيه ساعياً في أسباب نجاحه في فنون الآداب وللشاعر نقولا الترك قوله في جلوسه على العرش:

تَوَلَّى التَّخْتِ سُلْطَانَ الْبِرَايَا وَأَيَّدَهُ الْإِلَهُ بِمَرْتَقَاهُ
فَصَاحَ الْكُؤُونُ لِمَا أَرَّخُوهُ نَظَامُ الْمَلِكِ مُحَمَّدٍ بِرَهَاهُ

١٦ - ومن مساعي السلطانين سليم ومحمود المشكورة تعزيزهما لفن الطباعة في دار السعادة فطُبعت فيها عدة تأليف عربية فضلاً عن المصنّفات التركية. ويبلغ عدد المصنّفات

العربيّة التي نُشرت بالطبع في هذه الثلاثين سنة نيّفاً وأربعين كتاباً: (كالقاموس المحيط للفيروز أبادي، ومراح الأرواح لأحمد بن علي بن مسعود، مع مجموع تأليف أخرى نحوية وصرفيّة، وكافية ابن حاجب)، وكان الولاة يساعدون السلاطين في إدراك غايتهم الشريفة في جهات المملكة كسليمان باشا في عكّا ويوسف باشا كنج في دمشق وداود باشا في بغداد وغيرهم.

١٧ - وكان الوزير سليمان باشا القليل أول من أيقظ العلوم والمنتهم إليها في ديار العراق بعد سبائها العميق وأنشأ في بغداد عدّة مدارس. ثمّ جاء بعده بقليل داود باشا فأنهضها النهضة التي خلدت له الأثر المحمود والذكر الطيّب.

١٨ - وكذلك في مصر كان محمّد علي باشا راغباً في نشر المعارف فاستعاد الأدوات الطبيعيّة التي كان الفرنسيّ - مرسال اتخذها في أيام بونابرت وأنشأ مطبعة بولاق الشهيرة سنة ١٨٢٢م.

١٩ - ومن الأسباب التي ساعدت أيضاً في تلك المدة على اتساع المعارف الأدبية وارتقاء اللغة العربيّة ما أنشئ في الشرق من مدارس بهمة أصحاب الخير. ما عدا الآداب العربيّة من سنة ١٨٣٠ م إلى ١٨٥٠ م والمعاهد، وأول هذه المدارس التي فتحت لتثقيف الوطنيين بالآداب العصريّة مدرسة عين طوراً باشرت بالتعليم سنة ١٨٣٤ هـ ثمّ أنشئت بعد تسع سنوات ١٨٤٣ مدرسة للآباء اليسوعيين في كسروان أنشأها الأب مبارك بلانشة في غزير في الدار التي كان سيّدتها الأمير حسن شقيق الأمير بشير الشهابي لسكناه.

وهذه المدرسة بقيت عامرة إلى سنة ١٨٧٥ م وفيها نقلت إلى بيروت فقامت عوضاً عنها مدرسة القديس يوسف الكلية. أما المدارس الوطنيّة فإنها تعزّزت أيضاً في هذا الطور وزادت نموّاً لاسيما مدرسة عين ورقة، وكانت الدروس العربيّة في كل المدارس راقية فإنه قد تخرج فيها معظم الذين اشتهروا بالكتابة في ذلك العصر؛ أما المدارس خارج الشام فكانت في الغالب مقصورة على مبادئ القراءة والكتابة وأصول الحساب واللغة.

٢٠ - وأنشئت الجرائد في الشرق. كالوقائع المصريّة (التي صدرت سنة ١٨٢٨ م على عهد محمد علي باشا فظهرت سنين عديدة. وكان ظهورها ثلاث مرات في الأسبوع. ثمّ توافرت

الجرائد في الممالك جميعها حتى عدت منها ١١ جريدة في الأستانة العلية، و٥ في أزمير، و٤ في مصر. وفي تشرين الأول من السنة ١٨٥٤ م أنشأ رزق الله حسون الحلبي أول جريدة عربية في دار السعادة وسماها: (مرآة الأحوال) في لندن وخلفتها سنة ١٨٥٧ م جريدة السلطنة لمحررها إسكندر أفندي شلهوب.

أما سورية فكانت أول جرائدها (حديقة الأخبار) أنشأها فقيد الآداب المتوفى في ٢٦ ت ١ سنة ١٩٠٧ خليل الخوري ظهر أول أعدادها في غرة كانون الثاني من السنة ١٨٥٨ م، ولم تنزل في الوجود حتى وفاة منشئها فانطفأ سراج حياتها معه. وفي سنة إنشاء (حديقة الأخبار) أنشئت في أثر تلك النشرات عدة جرائد أخصها الرائد التونسي وهي جريدة (تونس) الرسمية سنة ١٨٦٠ م.

وفي تموز منها أنشأ الشيخ أحمد فارس الشدياق في الأستانة جريدة الجوائب فبقي فيها إلى السنة ١٨٨٤ م، وفي ذلك الوقت أيضاً ظهرت في باريس جريدة البرجيس كان محررها سليمان الجزائري التونسي. وعقبها في دمشق جريدة (سورية) الرسمية ظهرت ١٨٦٥ م. ثم وليها في مصر جريدة وادي النيل سنة ١٨٦٧ م.

٢١ - ورأت سنة ١٨٧٠ م إنشاء جرائد ومجلات أخرى كالزهرة وكانت جريدة إخبارية عني بنشرها الأديب يوسف الشلفون والنحلة للقس لويس صابونجي السرياني، وكانت أدبية وعلمية، والنجاح كانت إخبارية سياسية أنشأها القس المذكور مع يوسف الشلفون. ثم صارت ملكاً للمرحوم الصقلي خضرا بشراكة المطران يوسف الدبس. وفي تلك السنة ذاتها أنشأ المعلم بطرس البستاني وابنه سليم مجلة الجنان وجريدة الجنة فصار لهما رواج.

٢٢ - وكذلك أخذ العلماء المصريون يضمون قواهم لنشر الآداب فبهمتهم طبعت في بولاق تأليف معتبرة كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وأمثال الميداني وإحياء علوم الدين للغزالي والخطط للمقريزي.

٢٣ - ولم تخل سورية من جمعيات علمية نفعت الآداب بأفكارها الراقية ومساعدتها بترقية المعارف ومنشوراتها الحسنة. وكانت أولها جمعية أدبية سعى بعقدتها بعض مشاهير لبنان في بيروت سنة ١٨٤٧ م، فلم تطل مدتها. ثم الجمعية الشرقية التي أنشأت سنة ١٨٥٠ م في دير

الآباء اليسوعيين في بيروت. ثم خلفتها سنة ١٨٥٧ م الجمعية السورية وضمت إليها عدداً من الذوات كحسين أفندي بيهم والأمير محمد أمين والوجه إبراهيم فخري بك وبولس دباس والشيخ ناصيف اليازجي والأدباء بطرس البستاني وسليم رمضان وسليم شحادة وعبد الرحيم بدران وعالي سميث وموسى يوحنا فريج وحنين الخوري ويوسف الشلفون وحبیب الجلخ. ثم اتسعت دائرة أعمالها ونالت من الدولة العلية الرخصة بنشر أبحاثها فنشرت أولاً من حين إلى آخر دون وقت محدد، ثم طبعت قوانينها سنة ١٨٦٨ م وصدرت أعمالها في كل شهر بنظام فأرخها سليم أفندي رمضان:

قلت للدهر والنجاحُ تبدى قمرأً في بلادنا السورّيّة
أيّ يومٍ يتم ذاقال أرخ يوم فتح الجمعيّة العلميّة
(١٢٨٤هـ).

وطبعت هذه النشرة خمس سنوات ثم عدل عن طبعتها. وقد نفعت تلك الجمعية المعارف والآداب بهمة أعضائها، أما المدارس فإنها زادت في هذا الطور ترقياً لاسيما مدارس المرسلين الكاثوليك من ذكور وإناث ومدارس الأميركان لاسيما كليتهم التي علّموا فيها اللغات والعلوم وكانت الدروس تلقى فيها أولاً بالعربية وطبعوا عدة كتب مدرسية في ضروب العلوم كالطبيعات والرياضيات والهيئة والكيمياء والجغرافيا، ثم عدلوا عنها إلى اللغة الإنكليزية لتوافر أسبابها لديهم.

٢٤ - وكانت سنة ١٨٧٠ م مفتتح طور جديد في تاريخ نهضة الآداب العربية، وكان الأدباء في ذلك الوقت حاصلين على حريتهم لا يعيقهم في نشر المطبوعات عائق المراقبة. والجرائد تروي الأخبار كما تشاء لا يعترض عليها إلا إذا خرجت عن طورها وتعدت حدودها. وقد سبق لنا ذكر مجلة الجنان التي أنشأها المعلم بطرس البستاني وعهد بتحريرها إلى ابنه سليم سنة ١٨٧٠ م، وفيها باشر بجريدتين الواحدة أسبوعية وهي الجنة والثانية يومية دعاها الجنية، وهذه الأخيرة لم تطل مدتها.

أما الأوليان فاشتغلنا خمس عشرة سنة فأكسبتنا الأسرة البستانية شهرة بفضولهما. وقد أنشئت سنة ١٨٧٤ م جريدة ثمرات الفنون لصاحبها صاحب السعادة عبد القادر أفندي

القباني فخدمت مصالح الأمة الإسلامية بلا ملل إلى أيام الدستور. أما في بلاد الشرق خارجاً عن الشام فإن الآداب العربية فيها لم تخط خطوةً كبيرة.

وزاد التعليم واتسع نطاق العقول بالوسائل الجديدة التي قربت إليها رقيها وأنارت بصائرهما وشحذت أفكارها. وأخصها المدارس التي شاعت في نفس القرى فضلاً عن المدن. بينها الجامعات والمدارس العليا والوسطى والابتدائية كان يتقاطر إليها الأولاد من كل طبقات الأهالي حتى الفقراء والضعفاء فتحت لكثيرين منهم سبلاً جديدة للارتزاق بصفة كتبة وأطباء ومحامين ومهندسين وأصوليين جاروا الغربيين في مضمار الحضارة والتمدن. وخرج بعضهم من الجامعات الأوروبية فأتقنوا علومها كسائر الغربيين. وعرف الشرقيون ما في الاتحاد من القوة فألّفوا الجماعات الأدبية لتعزيز اللغة العربية ونشر آثارها. لكنها لم تثبت لعدم اتفاق أعضائها ولنفور الحكومة منها خوفاً على ميسس سياستها.

٢٥ - وقد ساعد على ترقّي الآداب العربية في الشرق انتشار الصحافة وتوفر المطابع والمطبوعات فإن العديد من المتخرجين في المدارس تحفّزوا للكتابة فأنشؤوا من الجرائد السيارة والمجلات عدداً كاد لا يفي به إحصاء سواء كان في الوطن أم في المهجر. وقد بيّن ذلك الفيكونت دي طرازي في كتابه الممتع عن الصحافة فعدد منها العشرات مع كونه لم ينشر بعدما استجد منها في القرن العشرين، وأبرزوا مع المجلات مئات من المطبوعات في كل علم وفن وأصبحت المكاتب تضيق عن جمعها.

وبين هذه المطبوعات عدد وافر من مخطوطات القدماء وقد أدى امتزاج الشرق بالغرب في أوائل القرن العشرين إلى التطور في أساليب الإنشاء نشرًا ونظمًا فأخذ البعض ينشئون على منوال الخياليين بما يدعونه النشر الشعري أو الشعر الثري فيرصفونه كمقطعات شعرية وينسقونه دون ارتباط كبير في المعاني، وقد اكتسب الشعر من طريقتهم أن خرج من دائرته السابقة الضيقة وأخذ أصحابه يتفننون في نظمه صورة ومعنى. فترى الدواوين الجديدة مشحونة بالقصائد في كل الوقائع المستحدثة والحوادث التاريخية والاختراعات الجديدة وتصوير كل عواطف الإنسان وكل مظاهر الكون. وربما تحرروا أيضاً فيها عن البحور الشعرية فوضعوا طرائق مختلفة لنظمهم وإبراز شواعرهم.

وقد أكثروا من وضع الروايات الخيالية واتسع نطاق الآداب العربية في مصر والشام وبعض العراق أخذت تنتشر بفضل المواصلات والمهاجرة إلى أنحاء السودان ومراكش وتونس وطرابلس الغرب، وبلغت أنحاء أمريكا الشمالية والجنوبية وبالأخص نيويورك والبرازيل. فكثرت المطبوعات وتوافرت الصحف السيارة.

٢٦ - وكان من سمة تلك المنشورات أنها تحررت من كل مراقبة فكان أصحابها يعرضون أفكارهم بكل حرية لا يخافون تقييداً في بسطها. وظهر بعض النوابع الذين تكاتفوا وتناصروا لرفع منار العلوم سبقوا عهده ببضعة أعوام أو وافقوا طلوع هلاله فكان لهم في نهضته فضل مشكور. وكاد يقضى على الآداب العربية في مدة تلك الفوضى فكاد يقضى عليها بمصادرة الجمعيات العربية وشنق بعض أصحابها وإقفال المدارس ومناصرة اللغة التركية وتعطيل معظم الجرائد الوطنية والمطابع الأجنبية والحررة في أنحاء دولة الأتراك في بيروت ولبنان وفلسطين وأثناء الشام والعراق.

أما في الخارج في مصر وأميركا فإن النهضة العربية بقيت على حالتها إلا أنها لم تترق لانقطاع معاملاتها مع بلاد الشرق التي منها تستمد كثيراً من مواد حياتها وبانشغالها بأمور الحرب وأطوارها.

٢٧ - ومع ما كان من نكبة الآداب العربية في هذه الحقبة لا بد من الاعتراف بهمة الحكومة المصرية في تحسين مدارسها الوطنية وسعيها إلى زيادة مصاريف برنامجها لتعميم المدارس ولإنشاء مدارس عليا وجامعة وطنية تلقى فيها الدروس العلمية الخاصة يتدب إليها أساتذة بارعون من الوطنيين والأجانب، وهذه الجامعة المصرية تقوم بثلاثة أقسام كبيرة وهي:

أ - كلية الآداب تشمل الآداب العربية وعلم مقارنة اللغات السامية وتاريخ الشرق القديم وتاريخ الأمم الإسلامية والفلسفة العربية.

ب - قسم العلوم الاجتماعية والاقتصادية.

ج - كلية السيدات. وكان شروع الجامعة بهذه العلوم سنة ١٩١٠ م.

٢٨ - وكانت الجامعتان البيروتيتان الأميركية والفرنسية زادتا ترقياً واتساعاً في هذه الحقبة الثانية ففي سنة ١٩٠٩ م وفي تلك الأثناء أنشئت للمسلمين في دمشق مدرسة طبية وفي بيروت مدرسة حقوقية كان التعليم فيها باللغة العربية.

ومما أنشئ من المجلات النفيسة قبل الحرب مجلة المقتبس سنة ١٣٢٤ هـ لصاحبها السيد محمد كرد علي في دمشق. ومجلة الآثار في زحلة سنة ١٩١١ م لمنشئها إسكندر المعلوف. والنبراس لصاحبها مصطفى أفندي الغلاييني سنة ١٣٢٧ والكوثر للأديب بشير رمضان وكتاهما في بيروت.

٢٩ - وتصرف الشعراء بأوزان الشعر وذلك أنهم لما رأوا انبساط الغربيين في معاني الشعر واتساعهم في أغراضه وتصرفهم بأوزانه شأؤوا أن يجاروهم في ذلك لئلا تنحصر قرائح الشعراء في دائرة القصائد الشائعة في الدواوين السابقة. وأول ما تصرفوا فيه بحر الرجز لقربه من الشتر بكثرة جواراته وبسهولة تغيير قوافيه. كما فعل نابغة العصر المرحوم سليمان البستاني في شعر الإلياذة القصصي تفنن في أراجيزه أي تفنن فراراً من سأم القارئ وملله عند مطالعة هذا الكتاب لو جرى على طريقة واحدة، وقد فعل ذلك دون تعسف وبحس ذوق.

ووجد الشعراء أيضاً في الموشحات متسعاً في نظمهم فاتخذوها مثلاً وتصرفوا في البحور الستة عشر وأوزانها وقسموها تقاسيم جديدة في الأبيات وفي الأدوار وجروا على قواف متناسقة إلى غير ذلك مما أرشدته إليهم قريحتهم، فربما أجادوا وربما أسأؤوا وإنما بينوا ما يستطيع استخراج من كنوز الفنون في الشعر العربي في معالجة الأغراض المعنوية العصرية كما ترى في الروايات التمثيلية والقُدود الغنائية.

٣٠ - وابتكروا الشعر المنشور دون مثال في لغتنا وما دعوه بالشر الشعري، وهذه الطريقة استعارها الكتبة المحدثون كأمين الريحاني وجبران خليل جبران ونشأ ما يسمى الشعر المنشور، وكانت مصر بعد تقدمها على الشام في النهضة الأدبية أصابها بعض الخمول رغم انتشار العلوم الحديثة في مدارسها ووفرة مطبوعاتها العربية وهمة خديويها محمد علي باشا ووزير معارفها الهمام علي باشا مبارك. ولعل سبب هذا الخمول إنما كان انصراف نظر أهلها إلى

العلوم الأجنبية فكأن شيوخها كانوا ساعين في نقل التأليف الأوروبية إلى العربية ليدرسوها في مدارسهم فشغلهم الأمر على الاهتمام بالآداب العربية.

٣١ - ثم حدثت الثورة العراقية سنة ١٨٨١ واحتلت الجيوش الإنكليزية القطر المصري فكان الاحتلال مضرًا للغة العربية وزاد عدد المدارس الوطنية في القاهرة والقطر المصري ونشطت عقيب الاحتلال الإنكليزي الحياة السياسية بما منحته المطبوعات من الحرية واتسعت دوائر الصحافة خصوصاً فبلغ عدد الجرائد والمجلات العربية في مصر ما يربو على المئة.

وكان للسوريين في هذه الحركة نصيب عظيم حتى كان أكثر مديري تلك المنشورات ومنشئها من أهل سورية وزاد عددهم في وادي النيل بعد ضغط الدولة العثمانية على المطبوعات حتى أناف على ثلثي الكتبة المصريين فتقدموا على غيرهم بما عرفوا بهم من النشاط والذكاء والتفنن في الكتابة. وكان أكبر مجلات القطر المصري في تلك الأوان (المنار - والمقتطف - والضياء - والهلال وأعظم جرائده - كالمقطم - والأهرام - والعمران) وكان يجررها السوريون.

٣٢ - وما اكتسبته مصر من الاحتلال الإنكليزي لنشر آدابها توافر المطابع وتحسن مادياتها. وقد استعاروا من مسابكها حروفهم. فنشرت إذ ذاك في وادي النيل معاجم جلييلة كلسان العرب وتاج العروس ونهاية ابن الأثير. وكتب لسانية خطيرة كسيبويه ومخصص ابن سيده. وكتب تاريخية أخصها ما نشرته المكتبة الخديوية كتاريخ ابن إياس وتاريخ ابن دقماق وتاريخ ابن جيعان وتاريخ الفيوم. ومثلها تاريخ السخاوي وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. وكتب أدبية كخزانة الأدب وبعض دواوين وتآليف أخرى.

٣٣ - أما الأقطار الخارجة عن الشام ومصر فكانت حركة آدابها خفيفة لم يشتهر في نهضتها إلا الأفراد. ففي هذه المدة أبرزت مطبعة الجوانب مطبوعات مفيدة حسنة الطبع كديوان البحري وأدب الدنيا والدين وشرح مقصورة ابن دريد ورسائل فلسفية وأدبية متعددة لابن سينا والثعالبي وللضبي وغيرهم. وفي ذلك العهد دخل فن الطباعة إلى مكة فأنشئت مطبعتها الأميرية وأخص ما طبع فيها الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد زيني دحلان وبعض الدواوين.

٣٤ - ونشرت في جهات العجم عدة منشورات بعضها تاريخية كمقاتل الطالبين لأبي فرج الأصبهاني وروضات الجنات في أحوال العلماء والسادات. وبعضها أدبية ولغوية وأغلبها دينية، وإن مطبوعات كثيرة ظهرت هناك ككشفاء ابن سينا وقواعد العقائد للطوسي وشرح الهداية الأثرية ومنها رسائل إخوان الصفا وديوان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وديوان الموسوي وديوان علي بن مقرب وديوان شرف الدين المقرئ وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب.

٣٥ - وقد كان الأدب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعيداً إلى حد ما، عن التيارات السياسية يعيش في نطاق ضيق. بعض قصائد ورسائل يكتبها الأدباء والشعراء في أغراض محدودة. وهي لون من أدب المحاكاة والتقليد إلا من تحرر أدبه من قيود مدرسة الانحطاط، وكتب هواجسه بالانطلاق، وهؤلاء جد قلائل.

فإذا خطونا إلى بداية إعلان الدستور رأينا الأدباء والشعراء يتحررون بعض التحرر من قيود السجع، ويعبرون عن فرحتهم بالدستور كعامل من عوامل انطلاقهم من كابوس الاستبداد الذي يعيشون في كهوفه المظلمة وسراديبه العفنة الخانقة، إلى جو تعبق نسائته بفجر الحرية الباسم. وشعرهم كما قلنا آمنيات ودعوات بطول عمر السلطان الذي منح الأمة هذه المنحة السنوية لتنهض وتسير في طريق العزة والكرامة.

وكان رجال هذه الفترة يختلفون في مناهجهم، كل واحد حسب نشأته وثقافته، وكانوا جميعاً ينشدون الإصلاح بشتى منازعه. والإصلاح في نظرهم أن نتبع سنن الأقدمين. وبعضهم كان يرى الإصلاح في مجارة أوروبا في سيرها ونظمها ومناهجها، أي كان رجال تلك الفترة - والأدباء منهم على الأخص - يتأرجحون بين الماضي والحاضر، وكان للماضي سحره في أدبهم وفي تفكيرهم.

٣٦ - ثم تأتي الحرب العالمية الكبرى. وإذا الشعراء - أريد أكثرهم - يعتمدون شعر المدح والملق، وإذا شعرهم أماديح في الطاغية التركي جمال باشا الذي صلب أحرار العرب، وهذه وصمة في تاريخ الأدب تدلنا على أن شعراء تلك الفترة لا يجيدون إلا شعر المديح الذي تأثروا به خلال حياتهم الأدبية.

فالمبالغة في وصف المدوح، فاقت بتعايرها أماديح المتنبي في سيف الدولة. وشتان بين المدوحين. فهذا يمدح سيداً عربياً، وأولئك يمدحون سفاهاً طورانياً يطيح بزعماء العرب. يقول شاعر من قصيدة يمدح بها جمال باشا:

لقد عز جيش كنت فيه رئيسه وعزت جموع كنت فيهن رائدا
فلم أر مثل اليوم أرفع هممة وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا
وأظهر أخلاقاً، وأصفى سريرة وأنجب مولوداً، وأكرم والدا
وقفتُ على عليك فيض قريحتي ونفسي وفكري والقوافي الشواردا
وكثير من الشعراء من نهج هذا النهج من الأماديح الكاذبة.

٣٧ - وقليلون هم الذين قالوا شعراً ظل حبيس صدورهم. أو عبثت به يد الضياع خشية أن ينم عن نوازعهم القومية فيقودهم إلى الموت، قد قبعوا في بيوتهم يراقبون المآسي بقلوب جريحة، وكان الأدب حتى نهاية الحرب العالمية الأولى يدور في آفاق ضيقة (أدب أماديح وأمنيات - أدب ثورية ومباسطات - أدب جناس ومطابقة) ليس عليه هذه المسحة المثالية والنزعة التحريرية وهو أبعد ما يكون عن أدب الحياة التي تحياها الأمة بثتى نوازعها. وبعد الحرب الكونية الأولى.

٣٩ - وكانت مهمة الأدب مقتصرة على صون اللغة وإنقاذها من الميوعة والعجمة، فإن الأدباء قد أدوا واجبهم في هذا المضمار ولم يستطيعوا أن يخطوا أي خطوة في تطوير الأدب.

٤٠ - وتطلع الشباب إلى مصر وأدبائها. وإلى المهجر وشعرائه. وإذا هم إزاء ألوان حية وأصداء متنافرة تجمع بين النزعات القديمة والنزعات الحديثة بين الأدب الوجداني والأدب الكلاسيكي.. وأثيرت مشكلة أطلق عليها مشكلة (الأدب القديم) و (الأدب الحديث) أثارها الأدباء المصريون بقوة وعنف - هذه المشكلة التي استمرت فترة طويلة زادت على العشرين سنة إلى أن انتهت عن هذه الناحية التي اعتبرها أنصار القديم - سواء في ميادين الأدب أو في ميادين الفكر - الأساس لصون دعائم التراث وهو عدم التحول عن الماضي... حسبهم من الأدب تقليد ما أنتجه الأدباء والشعراء في العصرين الأموي والعباسي، فهم مثلهم الأعلى في

الأدب، بينما أنصار الأدب الحديث قد اتجهوا اتجاهاً مختلفاً كل الاختلاف عن مذاهب خصوصهم، فقيمة الأدب عندهم في الإبداع لا في التقليد. وفي المعنى قبل المبنى. وفي أن يقترب أدبنا من الآداب الحية لا أن يظل في عزلته.

الباب الرابع
اتجاهات الأدب
في العصر العثماني

الباب الرابع

الفصل الأول

الاتجاه القومي في الأدب العربي

في آخر العهد العثماني

- أ -

القومية العربية والثورة

عملت الأحداث السياسية التي اجتاحت كيان الدولة العثمانية في بداية هذا القرن على شحن فكرة القومية بمحتوى ثوري أعطى القومية العربية مضموناً كفاحياً، وجعل صيحات الاحتجاج العاطفي تتجسد عملاً للخلاص من واقع الاستبداد والفساد، ونقل الفكرة القومية من المفاهيم الخيالية التي كانت تشوبها. وقد عملت على ذلك عدة وقائع:

تعاون أحرار العرب مع الاتحاديين في الانقلاب العثماني، وأناطوا بهم آمال التغيير والإصلاح، لكنهم سرعان ما خابت آمالهم، إذ تكشفت نزعات الاتحاديين العنصرية واضطهادهم للقومية العربية في مجالات الدولة، فنشطت الجمعيات العربية السرية، وعقدت المؤتمرات السياسية خارج البلاد، واتجه بها الرأي إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وإلى العمل على إقامة كيان عربي مستقل. قال عبد الغني العريسي في مؤتمر باريس يؤكد حق العرب بالاستقلال ويبين المسوغات التي تستوجبها: (فحق العرب أن يكون لهم على رأي علماء السياسة دون استثناء حق جماعة حق أمة.. فنحن عرب قبل كل صبغة سياسية حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة، بالرغم مما كان يتناوبا من أنواع الإدارات كالامتصاص السياسي أو التسخير الاستعماري أو الذوبان العنصري).

وجاء إعدام الشهداء عام ١٩١٦ م مؤكداً صحة مواقف الأحرار في سعيهم للانفصال عن الدولة العثمانية، ومبدأ لكل وهم في حقيقة الاتحاديين العنصرية، فانهارت كل مسوغات

النزعة العثمانية، وبدأت أنها مجرد وهم لا سند له في الحقيقة، قال الزهاوي يبرز وعيه لهذه الحقيقة في رثائه للشهداء الذين أعدمهم جمال السفاح:

لعمرك ليس الأمر ذنباً أصابه قصاص ولكن يعرب ومغول
بني يعرب لا تأمنوا الترك بعدها بني يعرب إن الذئاب تصول
ولم تمض أيام قليلة على مصرع الشهداء حتى فجر العرب ثورتهم وثأروا لشهداءهم.
وكانت هذه الثورة عربية في شكلها ومحتواها، إذ اشترك فيها كثير من العرب من مختلف الأقطار.

قال الشاعر فؤاد الخطيب يصور حماسة الشعب العربي للثورة والاشترك فيها:

لمن المضارب في ظلال الوادي ربا الرحاب تغص بالوراد!
الله أكبر، تلك أمة يعرب نفرت من الأغوار والأنجاد
طوت المراحل والأسنة شرع والبيض متلعة من الأغهاد
وانتصرت الثورة وخرج العرب من ربقة السيطرة العثمانية وساروا تغمرهم الفرحة.
ولكن وعيهم بمحتواها العاطفي كان ما يزال عاجزاً عن استيعاب أساليب السياسة الاستعمارية وأحابيل خداعها.

وكانت القصيدة أبرز الأنواع الأدبية التي أدت مهمة المعرفة الجمالية للواقع السياسي، أما القصة والمسرحية فقد كانتا في أولى مراحل نشأتهما، فلم يرقيا إلى مستوى الفن والأدب ليكون لهما شأن يذكر في الحياة الأدبية.

من أبرز الظواهر المميزة للعصر الحديث الوعي السياسي وبروز الفكرة القومية وتغلغلها في وجدان الإنسان العربي الذي استيقظ على عصر عاصف تجتاحه أعاصير التمرد على التخلف والاستعباد، وتحفزها التطلعات إلى النهضة والتقدم والتحرر. ولقد ارتبط هذا الوعي السياسي بواقع الشعب العربي وظروفه التاريخية فكرياً وسياسياً واجتماعياً، فتطور محتواه عبر مسيرة الكفاح واستوعب في كل طور محتوى المرحلة التاريخية التي برز فيها.

- ب -

عوامل تفتح الوعي السياسي

لقد كان الوعي السياسي في العصر الحديث ظاهرة تاريخية ومحصلة طبيعية لعوامل حضارية متعددة أدخلت الإنسان العربي في تجربة روحية، وعلمية نفسية معقدة، فأخذ يشد هذا الإنسان إلى الإحساس بالواقع المؤلم ليستوعبه بفكره ووجدانه، ثم يفصمه عنه فصماً روحياً لرفضه وتغييره. وهكذا صار المثقفون الواعون كلما قويت صلتهم بالواقع وتعمق فهمهم له من خلال المعاناة والتأمل اشتدت غربتهم النفسية عنه، وازداد تمردهم عليه. فما العوامل التي هيأت لهذا الوعي أن يتفتح ويشق الطريق للتغيرات السياسية والاجتماعية في حياة المجتمع العربي؟

١ - الاتصال بالثقافة الغربية:

أخذت البعثات في القرن الماضي تقصد أوروبا بالعلوم العصرية الجديدة، فنهلت من معينها واطلعت على أنماط حديثة من الحياة والعلاقات الإنسانية، فتأثرت بها، وعادت تحمل هذا التأثير إلى حياتنا لتبدأ حركة تثقيف وتنوير واعية وصار بعض المثقفين يتعلم اللغات الأجنبية ويطلع الثقافة الغربية فقام بين الوطن العربي وأوروبا جسر ثقافي عبرت عليه أفكار الثقافة والثورات، ولاسيما الثورة الفرنسية، فتسلحت عقول المثقفين برؤية جديدة وصارت تتطلع إلى آفاق سياسية واجتماعية أرحب وأفضل.

٢ - المطبعة ومنشوراتها:

كادت الثقافة فيما مضى تكون محصورة في البيئات الأرستقراطية والأسر الميسورة، بيد أن العصر الحديث أدخل إلى حياة المجتمع المطبعة. فكانت أداة ثورية كسرت احتكار الثقافة وهيأت السبيل لحركة التنوير، فحملت المطبعة نور المعرفة إلى جماهير واسعة من الشعب وأحدثت في وعيها انقلاباً وثورة، وكانت الصحف أهم معطيات المطبعة، فعملت بمقالاتها وتعليقاتها على تكوين رأي عام يهتم بالأحداث ويفكر فيها، ثم يشارك في مجراها.

وقد أسهمت المطابع في نشر التراث العربي القديم. فبعثت من جديد مشاعر الانتماء القومي وشدت المواطن العربي إلى حضارته وأمجاده السالفة وحفزته إلى اليقظة والتجدد.

٣ - الجمعيات الأدبية والسياسية:

وكان من نتائج توسع حركة التنوير ظهور الجمعيات الأدبية والسياسية. فأخذ أعضاؤها يتداولون الرأي في أحوال الواقع السياسي للشعب العربي الرازح تحت الحكم العثماني والذي كان في نهايته ظلماً للشعوب العربية. وكان من أبرز هذه الجمعيات: الجمعية العلمية السورية. والمنتدى الأدبي، والجمعية القحطانية، والجمعية العربية الفتاة، وكانت تصدر عن هذه الجمعيات نشرات سياسية وأدبية تندد بالفساد وتنبه الشعب، وتثير التذمر والتملل والثورة. إن هذه العوامل وما رافقها من أحداث سياسية متتابعة، حركت المجتمع العربي الراكد وجرت فئات واسعة من الشعب إلى تيار الأحداث لتبدأ دورها التاريخي فاعلة فيها ومنفعلة.

- ج -

سمات الوعي السياسي ونزعاته

تركز الوعي السياسي - نهاية الحكم العثماني - في المثقفين من الطبقات اليسورة. فقد استوعبوا بروحهم ثقافة الثورات البرجوازية الأوروبية والثقافة العربية التقليدية. فتكونت لديهم رؤية فكرية لإدراك الواقع السياسي والعمل فيه. وقد اتسم الوعي السياسي لدى هذه الفئات بعدة سمات:

١ - التناقض: وكان ذلك نتيجة لتناقض العوامل الفكرية والاجتماعية المكونة له. لقد كان هذا الوعي يتمزق بين الإصلاح والثورة. ويتجلى ذلك في حرصه على الارتباط بالدولة العثمانية، وتطلعه إلى النهضة والتحرر.

٢ - الانفعال والحاسة العاطفية: لقد كان الجانب العاطفي في هذا الوعي أوفر حظاً من الجانب الفكري الواضح، فكان تنبيه الوعي وإيقاظ الشعب يسلك سبيل التقريع بصيحات غاضبة على الحاضر بالماضي الحماسي.

٣ - المثالية: وكان الفكر المثالي يطفى في التماس الحلول على النظرة الموضوعية. ذلك لأن مرحلة الوعي الشامل الذي يمتد إلى الجماهير الكادحة ويبحث عن الحلول الجذرية، لم تكن قد بدأت بعد فعلية. والجماهير الواعية المنظمة هي القوة الأساسية لكل ثورة.

تجاذبات الفكرة القومية

وكانت الفكرة القومية في هذه المرحلة تشوبها مفاهيم سياسية من طبيعة الفترة التاريخية التي مر بها الوطن العربي. وتتمثل هذه المفاهيم في نزعات عدة برزت في أدب هذه الفترة منها:

١ - النزعة العثمانية: وتعني هذه النزعة التعبير عن الولاء للدولة العثمانية التي تجمع العرب والأتراك في إطار الرابطة الدينية. يقول الشاعر أحمد محرم:

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأي شعب يساوي الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده علما لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهب

٢ - النزعة الشرقية: وتعني هذه النزعة تعاطف أقطار الشرق الضعيف المتخلف في وجه الهجمات الاستعمارية، وأطماع الغرب المتنافس على اقتسامها. وكان الإحساس بالخطر وبالضعف أمام قوة الغرب يبرز في هذه النزعة فيجسده الأدباء تنبيهاً وتحذيراً، ودعوة عاطفية إلى الاتحاد والوقوف في وجه هذا الخطر الداهم.

وقد عبّر الشعراء عن هذه اليقظة الشرقية ووقف في وجه مطامع الغرب:

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق واحذر أن تناما
واحملي أيتها الشمس إلى كل من يسكن في الشرق السلاما
إن في أضلاعنا أفئدة تعشق العز وتأبى أن تضاما

- ه -

مواقف الأدباء من الواقع السياسي

أخذ الأدباء يهتمون بالواقع السياسي في حدود وعيهم ويصورونه بلهجة غاضبة تحرض على رفضه، مما يدل على أن الوعي السياسي أحدث في نفوس الأدباء شعوراً بالمسؤولية التاريخية الجديدة، حملوه إلى جانب شعرهم التقليدي في مدح الأمراء والسلاطين.

قال الزهاوي يبرز أدبه في كشف الحقيقة وتنبية الشعب:

صف الحقيقة للشبان يا قلمي فكل ظني أن الوقت قد حانا
قل ما ترى فيه إصلاحاً لفاسدهم فقد يصادف منك القول آذانا
وهكذا صار الأدباء يتخذون من الواقع السياسي مواقف تجسد وعيهم، ومن أبرز هذه المواقف:

١ - التنديد بالاستبداد العثماني:

اشتدت في عهد السلطان عبد الحميد عوامل الفساد والضعف وكان يعمل على وقف الانهيار والتمزق بالبطش، فعانى الأحرار من إرهابه النفسي والسجن فكمت الأفواه واحتبست الأمانى، وأخذ الأدباء والمفكرون يهربون من وجه الاستبداد ويلجؤون إلى مكان يقصيه عن أيدي البطش والانتقام، ويتيح لهم قدراً ضئيلاً من حرية يستطيعون فيه أن يكتبوا ويتنفسوا، كما فعل الكواكبي وعبد المحسن الكاظمي. عندما لجأ إلى مصر الشقيقة. وكان الزهاوي جريئاً في تهجمه على السلطان عبد الحميد. يفضح فساد حكمه إذ يقول:

وما هي إلدولة مستبدة تسوس بما يقضي هواها وتعمل
فيا ملكاً في ظلمه ظل مسرفاً فلا الأمن موفور ولا هو يعدل
وحين خُلع السلطان عبد الحميد وسقط عن عرشه أثار سقوطه بهجة عارمة لدى الشعب العربي، إذ كان يؤمل أن تحدث التغيير بعد زوال الطغيان.

قال فارس الخوري يعبر عن هذا الابتهاج ويذكر آثار السياسة المستبدة:

لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت أركانها وتولت أهله النقم
شادوا لك العزة القعساء من قدم فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا

٢ - فضائح جرائم الاستعمار:

كان الاحتلال الإنكليزي لمصر قد وقع عام ١٨٨٢ م، وأخذ ينكل بالشعب العربي في مصر لفرض وجوده بالإرهاب. ثم حدث الغزو الاستعماري الإيطالي لليبيا عام ١٩١١ م، وحمل معه الولايات والجرائم. وقد أثار أُنباء الجرائم الأدباء في شتى أقطار العروبة، وتجلت وحشية الاستعمار الإنكليزي بأقسى مظاهرها في حادثة دنشواي عام ١٩٠٦ م إذ أعدمت طائفة من الفلاحين على مرأى من أهلهم وذويهم في القرية لإرهابهم.

قال أحمد شوقي يندد بهذه الجريمة النكراء:

نيرون لو أدركت عهد (كرومر) لعرفت كيف تنفذ الأحكام؟
نوحى حمائم دنشواي وروعى شعباً بوادي النيل ليس ينام
السوط يعمل والمشائق أربع مترصدات والجنود قيام
وكان الغزو الاستعماري الإيطالي لليبيا وكانت أهواله وجرائمه فأمضت أنباؤها قلوب
الشعراء، فأيدوا الشعب العربي اللببي المنكوب واحتجوا على جرائم الاستعمار وغدره. قال
عبد المحسن الكاظمي يهيب بالشعب العربي أن ينجد شعب ليبيا:

أهل العزيمة ليس اليوم ونى وليس يحمى بعد اليوم معتزم
هذي طرابلس تدعوكم لنجدها فشاطروها الأسى أو تفرج الأزم
إخوانكم في العرى صرعى ونسوتهم مروعات ولا مأوى ولا حرم

٣ - تصوير واقع العرب الفاسد ورفضه:

لقد جعل الوعي السياسي الأدباء يعيشون واقع شعبهم العربي وما في حياته من قهر وذل وخنوع. فصوروا الجوانب السلبية في هذا الواقع وقرعوا الشعب بغضب وحرصوه على رفضها،

قال إبراهيم اليازجي:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحت القناسلب
الله أكبر ما هذا المنام؟ فقد شكاكم المهدي واشتاقتم الترب
ويكشف عبد الرحمن الكواكبي جوانب الفساد بجرأة ووعي غاضب فيقول:
(يا قوم - وقاكم الله الشر - أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، مبتلون بداء
التقليد والتبعية في كل فكر وعمل، وبداء الحرص على كل عتيق) .

٤ - التذكير بالماضي العربي المجيد:

وقد كان الأدباء يعمدون إلى استحضار التاريخ العربي وينشرون صوراً مشرقة منه لتشير
العزة القومية في نفس الشعب الغافل الخانع ويقرنون هذا الماضي المجيد بالحاضر القائم
ليوقظوا في الشعب روح التذمر، وينبهوا وعيه قال الرصافي:

لهفي على العرب أمست من جمودهم حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر
أين الجحاح ممن ينتمون إلى ذؤابة الشرف الوضاح من مضر
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر ولا كرامة لولا الشمس للقمر
يا أيها العرب هبوا من رقادكم فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر
كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم؟ والعود ليس له صوت بلا وتر

- 9 -

الشكل الفني للشعر نهاية العصر العثماني الكلاسيكية الجديدة

١ - في المضمون:

«مضمون جديد في شكل قديم»

كان من مظاهر النهضة القومية إحياء التراث العربي القديم الذي يبرز أصالة اللغة العربية وصفائها. وقد اتخذ الشعراء أساليب الشعر القديم نموذجات يحذون حذوها وينسجون على منوالها، حتى رأينا شعراء كالبارودي وشوقي والرصافي يقلدون الشعراء الأقدمين في أساليبهم ويعارضونهم في روائع قصائدهم.

قال السموءل قديماً، يفخر في قصيدته المشهورة:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداءٍ يرتديه جميل
فعارضه الرصافي بقصيدة مطلعها:

هو الليل يغريه الأسى فيطول ويرخي وما غير الهموم سدول

٢ - في الأسلوب:

لقد مثل أسلوب الشعراء في هذه المرحلة بعض جوانب النزعة الكلاسيكية الجديدة حين استخدم الشكل القديم للتعبير عن مضمون واقعي جديد.

٣ - وقد كان أبرز سمات الأسلوب في هذه المرحلة:

أ - الوضوح والأداء المباشر.

لكن الوضوح في هذا الأسلوب كان لفظياً وسطحياً قوامه:

- واقعية الصور وحسيتها.

- وضوح الألفاظ والتراكيب وترادفها.

- تكرار المعنى في صور متعددة.

- الاتكاء على التعبيرات اللغوية الموروثة والصور البيانية المتداولة.

ولم يكن وضوحاً فنياً يصدر عن رؤية شاملة ترى الأشياء والأحداث فتحللها وتختار أجزاءها الموحية، ثم تعيد تركيبها تركيباً فنياً.

٤ - في هيكل القصيدة:

كان الشعراء يحرصون على أن يبدووا قصائدهم بمقدمة تمهد لغرضهم بالوصف أو الحكم أو تصوير عام للحالة النفسية... ثم يصلون إلى غرضهم. وكانوا يسردون المعاني سرداً خطيباً يعتمدون فيه على: النداء والأمر والنهي والاستفهام يتجلى ذلك في قول خير الدين الزركلي يستنجد الشريف حسين لتحرير سورية من الاستبداد العثماني:

أور في جلق الكئيبة زندا وأقم للطعان في الشام سوقا
أمطر القوم بالصواعق حتى لا ترى أعين العداة بروقا
إن للباطل اضطراباً على الحق وعقباه أن يكون زهوقا

٥ - في الموسيقى الشعرية:

وقد التزم الشعراء الأوزان العروضية بشكلها القديم وبنائها التقليدي، فالببت يتألف من شطرين فيهما عدد ثابت من التفعيلات ويكون وحدة معنوية تمكنه من الاستقلال عن القصيدة، وكانت القوافي على الغالب واحدة في القصيدة. وقد لاحظنا ذلك في جميع الشواهد التي مرت بنا، وقد ينوعون القوافي تنوعاً له نسق ونظام دقيقان كما فعلوا في المسمطات والمخمسات التي نظموها.

الباب الرابع

الفصل الثاني

الاتجاه الديني في (الأدب) الشعر

اتسع نطاق الاتجاه الديني في الشعر بعد نزول القرآن الكريم وتنامى هذا الاتجاه في العصور المتلاحقة، ولكنه تألق في عصر الانحدار والعصور المتتابعة والعصر العثماني، وتعمق هذا الاتجاه في هذا العصر بسبب تشجيع الدولة العثمانية له حيث حركة التصوف وإباحة الحرية الدينية، وشجعت النشاط الديني وصار الزهد والتصوف والمدح النبوي ومدح آل البيت والتشوق للمقدسات من موضوعات الشعر الديني وأغراضه إضافة إلى الوعظ والجدل المذهبي والدعاء والمناجاة.

أ - شعر التصوف:

سجل الصوفيون مشاعرهم وعواطفهم ومواقفهم الدينية من خلال الشعر، واستخدم المتصوفة الأدب لنشر عقائدهم وقد جاء أدبهم معبراً عن:

١ - الرياضة الروحية.

٢ - مكابدة المواقف للوصول للكشف.

٣ - الوصول للحضرة الإلهية على حد قولهم.

٤ - الإطلال على عالم القداسة الغيبي.

ويعد الأدب الصوفي أدباً رمزياً يعنى بالبحث عن الحقيقة والوصول جوهر الأشياء وكشف ما وراء الطبيعة. والتجربة الصوفية تجربة باطنية تمثل التجربة الشعرية، ولذلك بدا الأدب الصوفي يتميز:

١ - الغموض الشفاف.

٢ - العمق.

٣ - الإيجاء.

٤ - ترك الانطباع.

٥ - عدم تقديم مقالات واضحة محددة.

٦ - مخاطبة الوجدان.

٧ - ترك مخاطبة العقل.

وللشعراء الصوفيين طرائق في التعبير عن مواقفهم ومعانيهم من خلال:

١ - التعبير المباشر الذي يعرض العقائد من غير رمز أو إشارة بصورة واضحة.

٢ - التعبير الرمزي الذي يأخذ شكل الحديث الغزلي المرمز.

وبين هذا وهذا لجأ بعض الشعراء المتصوفين إلى عرض آرائهم وإيضاحها خوفاً من التفسير الخاطيء لها وخوفاً من الطعن بعقيدته ومهاجمتهم، بينما لجأ آخرون إلى استعارة حديث (الخمرة والغزل) الذي يفيض بالوجد والتعلق بالمحبوب للتعبير عن تعلقهم بالذات الإلهية جاعلين من الخمرة الشعرية طريقاً للشعور بالنشوة وغياب الوعي والاستغراق الروحي. وقد بلغ شعر التصوف في هذا العصر من النضج درجة مرتقبة بحيث استطاع الشعراء إدراك:

١ - معاني التصوف.

٢ - رموز التصوف.

٣ - صور لتصوف.

٤ - إشارات التصوف.

وهكذا بنى بعض شعراء الصوفية نصوصاً شعرية مثقلة بالرموز والغموض والمعاني الدقيقة والصور المعبرة.

ب - شعر المدح النبوي:

الذي تحول إلى فن شعري متميز له معانيه ومقوماته وأصوله وآدابه، وقد تنوعت معاني المدح النبوي في هذا العصر واختلطت فيها قيم الدين بالقيم التقليدية مع ذكر طرف من

السيرة النبوية العطرة ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم مع طلب الشفاعة منه والصلاة عليه والإشادة بصحبة الكرام، ولقد أكثر شعراء هذا العصر من النبويات التي تنوعت مكوناتها ومعانيها وصورها وطرائق أدائها حتى أصبح المدح النبوي متنفساً للنزعة العربية باعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم عربياً.

ج - شعر مدح آل البيت وراثتهم:

الذي أصبح غرضاً من أغراض هذا الشعر حيث ظل قسماً من شعراء هذا العصر يمدح علياً وأبناءه رضي الله عنهم جميعاً حيث يشيدون بالأحياء منهم، ويكون من مات منهم على أنهم أضحوا رموزاً دينية عربية افتقد فيهم العرب تأثيرهم في الحياة.

د - شعر التشوق للمقدسات:

حيث أصبح هذا الغرض فناً شعرياً يتنافس فيه الشعراء اجادةً وعرضاً لصدق المشاعر حيث مزجوا بين المربع الحجازية ومواطنهم وبدت أبيات التشوق للمقدسات في مطالع المدائح النبوية وقصائد التصوف وقصائد الحنين وقصائد المدائح التقليدية قد نجد في أبيات الشوق للمقدسات ذكراً لنساء ليس هن ملامح من عصر الشعراء جاء ذكرهن لبث الشاعر شوقه ووجدته تعبيراً عن غزل رمزي كان عند المتصوفين موجهاً للذات الإلهية، وعند غيرهم تعبيراً عن عواطف نبيلة ومشاعر روحية.

هـ - الدعاء والمناجاة:

الدعاء تعبير للعبد عن مشاعر شوق ومحبة وحاجة لله تعالى في لحظة صفاء وانتظامه في الشعر يقربه من الناس ويضمن انتشاره، وهو عبارة خالصة يلجأ إليها الناس في العسر واليسر تمثل الحديث الداخلي مع الخالق يتسم بالصدق والحرارة والإخلاص. وقد أصبح هذا الغرض فناً أدبياً خالصاً على مر العصور وتؤكد كثيراً في العصر العثماني تنافس الشعراء في إتقانه وإبداع أساليبه حتى غدت نصوص الأدعية من أرق فنون الأدب، وقد نظم الشعراء القصائد الطوال في ذلك خالصة في الدعاء لا يخالطها موضوع آخر.

و - الزهد:

اهتم شعراء العصر العثماني بشعر الزهد بسبب اتساع الشقة بين الغنى والفقر في عصرهم وعدم قدرة الكثير من الناس على تحقيق حاجاتهم الدنيوية مما جعلهم يتأسون بسيرة بعض الصحابة في التقليل من شأن الدنيا والإقبال على الآخرة ضمن سلوك إسلامي صحيح، وقد حملت دعوة الشعراء إلى الزهد في هذا العصر خطر الانزلاق إلى (التواكل) الذي يسيطر على نفوس الكثير من أهل هذا العصر فقبلوا الظلم ولم يتصدوا له، بل ركنوا إليه وتعايشوا معه.

ز - شعر المواعظ:

ازدادت ظواهر الخروج عن الدين ومخالفته في عصر كثر فيه الخطأ والغلط، فاضطر الشعراء إلى سلوك سبل النصح والوعظ شعراً معتبرين أن معاناة الناس في ظلمهم وفقرهم وبلائهم هي عقوبات عاجلة لمجتمع كثرت فيه الفواحش وجهر فيه بمخالفة الشريعة. وقد كثر شعر الوعظ ولاقى قبولاً كثيراً عند الناس وعند خطباء المساجد وأئمتهم في نصح الناس، وقد نظمت في الوعظ والنصائح الكثير من القصائد الخالصة تحت العامة من الناس على التزام أوامر الدين ونواهيه وضرورة التحلي بالأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن وإصلاح ذات البين والتنبية على العفة.

ح - شعر الجدل الديني:

وهو الحجج والبراهين التي ساقها أصحاب كل مذهب لترويج مذهبهم وإبطال ما سواه مما حدا بالناس أن يلتزموا بمذاهبهم في جو أقرت فيه الدولة العثمانية أصحاب كل عقيدة على عقيدتهم ولو بعدت عن روح الإسلام وجوهره، ولم يقف الحكام العثمانيون في وجه الانحراف العقيدي كما أنهم لم يحاربوا ظهور فرق دينية جديدة، وقد ظهر هذا الخلاف المذهبي على السنة الشعراء فخاض فيه شعراء ونهى عنه شعراء آخرون وبينوا خطره على الرغم من أن هذا الخلاف المذهبي العقائدي قد شق صف الناس وأضعفهم وألهامهم عن التصدي لأعدائهم.

الباب الخامس

أشكال الشعر

الباب الخامس

الفصل الأول

الأشكال الشعرية في العصر العثماني

تعددت طرائق الأداء الشعري في العصر العثماني وتنوعت في مختلف أشكال التعبير والنظم، وكانت على الشكل التالي:

أ - الشكل التقليدي:

الذي استمر في نهجه القديم مع بعض ملامح التطوير فيه من خلال:

- ١ - إسقاط بعض خطواته التقليدية.
- ٢ - التقديم والتأخير في المقدمة الشعرية.
- ٣ - استعاضوا عن المقدمة بأشياء توافق عصرهم.
- ٤ - متابعة خطوات القصيدة التقليدية متابعة فنية فقدت مسوغاتها عندهم.
- ٥ - ترك الحديث عن الأطلال للحديث عن الرياض الزاهرة.
- ٦ - المحافظة على نسيب المقدمة مع إطالته.
- ٧ - ربط أجزاء القصائد وتحقيق الوحدة لها.
- ٨ - كتابة القصة الشعرية.

وقد أكثر الشعراء في قصائدهم من المقطوعات الشعرية التي انتشرت بشكل كبير لعدم احتياج هذه المقطوعة:

- ١ - إلى ثقافة كبيرة.
- ٢ - إلى مخزون انفعالي كبير.
- ٣ - إلى نفس شعري طويل.

٤ - إلى موهبة شعرية معمقة.

وقد أكثر العلماء من هذه المقطوعات لعدم وجود موهبة شعرية خالصة، ونظمت الكثير من الأغراض الشعرية في هذه المقطوعات:

١ - وفق الموقف الانفعالي للمشاعر.

٢ - الارتباط بالبديهة والارتجال.

٣ - تسجيل اللحظة العابرة.

٣ - رصد الحدث المفاجئ.

٤ - قدرتها على أن تكون حاملاً للصنعة البديعية.

ب - الأراجيز الشعرية:

تعامل شعراء العصر العثماني مع الأراجيز تعاملهم مع القصيد فتناولوا فيه أغراض الشعر كلها القديمة والمستجدة

١ - وقد جعله بعضهم قصائد طويلة.

٢ - وجعله البعض الآخر مقطوعات صغيرة.

٣ - وعدل فيه بعضهم إلى المزدوجات التي تنظم بها متون العلوم.

ج - التشطير:

وهو إجراء تغييرات على قصائد القدماء يأخذ فيه الشاعر شطراً من كل بيت يقوم بإتمامه بالشر الثاني مستفيداً من الوزن والقافية.

والتشطير يفيد المبتدئين من حيث إنه:

١ - يمنحهم فرصة للتدريب على معالجة المعاني شعرياً.

٢ - يربطهم بأجمل القصائد القديمة.

ويحتاج التشطير إلى ثقافة بارعة وقدرة وبراعة ليستطيع الشاعر الملائمة بين الشطر القديم والجديد الذي من صنفه.

د - الرباعيات:

نوع من أنواع النظم نَوَّعَ به الشعراء إيقاع القصيدة بتغيير قوافيها حيث ينفرد كل بيتين بقافية واحدة ضمن الرباعية الواحدة، وتعتبر الرباعيات من أكثر الألوان الشعرية ملائمة للإنشاد وشعر المناسبات الذي اتخذهُ شعراء العصر العثماني في مجالس طربهم العادية وفي مجالس ذكر الصوفية.

هـ - الروبيت:

وهو من الرباعيات التي نظمت على وزن خاص (مأخوذ عن الفارسية) ويتألف من أربعة أشطر تتفق في القافية، وقد تختلف فيه قافية الشطر الثالث وباعتبار أنه ملائم للغناء كثر النظم فيه وتعددت أغراضه.

و - التخميس:

ويقوم على زيادة ثلاث أشطر على شطري بيت من قصيدة سابقة لشاعر آخر استخدمه شعراء هذا العصر في قصائد المدائح النبوية والقصائد الصوفية، وقد كان هذا الشكل معروفاً قبل العصر العثماني، وله طريقتان:

١ - الاعتماد على قصيدة قديمة بتضمينها.

٢ - عدم الاعتماد على قصيدة قديمة.

ز - التسبيع والتعشير:

وهو يعتمد طريقة التخميس مع زيادة في العدد إلى سبع أو عشر، وقد دخل فيه الشعر باب التكلف الشديد حيث يصبح ما بنيت عليه القصيدة تضميناً واضحاً لا غير.

ح - الموشح:

وهو الفن الأندلسي الذي أكثر من استخدامه في العصر العثماني فاهتم به الشعراء اهتماماً كبيراً، وذهبوا به كل مذهب وطوّعوه للغناء والألحان وضمّنوه الأغراض الشعرية الحديثة والمعروفة، وحملوه ثقل الصنعة البديعية وجددوا في شكله وصياغته، وما أضافه شعراء هذا

العصر للموشح من الإطالة فيه وجعله متنناً للمعلومات والعلوم ووضعت الموشحات على ألحان سابقة ولم تخل موشحات هذا العصر من الضعف والركاكة والتكلف والصنعة.

ط - المواليا:

وهو منظوم (ملحون) زاحم النظم الفصيح وساواه عند الشعراء، وقد يأتي (معرباً) ويتألف من بيتين على البحر البسيط تتفق أشطرها في القافية وتميزت عند شعراء هذا العصر بـ:

١ - تضمينها أغراض الشعر كلها.

٢ - استخدام الصنعة البديعية فيها.

٣ - التخفيف من عاميته لضمان انتشاره.

ي - الزجل:

وهو موشح ملحون ملائم للتلحين والغناء لم يكثر نظمه عند شعراء العصر العثماني؛ لأنهم انصرفوا إلى فن القدود.

ك - القدود:

وهو نوع من الموشحات يختلف بعدد أغصانه وأفعاله وترتيبها عن الموشح وفيه يعمد الشاعر إلى أغنية معروفة فيغير كلماتها وينقلها من موضوع إلى آخر فتكون المنظومة الجديدة على (قد) المنظومة القديمة في أوزانها ولحنها وأقسامها فهي (مقدودة) من منظومة سابقة ومأخوذ من الألحان السابقة حيث يذكر الشاعر الوزن الموسيقي (القدة) ليدل قارئه على طريقة أدائها، وهناك يضطر الشاعر إلى حذف أو زيادة بعض الكلمات كما يقتضي اللحن لا كما يقتضي المعنى؛ لأن فن القدود مرتبط بالموسيقا أكثر من الشعر.

الباب الخامس

الفصل الثاني

نقد الصياغة الشعرية

اختلفت الصياغات الشعرية كما قلنا عند شعراء هذا العصر بين قديم وجديد ومستحدث ومبتكر، فكان هؤلاء الشعراء:

- ١ - في التقليد والابتكار.
- ٢ - في الإجارة والتعثر.
- ٣ - في الإغراق في الصنعة أو تركها.
- ٤ - في الفخامة والركاكة.
- ٥ - في الأسلوب الذاتي والغيري.
- ٦ - في الافتتان بالصنعة وفي كرهها.
- ٧ - في التباين الأسلوبي في قصيدتين للشاعر نفسه (جزل في قصيدة، رقيق في ثانية، متنصع في الثالثة)، وقد يتميّز إبداع الشعراء في هذا العصر من خلال:

- ١ - صياغة شعرية أصيلة.
- ٢ - إتقان في التجربة الشعرية.
- ٣ - عمق في الثقافة الحياتية.
- ٤ - عدم الضعف في الأداة اللغوية.
- ٥ - عدم التأفف من الشعر القديم.
- ٦ - نظم الشعر بأسلوب ذاتي مباشر.
- ٧ - التعبير عن مرادهم من شعرهم بحرية.

- ٨ - الاسترسال من غير عوائق التقليد والصنعة.
- ٩ - التميز بالركة والانسجام.
- ١٠ - إثارة الصياغة الجميلة (سهولة التدفق).
- كما أن بعض الشعراء في هذا العصر تميز بأنه:
 - ١ - لم يتوفق إلى صياغة سليمة.
 - ٢ - أراد الصنعة فجاء على الأسلوب.
 - ٣ - ظهرت الركافة في الصياغة.
 - ٤ - تصنع البعض الجزالة فلم ينجح.وقد تميزت الصياغة البديعية للشعر ب:
 - ١ - الخروج عن طبيعة الشعر.
 - ٢ - الخروج عن غايته.
 - ٣ - الوصول بالشعراء إلى التكلف الشديد.
 - ٤ - إفساد الشعر بتهجينه.
 - ٥ - عرض مهارات الشعراء باللعب بالكلمات.
 - ٦ - إظهار التفوق بالصنعة البديعية.
 - ٧ - عدم القدرة على إيصال المعنى والمشاعر للمتلقي.
 - ٨ - جفاف أسلوب الشعراء.
 - ٩ - فقدان التلقائية في الأداء.
 - ١ - فقدان العفوية في التعبير.
 - ١١ - الذهاب بجمال وبهاء الشعر.

الباب الخامس

الفصل الثالث

الصنعة الفنية في الشعر العثماني

لم تقتصر الصنعة الفنية في العصر العثماني والتي وصلت إليه كاملة مكتملة على معطى من معطيات الشعر ومكوناته، بل شملت المعاني والأخيلة والأسلوب والشكل الشعري، وكذلك الوزن الشعري:

الصنعة في المعاني:

حيث اهتم شعراء هذا العصر بهذا المعطى الشعري فحرصوا على:

- ١ - توليد المعاني.
- ٢ - توكيدها بالاقتراس والتضمين.
- ٣ - تكثيرها بالتورية والتوجيه.
- ٤ - تلوينها بالتعليل البلاغي.
- ٥ - اختراع المعاني البديعة.

الصنعة بالخيال:

وقد تميزت في هذا العصر بـ:

- ١ - كثرة الصورة الخيالية.
- ٢ - الميل إلى الوصف والتصوير.
- ٣ - كثرة التشبيهات الباردة غير المستساغة.
- ٤ - ربط مظاهر الطبيعة بالإنسان.
- ٥ - إضفاء الوعي والعقل والإحساس الإنساني على ما وصفوه.

الصنعة اللفظية:

وقد تميزت بـ:

- ١ - منحت النص طاقة إيقاعية إضافية.
 - ٢ - أشارت إلى نكتة معنوية.
 - ٣ - أعادت استرسال التعبير.
 - ٤ - أساءت إلى المعنى.
 - ٥ - أساءت إلى الأسلوب.
 - ٦ - تحولت من وسيلة إلى غاية.
 - ٧ - غيبت روعة الموهبة.
- وقد أكثر الشعراء من (الطباق - مراعاة النظير - التورية - تكرار الألفاظ - الجناس - التقطيع - السجع) وغيرها من المحسنات اللفظية التي أصبحت عبئاً على النص بدل أن تكون عوناً للمعنى.

الصنعة في الشكل الشعري:

وقد تميزت بـ:

- ١ - الصنعة أبعدت الشاعر عن الشعر.
 - ٢ - أصبحت غايتها التسلية.
 - ٣ - أصبح الشعر ألعاباً لفظية.
- ويتضح ذلك من خلال:
- ١ - بداية كل بيت من القصيدة بحرف هجائي.
 - ٢ - قراءة البيت من اليمين إلى اليسار وبالعكس.
 - ٣ - كتابة القصائد على أشكال هندسية.
- وغير ذلك مما لا علاقة له بالشعر.

الباب السادس
رموز الشعر
في العصر العثماني

- ١ -

منجك اليوسفي

(١٠٠٧ - ١٠٨٠ هـ)

(١٥٩٨ - ١٦٦٩ م)

الأمير منجك بن محمد بن منجك بن أبي بكر بن عبد القادر بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن منجك اليوسفي الدمشقي. وقد ولد في دمشق سنة ١٠٠٧ هـ في بيت إمارة ورياسة، إذ هو سليل منجك الكبير اليوسفي، الذي كان في خدمة الناصر محمد بن قلاوون. وقد نشأ في أيام أبيه وتقياً ظلال نعمه، وشغف بطلب العلم وتحصيل الأدب ونال قسطاً وافراً من الثقافة.

ومن مشايخه الذين قرأ عليهم عبد الرحمن العمادي، كما أخذ الحديث عن الشهاب أحمد الوفائي وأبي العباس المقرئ والأدب عن أحمد بن شاهين، ولما مات والده تقلبت به الأحوال وأنفق ما ورثه لمبالغته في البذل والسرف. واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الروم (التركية) فمدح السلطان العثماني إبراهيم، لكنه لم يظفر منه بطائل فعاد إلى دمشق، وعاش في ستر وجاه، توفي في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٠٨٠ هـ.

والمعروف أنه كان فصيح اللهجة كثير المحفوظات قوي الحافظة حسن التخيل والأداء، ومن آثاره ديوان شعره المطبوع، ولم تكن أشعاره مجموعة، وإنما جمعها بعد موته فضل الله والد المحبي بطلب من شيخ الإسلام عبد الرحمن بن الحسام بعد عزله عن الفتوى، فأنشأ لها ديباجة وجمعها ورتبها ترتيباً حسناً، وله أيضاً (مجموعة منجك باشا)، وما زالت مخطوطة.

النص:

قال الأمير الشاعر منجك اليوسفي في إحدى قصائده الرومية:

نزوح ديار لا أنيس ولا صحب وعاتب دهر ليس يعتبه العتب
منازله بالشام أضحت خليّة حكّت جسمه إذ سار عن جسمه القلب

له صببية عند العداة رهينة
عراة إذا ناموا تيقظ شرهم
جنيت على نفسي لي الذنب كله
غررت بأقوام وعودهم هبا
يلبون بالدعوى لطالب سبيهم
ولم أر من قبلي عليلاً طبيبه
يمد لصيد المدح مني حباله
وما الناس إلا حيث يلتمس الندى
رجعت عيون الله للمرء حارس

ومدمعهم من فرط لهفهم صبب
فأمنهم خوف وسلمهم حرب
بسيري وما للذنب في فعله ذنب
تمر جهاماً واسمها عندهم سحب
ولو شاهدوا فلساً على الأرض لانكبوا
سقيم اختبار ليس يعرف ما الطب
على الغدر معقود بأطرافه الكذب
وما الطير إلا حيث يلتقط الحب
وطرفي لا يكبو وناري لا تحبو

- ٢ -

شهاب الدين بن معتوق الموسوسي

١٠٣٥ - ١٠٨٧ هـ

١٦١٦ - ١٦٧٦ م

شهاب الدين بن معتوق الموسوسي الحويزي. شاعر عراقي بليغ من أهل البصرة ولد سنة ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) وفلج في آخر عمره، ثم توفي سنة ١٠٨٧ هـ وكان من فحول شعراء عصره، لكننا لا نعرف كثيراً عن أخباره. جمع ابنه معتوق شعره، وديوانه مطبوع مرتين، الأولى طبعة حجرية سنة ١٢٨٧ هـ والثانية في بيروت سنة ١٨٨٥ م.

قال الشاعر ابن معتوق يمدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بقصيدة مطلعها:

غربت منكم شمس التلاقي فبدت بعدها نجوم المآقي
واختتمها بقوله:

يا إمام الهدى ومن فاق فضلا ومالا الخافقين بالائتلاق
قد سلكت الطريق نحوك شوقا ورجائي مطيتي ورفاقي
أسرتني الذنوب أية أسر والخطايا فمن في إطلاقي
أول العمر بالضلال تولى سيدي فأصلح السنين البواقي
أنارق بك استجرت فكن لي من أليم العذاب بالبعث واقي
زف فكري إليك بكر قريض برزت في غلائل الأوراق
صانها عن سوى علاك شهاب ياشهبا بأضاء بالإشراق
فالتفت نحوها بعين قبول فلها بالقبول أسنى صدق
وعليك السلام ما رقص الغصن وغنت سواجع الأوراق

فاقت الدهر زينة مثل ما قد
سيد الأوصياء مولى البرايا
بدر أفق الكمال شمس المعالي
حكمه العدل في القضايا ولكن

فاز قدر الوصي بالآفاق
عروة الدين صفوة الخلاق
غيث سحب النوال ليت التلاقي
جائر في نفوس أهل الشقاق

عبد الغني بن إسماعيل النابلسي
(١٠٥٠ - ١١٤٣هـ) - (١٦٤١ - ١٧٣١م)

عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي، شاعر متصوف مشهور وأحد كبار علماء الدين. ولد في دمشق سنة ١٠٥٠ هـ، ونشأ فيها، ثم ارتحل إلى بغداد والحجاز ومصر وفلسطين واستقر في نهاية المطاف ببلده دمشق، مصنفاًه كثيرة جداً في الشعر والدين والتصوف، أخبر السيد أحمد خيرى الزركلي أنه أحصى له ٢٢٣ مصنفاً وقد طبع كثير منها.

من كتبه المطبوعة: الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، وتعطير الأنام في تعبير المنام، وذخائر الموارث في الدلالة على مواضع الأحاديث، وهو فهرس لكتب الحديث الستة، وعلم الفلاحة، ونفحات الأزهار على نسبات الأسحار، وإيضاح الدلالات في سماع الآلات، وخمرة الحان، وهي شرح رسالة الشيخ أرسلان، وديوان الحقائق ومجموع الرقائق من شعره، والرحلة الحجازية والرياض الأنسية، ورشحات الأقلام في شرح كفاية الغلام، في فقه الحنفية، وكشف الستر عن فرضية الوتر، ولمعان الأنوار في المقطوع لهم بالجنة والمقطوع لهم بالنار، وجواهر النصوص مطبوع في جزأين شرح فيه فصوص الحكم لابن عربي، ومن كتبه المخطوطة ذيل نفحة الريحانة، والحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز، وقلائد المرجان في عقائد أهل الإيمان، وشرح أنوار التنزيل للبيضاوي، وكفاية المستفيد في علم التجويد، والاقتصاد في النطق بالضاد، ومن مناجاة الحكيم ومناجاة النديم، في التصوف، وشرح المقامة السنوسية، وديوان الدواوين.... وغيرها، توفي في دمشق سنة ١١٤٣ هـ - ١٧٣١ م.

النص:

قال الشاعر المتصوف عبد الغني النابلسي في ديوانه الشهير (ديوان الحقائق ومجموع الرقائق):

بدت الحقيقة من خلال شعورها واستأنست من بعد طول نفورها

قد هام منها في بياض ثغورها
بسواد مقلتها وبيض شعورها
تشغل زمانك بالجنان وحورها
فاسمع معي منها غناء طيورها
في دوح هذا الكون مع شحرورها
في طيها الترتيب من منشورها
ظهرت وقام خفاؤها بظهورها
منها ولاحت في ذوات بدورها
قولاً يحقني بورد صدورها
في وردة الأكوان من منشورها

وتبسمت في وجه عاشقها الذي
وتلبست للطارقين على الهوى
فأقم قوامك وانتظر وانظر ولا
واشدد على عيدانها أطيورها
وانظر لبلبلها يغرد مطربا
صدق الذي قد قال فيما قاله
خفيت وما خفيت وقد ظهرت وما
شمس بها كل الشموس تنورت
من قال: من هي؟ قلت: من هي مثله؟
طابت فطيبتها تفوح بطيها

في نارها وقع الجهول ونورها
من مائها الصافي وصرف خمورها
من نحل أنفسنا وبيت قبورها
هي صورة من نفخها في صورها
لكن بنا قالوا لأجل قدورها
بك وافهم المقصود من مذكورها
هذا هو المعروف من منكورها

الله أكبر إنها النبأ الذي
ولقد بدت كاساتها مملوءة
وحلاوة العسل الذي هو رائق
هي سورة في الذكر تتلى دائما
قالت بها كل الرجال كقولنا
فاستجلبها بيبضاء سوداء السوى
صح الحديث فخذ بها هو ظاهر

الشيخ حسن بن محمد العطار

كان أهله من المغرب فانتقلوا إلى مصر وولد في القاهرة سنة (١١٨٠هـ - ١٧٦٦ م) وكان أبوه عطاراً استخدم ابنه أولاً في شؤونه، ثم رأى منه رغبة في العلوم فساعده على تحصيلها فاجتهد الولد في إحراز المعارف وأخذ عن كبار مشايخ الأزهر كالشيخ الأمير والشيخ الصبان وغيرهما حتى نال منها قسماً كبيراً. وفي أيامه جاء الفرنسيون إلى مصر فاتصل بأناس منهم فأفادوه بعض الفنون الشائعة في بلادهم وأفادهم درس اللغة العربية. ثم ارتحل إلى الشام وأقام مدة في دمشق، ومما نظمته حينئذٍ قوله في منزهات دمشق:

بوادي دمشق الشام جُزِّي أخوا البسط وعرج على باب السلام ولا نُحطِ
ولا تبك ما يُبكي أمراً القيس حوملاً ولا منزلاً أودى بمنعرج السقطِ
فإن على باب السلام من البها ملابس حسنٍ قد حُفظن من العطِّ
هنالك تلقى ما يروقك منظرا ويُسلي عن الأخدان والصَّحْب والرهِطِ
عرانس أشجارٍ إذا الريح هزَّها تملُّ سكارى وهي تخطر في مرطِ
كساها الحيا أثواب خَطُر فدثرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقُرطِ

وتجول هذا الشيخ حسن في بلاد كثيرة يفيد ويستفيد حتى كر راجعاً إلى مصر فأقر له علماءها بالسبق فتولَّى التدريس في الأزهر وقُلد هذه المدرسة بعد الشيخ محمد العروسي سنة ١٢٤٦هـ، فتدبَّرها أحسن تدبير إلى سنة وفاته في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٢٥٠هـ، ١٨٣٥م. وكان محمد علي باشا خديوي مصر يجلُّه ويكرمه. وقد خَلَّف عدة تآليف في الأصول والنحو والبيان والمنطق والطب. وله كتاب في الإنشاء والمراسلات تكرَّر طبعه في مصر. وكان هذا الشيخ عالماً بالفلكيات له في ذلك رسالة في كيفية العمل بالإسطرلاب والرُّبْعَيْن المنقطر والمجيب والبسائط. وكان يُحسن عمل المزاويل الليلية والنهارية. وقد اشتهر الشيخ العطار أيضاً بفنون الأدب والشعر.

ومما يروى عنه أنه لما عاد من سياحته في بلاد الشرق رافق إمام زمانه في العلوم الأدبية السيد إسماعيل بن سعد الشهرير بالخشّاب فكانا يبيتان معاً ويتنادمان ويتجادبان أطراف الكلام فيجولان في كل فنّ من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرات واستمرت صحبتها وتزايدت على طول الأيام مودّتهما إلى أن توفي الخشاب فاشتغل العطار بالتأليف إلى موته. ولهُ شعر رائعُ مُجمَع في ديوانه، فمن ذلك ما رواه له الجبرتي في تاريخه يرثي الشيخ محمد الدسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠هـ، ١٨١٥م.

أحاديث دهرٍ قد أمّ فأوجعا وحلّ بنادي جمعنا فتصدّعا
فقد صال فينا البينُ أعظم صولة فلم يُحلّ من وقع المصيبة موضعا
وجاءت خطوبُ الدهر تترى فكلمها مضى حادث يُعقبه آخرُ مسرعا
وهي طويلة قال في ختامها:

سعى في اكتساب الحمد طولَ حياته ولم تره في غير ذلك قد سعى
ولم تلهه الدنيا بزخرفِ صورة عن العلم كيبا أن تغرّ وتخدعا
لقد صرف الأوقات في العلم والتقى فما أن لها يا صاح أمس مضيّعا
فقدناه لكن نفعه الدهر دائمٌ وما مات من أبقى علوماً لمن وعى
فجوزي بالحسنى وتُوج بالرضا وقوبل بالإكرام ممّن له دعاء
ومن مدحوا الشيخ حسن العطار المعلم بطرس كرامة اللبناني فقال فيه لما قابله في مصر:

قد كنتُ أسمعُ عنكم كل نادرةٍ حتّى رأيتك يا سؤلي ويا أربي
والله ما سمعتُ أذني بما نظرت لديك عيناى من فضلٍ ومن أدب
وقام بعد الحسن العطار بتقلّد مشيخة الأزهر أربع سنوات وتوفي سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) وكان مكفوف البصر عالماً له تأليف فقهية قال فيه أحد شعراء زمانه يوم ولي رئاسة الأزهر معترفاً بسلفه:

ولئن مضى حسنُ العلوم أربه فلقد أتى حسنٌ وأحسنٌ من حسنٍ
أنت المقدم رتبة ورتاسةً وديانةً من ذا الذي ساواك من

الشيخ حسن قويدر

اشتهر بالأدب وهو أحد تلامذة الشيخ حسن العطار وله بمصر سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ م) وكان أصل أجداده من المغرب، ثم انتقلوا إلى مدينة الخليل وتناسلوا بها، ثم انتقل قويدر والد المترجم إلى القاهرة وفيها ولد ابنه الحسن. فلما نشأ أخذ عن شيوخ زمانه وخصوصاً عن الشيخ حسن العطار. ولم يزل يتقدم في العلوم حتى نال فيها شهرة عظيمة، وكان مع ذلك يشتغل بالتجارة ويعامل أهل الشام ومن تأليفه شرحه المطول على منظومة أستاذه حسن العطار في النحو، وكان قرّظها بقوله:

منظومة الفاضل العطار قد عقبته منها القلوبُ برّياً نكهة عطره
أو لم تكن روضةً في النحو يانعةً لما جنى الفكر منها هذه الثمرة
في ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها والليلُ داج أرائنا وجهها قمره
قالوا جواهر لفظٍ قلت لا عجبٌ بحر البلاغة قد أدى لنا دُرره
ومن تأليفه أيضاً كتاب إنشاء ومراسلات ورسائل أدبية. ومنها كتاب نيل الأرب في مثلثات العرب وهي مزدوجات ضمّنها الألفاظ المثلثة الحركات المختلفة المعاني كمثلثات قطرب، ومما يروى من شعره قوله:

يا طالب النصح خذ مني محبرة تلقى إليها على الرغم المقاليدُ
عروسةً من بنات الفكر قد كُسبت ملاحاةً وأما في الخدّ توريدُ
كأنها وهي بالأمثال ناطقةً طيرٌ له في حميم القلب تغريدُ
احفظ لسانك من لَغَطٍ ومن غلَطٍ كل البلاد بهذا العضو مرصودُ
واحذر من الناس لا تركزن إلى أحدٍ فالخلّ في مثل هذا العصر مفقودُ
بواطن الناس هذا الدهر قد فسدت فالشر طبع أميم الخير تقليدُ
توفي الشيخ حسن قويدر سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦).

الشيخ أمين بن خالد آغا ابن عبد الرزاق آغا الجندي

ولد في حمص من أسرة شريفة سنة ١١٨٠هـ (١٧٦٦ م) ونشأ بها في طلب العلوم، ثم رحل إلى دمشق فامتاز بين أقرانه وشهد له الشيخ عمر اليافي بالتقدم في الشعر. وقد نظم القصائد المفيدة والقُدود الفريدة وتفنن خصوصاً في الموشحات والمواليات والأناشيد الموقعة على آلات الطرب، وقد غلبت عليه الغزليات. وكان سيال القلم طيب القريحة لم يمض عليه يوماً خالياً من نظم أو نثر يحرر في يوم ما يعجز عنه غيره في شهر. وكان أهل زمانه يتزاحمون على مسامرته ويتنافسون على مواصلته ويتغنون بأقواله. وكانت وفاته في حمص سنة ١٢٥٧هـ (١٨٤١ م) ودفن قريباً من الجامع الخالدي. وله ديوان شعر خاص به، فمن ذلك قوله من الرجز يصف فيه الربيع في ربوة دمشق:

يا حَبَّذا الربوةُ من دمشق	بالفضل حازت قصبات السبقِ
كم أطلعت بها يدُ الربيعِ	من كل معنى زائد بديعِ
وفتح الوردُ الكفوفَ إذ دعا	داعي الصباح للهناء ورَجَّعا
وفكَّكت أنامل النسيمِ	أزارَ زهر الرِّند والشميمِ
وسقطت خواتم الأزهارِ	من فَنن الأغصان كالدراري
وانتفَّ سيفُ البرق في أوراقِ	مذ شام خيل الريح في سباقِ
ما بكت السماءُ بالغمامِ	إلا وصار الزهرُ في ابتسامِ

ومن محاسن شعره قوله خمساً لأبيات عرضها عليه عبد الله بك العظم في خصام النرجس والورد:

قال لي النرجس حـرَّض
لقتال الـورد وادحـض

قلتُ هذا قول مَبغضُ أيها النرجسُ أعرضُ

لن تنال الأفضلية

عُد إلى الحقِّ سريعاً ولقولي كن سميعاً

وانبتِ للورد مطيعاً وسَل الزهر جميعاً

عن معانيك الرديئة

قد جهلتَ الأمر قدما وادَّعيتَ الحسن ظلماً

فـيمن أولاك حلماً لا تكن للورد خصماً

فهو مرفوعُ المزية

كنت قبل العجب آمنٌ وبطلَّ الـروض كـامنٌ

فإذا حرَّكتَ ساكنٌ أنت ربُّ السيف لـكن

شوكة الورد قويَّة

ومن قوله في هجوم قوم:

وقوم غَضَّ طرفُ الدهر عنهم فأذوا كلَّ ذي عرض وعادوا

وفي ظلُّمات ظلم الحق ساروا فسادوا عندما ظهر الفسادُ

وإن قالوا سنرجع حيث كنَّا مخافةً أن تـذمَّهم العبادُ

وإن طلبوا رجوعهم عنادا فما صدقوا ولو رُدُّوا العادوا

ومن مديحه قوله في وزير من قصيدة طويلة:

رفيع مقامٍ شامخ العز ضيغُم غياث مغيث من ظلوم إذا اعتدا

يلوذ به الجاني فيبلغُ مأمنا ولو كان أهل الخافقين له عدى

ومن أممهُ من فاقه عاد مـثريا ويرجع بعد الذل والفقر مسعدا

إذا الدهر يوماً جارَ في حكمه بنا على الدهر أرسلناه سهماً مسدداً

فتىّ جمع الدنيا مع الدين والحجا
فأضحى لأرباب الحوائج كعبه
لعمرك هذا المجد والحسب الذي
ستغدو لنا للعزّ داراً وللورى
ويبقى لسان الحال فيه مؤرخا

(١٢٦٢) وقال سنة ١٢٥٦ مؤرخاً وفاة السيد نجل الكيلاني:

بدرٌ ولكن نوره لا يُجَبُّ
يصادها وأبوه بأز أشهبُ
هذا النجيب وليس منه أنجب

في جنّة الفردوس حلّ كأنه
قد صاد كل المكرمات وكيف لا
بوفاته التاريخ أنبأ قائلًا

نصر الله الطرابلسي

وهو ابن فتح الله بن بسارة الطرابلسي ولد في حلب سنة ١٧٧٠ م، وكان من أسرة كريمة من طائفة الروم الكاثوليك. ولما انتقل أبوه إلى طرابلس عرف بالطرابلسي وكان عريقاً في الدين تحمل في سبيل إيمانه محناً عديدة فنشأ ابنه على مثاله تقياً ورعاً، وكان مع ذلك متوقفاً في الذهن محباً للعلوم ودرس اللغات فتعلم منها التركية والفرنسية، وكان مبرزاً في الآداب العربية مطلعاً على فنونها يحسن فيها الكتابة وينظم الشعر الحسن. وقد أبقى من نظمه مآثر عديدة أكثرها متفرق لو جمعت حصل منها ديوان كامل. وسكن نصر الله الشهباء زمناً طويلاً ومدح وجوه أهلها مسلمين ونصارى لاسيما نقيبها محمد الجابري، وقد أثبت المشرق قصيدته فيه، ومدح كذلك الشيخ هاشم أفندي الكلاسي فقال يخاطبه:

لما سمعتُ مسلسلًا عن سادة
أن الفصاحة كلها في هاشم
يَمَمْتُ ناديه وألقيت العصا
ورجوتُ يقبلني ولو كاخادم
إن جاد لي بالارتضا فبفضله
أو لم يُجدُ فلسوء حظ الناظم
فأجابه الشيخ جواباً لطيفاً فكتب إليه:

نسيمٌ لطفك صابني بالوكية
صيبَ المحبِّ إلى محبِّ قادم
فيمثله أهلاً وسهلاً مرحباً
بمسامرٍ ومنادمٍ لا خادمٍ
وكذلك كان الطرابلسي يتردد على عبد الله الدلال ويجتمع عنده بأدباء زمانه وقال في أحدهم وهو فتح الله المرائش يشكر له جميل أياديه ويهنئه بعقد زواجه سنة ١٨٢١ م، هذا مطلعها:

يا للهوى ما للعذول ومالي
أنا قد رضيتُ بكافة الأحوال
ومنها في المدح:

النـدبـا عـبـد الله فـخـر أـوانـه
فهـو الـذي يـشـري الثـنـاء بـالـه
وهـو الـذي لـم يـحـل قـطُّ زـمـانـه
وختـمها بـهـذا التـارـيـخ:

واسـلم بـتـارـيـخي ودمـت بـمـنـه
وفـي الـسـنـة ١٨٢٨ م تحـامـل عـلى الطـرابـلسـي أـعدـاؤه فأحـب الخـروـج مـن وـطـنـه ورحـل إـلى مـصر
فلقـي الحـظـوة عـند بـني البـحـري مـن أعيـان طائـفتـه، وكانوا مـتـقـدمـين فـي الدواوـين فـخـدمـهم
وتقـرب بـواسـطـتـهم فـي المـنـاصـب وتـوصـل بـهم إـلى مـحمد عـلي باشـا خـديوي مـصر فـمدـحه ونـال مـن
إحـسانـه. وكانت وفاة الطرابلسي نحو السنة ١٨٤٠ م، وشعره منسجم بليغ المعاني كثير
التفنن، أوردنا منه في أغراض شتى، ومن مراسلاته شعراً ونثراً ما دار بينه وبين شاعر عصره
بطرس كرامة فقال هذا في مدحه:

نشأت بنصر الله روح صباية
فرع لفتح الله أينع مخصبا
فإليك يعزى الفضل يا من لاح لي
قرباً لدار كنت فيها وحبذا
وأبى الفؤاد لغيرها أن يذكرها
بحديقة الآداب شبب وأثمرا
منه الوداد ولن يراني مبصرا
الشهباء نصر الله فيها قد سرى
فأجابه نصر الله الطرابلسي من قصيدة ذكر فيها طرابلس بلده، وكان بطرس كرامة حيثئذ
ساكناً فيها:

فسقى طرابلس السحاب وليه
بلد كأن الدهر عاندي بها
لوفاخرت كل البلاد بأن في
الأوحد الندب الفريد الأجد السند
سحاً وتهاناً يرى متفجراً
فاستاق أهلي قبل أن أطأ الثرى
سها بطرساً لكفى بذلك مفخرا
المجيد الألعبي الأنورا
إلى أن ختمها بقوله:

واسلم ودم بمهابية وكرامية
ما سارت الركبان تقطع فدفدا
يا موردًا لم أرض عنه مصدرًا
من عاشق ولهان تهدي الأسطرا
وله أيضاً من قصيدة أخرى في مدحه وذكر بعض رسائله:

شرفتنا بكتاب منك قد بزغت
رسالة أرسلت للقلب تحفظه
أنواره فهدينا واقتبسناها
فما له ضاع مني عند مسراها
سفن العلوم فبلسم الله مجراها
توقاً لمن يديع النظم وشاها
محياتكم وجلت بالنور مرآها
ونلت من واردات العمر أنهاها
وكتب له أيضاً:

لقد حكم الزمان عليّ حتى
وإن بعُدت ديارك عن دياري
أراني في هواك كما تراني
مكاناً ليس يعرفه جنائي
فغفرت الدهر ما أبداه من نكيد
وكتب له أيضاً:

بطرس كرامة

ولد في حمص سنة ١٧٧٤م وفيها نشأ وتأدب وله في مديح أعيانها أقوال حسنة، كقوله في الشيخ عبد الرحمن الكزبري:

يا حبّذا حمصُ التّي ضاءت بأعظم نيرٍ
قد أشرق البدرُ بها وبشمس فضل الكزبري
وقال مرتجلاً في الشيخ أمين الجندي:

الله نعم مهذب باهت به حمص ونور الفضل عنه يبين
لا غرو إذ فاق البديع أنه شههم على درر البديع أمين
اضطر بطرس أن يهجر حمص مع والده متوجهين إلى عكار. وقصد بطرس علي باشا
الأسعد حاكم تلك البلاد وامتدحه بالقصائد الحسنة فأجازه ورغب فيه لبراعته ودرايته
وحسن أدبه وخطه فاستخدمه في ديوانه ورفع منزلته، ورتب له ما يقوم بكفايته فأقام في
خدمته نحو خمس سنوات، ثم ذهب إلى لبنان واستوطن الجبل.

اتصل بطرس بنقولا الترك شاعر الأمير بشير فقربه من مولاه سنة ١٨١٣، وحظي بطرس
عند الأمير الشهابي لما رآه فيه من العلم وجودة العقل وفصاحة اللسان مع معرفته للغة التركية
فعهد إليه بتهديب ولده الأمير أمين واتخذه كاتباً للأُمور الأجنبية لجودة إنشائه. ثم جعله
الأمير بشير معتمداً من قبله في التوجه إلى عكا فقام بأوامر سيده أحسن قيام، وحصل عنده
مالاً كثيراً وجاهاً وافرأً وكان الأمير يحبه ويثق به في جميع أعماله ويعتمد عليه في مهمات أشغاله
ولا ينتهي أمراً إلا برأيه.

ثم سلمه الأمير تنظيم خزينة الحكومة فوضع لها قوانين استحسناها الشهابي وأمر بإجرائها،
ثم رفع منزلته وعمله فصارت أمور لبنان كلها في يده يدبرها أحسن تدبير. فوَقعت هيبته في
القلوب وعظمت حرمة وانتشرت شهرته وعلت كلمته وابتنى داراً كبيرة في دير القمر واقتنى

أملاكاً واسعة، وكان قد سافر بمعية الأمير بشير إلى الديار المصرية واجتمع بفضلائها وعلمائها وله معهم مفاوضات.

ثم رجع إلى بيت الدين وبقي في خدمة الأمير إلى أن خرج الأمير بشير من بلاد سورية سنة ١٨٤٠م، فسافر معه إلى مالطة، ثم إلى الأستانة العلية ونال من الالتفات وعلو المقام لدى رجال الدولة ما لم يزل مشهوراً، كانت وفاته في الأستانة العلية (١٨٥) وله مع أكابر رجالها مساجلات لطيفة وكان بليغ الكلام. وقد أرخ وفاته الشيخ ناصيف اليازجي فقال:

مضى من كان أذكى من أياس بحكمته وأشهر من زهير
فقل يا ابن الكرامة قر عيناً لبطرس أرخوه ختام خير
ولبطرس كرامة مكاتبات ورسائل غير مطبوعة. وله ديوان شعر كبير طبعه الأديب سليم بك ناصيف سنة ١٨٩٨ في المطبعة الأدبية ومنها مساجلاته مع أدباء الأستانة ومنظوماته في العاصمة وبعضها لم يطبع في ديوانه. وشعر بطرس كرامة أضبط وأطبع من شعر آل عصره، تراه يتصرف في المعاني ويخرجها على أبداع طريقة، فمن قوله في الوصف ذكره لباقة زهر أهدها إياها الأمير بشير:

وباقة زهر من مليك منحتها معطرة الأرواح مثل ثنائيه
فأبيضها يحكي جميع خصاله وأصفرها يحكي نضار عطائه
وأزرقها عين تشاهد فضله وأحمرها يحكي دماء عدائه
وله تخميس وتشطير على هذه الأبيات. ومما لن نجد في ديوانه قصيدة قالها مستغفراً عما فرط منه ومناقشاً أهل المادة في آرائهم الفاسدة وسماها درة القريض وشفاء المريض أولها:

نأى الوجد عن قلبي وأعيت بلائيه وبانت لبانات الهوى وبلائيه
وهي طويلة نختار منها أحسن أبياتها:
ألا أندب زماناً قد صرفت بكوره خلالاً وقد مرّت سفاهاً أصائله
فكم خضت بحر المعصيات مُفاخرا وقصرت رجلاً عن ثواب تقابله
فيامن وعدت التائبين برحمة وعفو وإن ذنب تطاول طائله

ألا اغفر لعبد أنتخته مآثم
فإن كان ذنبي قد تعاضم جرمه
ومنها في الرد على أهل الكفر:

فيا ويح قوم قد عصوك وأركنوا
فإن أثبتوا فعل الطباع ببعضها
ويلزم من هذا دوام تسلسل
فمن سير الأفرار في درجاتها
فإن كان جذاباً مثلما قدروا فمن
فيا ملحداً أمسى على الله منكرا
فمن أبداع الكون البديع نظامه
فإن قلت إن الكائنات تمدها
فويلك من إنشاء العناصر أولاً
وإن قلت أجزاء قديم وجودها
فوافق وقتاً إنها قد تألقت
فما هذه الأجزاء هل بإرادة
فإن كان قسراً فهي تحتاج موجداً
وإن كان عن قصد أتى فهي ربكم
فما قلتموه باطل وكلامكم
فيا واحداً يا قادراً يا مهيمناً
فهبني عفواً من لذنك ومنّة
ومما جاء في التهاني قوله في الأمير عبد الله الشهابي حفيد الأمير بشير سنة ١٨٣٥ م:

يا سيّد العدل والإحسان زد شرفاً
لك الهنا بحفيد كان مولده

ومن جملة الأوزار قد كل كاهله
فعفوك بحر ليس يُدرِك ساحله

إلى الكفر فانصبت عليهم غوائله
فمبدأ هذا الفعل من هو فاعله
وهذا محال لا تصح مسأله
على دوران لا تحل منازلته
تري أوجد الجذب الذي هو كافله
فإن وجود الله صحت دلائله
ومن ذا على ترتيبه الدهر شامله
فقد لزم الدور الذي شاع باطله
وصيرها في مركز لا يزيأله
تحركها بالطبع كانت تعامله
على هيئة منها نشا الكون كامله
تحركها أم جاء بالقسر عامله
يقيم بها فعلاً سريعاً تفاعله
تقاسمه عالي الوجود وسافله
محال ومهزول النتيجة حاصله
تنزّه عن ضدّ وندّ يائله
وحسن ختام أرتجيه وآمله

قد زادك الله إنعاماً وتأييداً
السعد عزاً والعلواء توليداً

فلا يزال هو الصمود سؤددهُ مدى الزمان سعيد الدهر مسعودا
ولا تزال لك الأيام ضاحكةً والعيش رغداً وطيب العمر ممدود
ومما لم نجده أيضاً في ديوانه قوله في سفر كان قد فقد ثم رجع:

وكم شاهدتُ أهوالاً ثقالا وأحوالاً رأيتُ بها العجائبُ
وكم كابدتُ في سفري عناءً وكم فيه دهنتني من مصائبُ
وكم لي وقعةٌ مع كل حرٍّ وكم لاقيت شاهيناً محاربُ
وكم صادفت فيه من عُقابٍ شديد البأس قناصٍ معاقبُ
وكم من كاسر من كل طيرٍ تعمّدي وجاء عليّ واثبُ
هناك أنبت بطشي واقتداري وأبدتُ العجائب والغرائبُ
وجردتُ الأظافر من أكفٍّ مظفّرةٍ وأنشبتُ المخالبُ
وبتُّ بكل ذي جناحٍ أسطو وأقهر كلَّ خطّافٍ مضاربُ
فكم شققتُ منهم في الفيافي وكم بلّدت منهم في السباسبُ
وكم غادرتهم في الجو فوضى وكم أفنيتُ منهم في الشعائبُ
ولم أنفك أسقيهم كؤوسا أجرّعهم بها مرّ المشاربُ
ولم أتترك بهم إلا فراخا يتامى في العشوش غدت نوادبُ
فمثلي من يخوض وغى المنايا ويغزو وهكذا ويعودُ غالبُ
أنا المجلوب من كرمٍ ولكن بعون الله للأحرار جالبُ
فهنّوا سيدي بي في مقال يؤرّخ جاء بعد العزّ كاسبُ

إن أدباء عصره عرفوا فضله وأقروا به إلا البعض منهم. ولما قال قصيدته الخالية الشهيرة التي التزم أن تكون قافيتها في جميع أبياتها لفظة الخال في معانيها المختلفة وأولها:

أمن خدّها الوردِيّ أفتنك الخال فسحّ من الأجفان مدمعك الخال

أعجب بها كثيرون وأثنوا على قائلها. وعارضها الشيخ عبد الباقي العمري الموصلية بقصيدة كتبها في بغداد يمدح فيها داود باشا هذا مطلعها:

إلى الروم أصبو كلِّما أومض الخالُّ فأسكبُ دمعاً دون تسكابه الخالُّ
وغيرهم خمَّسوها كالشيخ إبراهيم يحيى العاملي والشيخ بن شريف المشهدي، لكن الشيخ صالح التميمي لم يستحسنها وكتب في تزييفها قصيدته التي أولها:

عهدناك تعفو عن مسيءٍ تعدّرا ألا فاعفُنا عن ردِّ شعر تنصرا
فاستاء من ذلك الأدباء وكتب الشيخ رشيد الدحداح في قمطرة الطوامير انتقاداً مطولاً على صاحبها. وأجاب عليها بطرس كرامة بقصيدة من البحر والروي أولها:

لكل امرئ شأنٌ تبارك من رأى وخصَّ بما قد شاء كلاً من الوري
وقد وقفنا على قصيدة للسيد عبد الجليل البصري حكم فيها بين الشعارين، فقال قصيدته التي افتتحها بقوله:

حكمتُ وحكمي الحقُّ ناءٍ عن المرا بأنَّ التميمي الأديب تعثَّرا
بذمِّ قوافٍ في تمام جناسها وذلك نوعٌ في البديع تقرِّرا
ومنها في مدح بطرس كرامة:

كما شاع حُرُّ الشعر في بيت بطرسٍ وفي نجله بين المدارين والقري
فصيحٌ رقى أوج البلاغة يافعا فإشارة حلّى بها ربَّع قيصر
لأفكاره غرُّ القوافي قريبةً وعن غيره بُعد الثريا من الثرى
أتى منه نظمٌ هدَّ حجة صالحٍ وإن كان في المنظوم قدماً تصدّرا
وقد كان لي من صالح خيرٌ صحبةً وعند اتباع الحقِّ ما زلت أجدر
لكلِّ تراني قد قضيت بحقه وأسألُ بارينا الهدى والتبصُّرا
وقد مدح صاحب الترجمة قوم من أدباء زمانه كنصر الله الطرابلسي وكنقولا الترك، ومن مدحه أيضاً عبد الحميد البغدادي الشهير بابن الصباغ فكتب إليه رسالة أولها:

تبسم الزهر عن أنفاسكم فسرى
فمن هناك عشقتناكم ولم نركم
فأجابه بطرس كرامة بكتاب افتتحه بقوله:
عشقتكم من قول لقياكُم
كالشمس لا تدركها مقلّة
وكذلك مدحه رزق الله حسون الحلبي وسنذكر قوله في ترجمته. وأشهر منه الشيخ ناصيف
اليازجي فإن ديوانه الذي طبع لأول مرة في بيروت مصدر بقصيدة في مدح كرامة يقول فيها:

رجلٌ وماذا وصفهُ وكفى به
حسنُ المعاني والبيان كلامهُ
ومنها:

يا بطرسُ الشهمُ الكريم مكانهُ
وله أيضاً يعزّيه بولديه وهو رثاء بليغ أوله:

أجملَ الله في فؤادك صبرا
ومنها:

لو يُفيد البكاء والنوحُ شيئا
يطمع المرءُ في الحياة طويلا
وحياة الدنيا تسمى حياةً
هكذا الناس طائرٌ إثر كلبٍ
يا طريق البقا إذا كنت خيرا
وحياة الدنيا طريق الأخرى

من طيب ذكركم فنشر فأحيانا
والأذن تعشق قبل أحيانا
وكلُّ معشوق بما يوصفُ
لكنهما من نورها تعرفُ

رجلٌ له المفهومُ والمنطوقُ
جزلٌ ومعناه الرقيق دقيقُ
ومنها:

وبنانهُ ولسانهُ المنطوقُ
وجزى منه وأعظم أجرا
ومنها:

لأقامت خنساءٌ قبلك صخرًا
وهو في الموت أو عن الموت فترا
مثلا مُحسبُ المعرّة شهرًا
كلُّ عينٍ بدمعة البين شكوى
فلك الفضلُ كلما زدت قصرا
فخذ زادها الذي هو أمرى

جرجس بن يوسف بن إلياس أبيلا

وكان هذا الشاب مكفوفاً وهو شديد الذكاء والنباهة يقول الشعر عن سليقة، وكانت وفاته سنة ١٨٤٩ م، وهو في الربيع السابع عشر من عمره فأرخه بطرس كرامة بقوله:

بُنِيٌّ لآبِيلا بذا اللحد قد ثوى بصيرٌ ذكِيٌّ شاعرٌ متفرّسٌ
ولما قضى نوذي تنعم مؤرخاً ونلّ فرحاً في جنّة الخلد جرجسُ
وكان جرجس أبيلا مع صغر سنه يكاتب أدباء عصره فكاتب إبراهيم بك بن بطرس كرامة فقال فيه، ولعل هذه الأبيات لأخيه رفّول:

لقد أحييتَ فضل أيبك حتّى بفضلكَ فقتَ والدك الحكيمَا
أبوك لقد بنى لك بيت مجدٍ وزدت بمجدك المجد القديمَا
وكتب الشيخ ناصيف اليازجي فمدحه بقصيدة مطلعها:

بحور الهوى قد أغرقت كل سابعٍ وقصّر في ميدانه كل راجح
فكان جواب الشيخ بقصيدة قال فيها مثنياً على الشاعر الحدث:

هويتُ الذي أعطى النجوم فؤادهُ. فأعطتهُ منها سانحاً بعد بارح
تيمنتُ باسم الخضر فيه وطالما ترى المرء لا يخلو اسمه من لوائح
وجدتُ به بل منه متعة سامعٍ ويا حبذا لو نلتُ رؤية لامح
به حسدت عيناى أذني وربما تُخصّص بالإقبال بعض الجوارح
ومن حسن أقوال جرجس أبيلا قصيدة مدح بها السيد عبد الله الجابري منها:

دُعيتَ بعبد الله إنك سيّد وبالجابريّ الألمي لتجبرا
وأصبح ذو فضلٍ بحبك عائماً وأضحى بك الشاني الظلومُ مكدرًا

حويتَ التُّقى والجِدَّ والمجدَّ والهدى عن الجِدِّ حتى طبت فرعاً وعنصراً
وله من قصيدة مدح فيها الشيخ يوسف الأسير:

فيوسف يُدعى بالأسير لأنه يسيرُ إليه العلم في غاية الأسرِ
فهيمٌ كريمٌ فاضلٌ متأدبٌ قد استوجب المدح الجزيل مع الشكرِ
قد استوجبَ العز الرفيع مع الثنا لكثرة ما فيه من الشيم الغرِّ
وكان لرجس أبيلأخ أكبر منه يدعى رفول، وكان أيضاً مكفوفاً كشقيقه ويشبهه في توقد
ذهنه وفصاحة لسانه لكنه عاش دهرأ بعده وكان يقول مثله الشعر، وقد عارضها أهل زمانها
بأبي العلاء المعري فقيل، إنها حكياء في أدبه كما حكياء بفقد بصره. وتأدب على رفول بعض
الأدباء فاشتهروا بعده بالكتابة منهم فقيد الأدب نقولا بك توما المحامي الشهير المتوفى في
مصر السنة ١٩٠٨م. ومن شعر رفول قصيدة قالها في أحد الأدباء أولها:

يانسيم الصبح خُذْ عني السلام نحو قوم هيجوا في هيام
ومن أقواله في الشوق إلى بعض الأحباب:

أخبرِ الأحبابَ عني أنني بعد بُعدي عنهم ذقتُ الندم
طيفهم إن بعدوا عن مقلتي لم يفارقها دواماً وهي لم
فعسى أحظى برؤياهم وبى رمقٌ كي أشتفي من ذا الألم
وعلى الله اتكالي فالذي يُخلصُ الآمال فيه لم يُضم

السيد مصباح البربير محمد بن محمد البربير

ولد محمد مصباح سنة (١٢٦١هـ - ١٨٤٥م) وأظهر منذ صغره نجابة عظيمة فبعد إتقانه أصول اللغة ومن بعده العلوم على شيوخ بيروت في أيامه كالشيخ عبد الرحمن أفندي النحاس والشيخ عبد الله أفندي خالد البيروتي وأخيه الشيخ إبراهيم البربير. استخدم في مجلس التحقيق بوظيفة كاتب، وكان في شرح شبابه مولعاً بالشعر فينظم في أوقات الفراغ القصائد الرائقة التي تعرب عن جودة قريحته. وقد وافاه أجله فقصف غصن شبابه طرياً في وباء الهواء الأصفر الذي حدث سنة (١٢٨٠هـ) (١٨٦٥م). له ديوان صغير جمعه شقيقه الأديب عمر البربير فطبعه في المطبعة الأمريكية سنة (١٢٩٠هـ) (١٨٧٣م) ودعاه البدر المنيري نظم مصباح البربير. فما نظمه مصباح قوله مؤرخاً بناء دار لوالده سنة (١٢٧٩هـ) (١٨٦٢م)

لمحمد البربير دار قد زهت ونجوم مطلع عزها حراسها
في بابها كتب المؤرخ قل بها دار على التقوى أقيم أساسها
ومن ظريف أقواله تهنته بمولد ابن عمه محمد نجيب بن محمد البربير سنة ١٢٨٢:

بُشراك أحمد قد أتاك نجيبٌ حِيَّتْ بمرأه نهيّ وقلوبُ
نجلٌ كُسي من كل ظرفٍ حلّةٌ فهو الحبيبُ بلى أبوه حيبُ
قد لآخ في أفق السعادة ساطعا إن غابت الأقمارُ ليس يغيبُ
في مهده كالعنديل مغردا وكذا الليبُ من المهاد ليبُ
نادت علامات السعود بوجهه يحيي سعيداً إنه لأديبُ

وله مكاتبات مع بعض أدباء زمانه نخص منهم بالذكر ناصيف اليازجي، وكان هذا كتب

إليه:

برعتَ واللهِ في قولٍ وفي عملٍ
أعطاك ربك نوراً يستضاءُ به
لفظاً ومعنى وتهذيباً وإفصاحاً
فأجابهُ محمد مصباح بقوله:

يا من غدا شعرة الشعرى فكان لنا
لأنتَ شمسُ علومٍ حين مطلعها
قاموسَ فضلٍ وللتلخيصِ إيضاحاً
كم أخرجتُ قمرأً يزهو ومصباحاً
وقد رثاه الشيخ إبراهيم الأحذب وأرخ ضريحه بهذه الأبيات:

ضريحُ حلهُ مصباحُ فضلٍ
إلى عليا بنبي البربر يُعزى
سناهُ في سماءِ المجدِ عالي
لَهُ نسبٌ ينير دجى الليالي
سنا مصباحِ مشكاة المعالي
فقال منظم التاريخ وافٍ

الأمير محمد بن الأمير أمين أرسلان

ولد في الشويفات سنة (١٢٥٤هـ) (١٨٣٨م) وطلب العلوم منذ حداثة سنه وتعلم اللغات الأجنبية فضلاً عن اللغات الوطنية. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره فوضت إليه الحكومة السنوية إدارة الغرب الأسفل فتولاها تحت نظاره والده حتى مات والده سنة (١٢٧٥هـ) (١٨٥٨م) فقام بعمله. ثم انتقل إلى بيروت مع أهل بيته واستوطنها وتفرغ للتأليف والكتابة وكان عضداً لكل طالبي الآداب ساعياً في ترويج العلوم يجمع في داره محبي المعارف. وسنة (١٢٧٥هـ) (١٨٦٨م) استدعته الدولة العلية إلى الأستانة لتعهد إليه بعض المهام لكن الموت عجله عند وصوله فمات بمرض القلب وله من العمر ٣١ سنة، وقد أبقى المترجم عدة تأليف لا تزال مخطوطة منها كتاب في أصول التاريخ وعدة تأليف في الصرف والنحو والمنطق، وكتاب حقائق النعمة في أصول الحكمة، والمسامرة في المناظرة، وتعديل الأفكار في تقويم الأشعار، وتوجيه الطلاب في علم الآداب، والتحفة الرشدية في اللغة التركية، الذي نشر بالطبع.

وكان بين الأمير محمد أمين وأدباء زمانه مكاتبات تدل على براعته في فنون الآداب. وهو من مدحه الشيخ ناصيف اليازجي فله في أبيه الأمير أمين وفيه أقوال حسنة، فقال في الأمير أمين:

كريمٌ لا يضيعُ لديه حَقُّ	فقد سُميَّ أميناً بالصوابِ
وليس يخلو في الدنيا بشيء	لغير المال من حفظ الصحابِ
ويُدركنا نداءه حيثُ كنا	على حال ابتعادٍ واقترابِ
وتُكسبنا مكارمهُ ارتفاعاً	كصفر زاد في رقم الحسابِ
فدام نداءهُ يُقرَع كلَّ بابٍ	ويأتيهِ الثنا من كل بابِ

ومن حسن أقواله في الأمير محمد ما كتبه إليه يعزيه في أبيه بقصيدة كان مطلعها:

مادام هذا اليومُ يخلفه غدُ
لا تُنكروا أن القديمَ يُجددُ
لا تُقَطع الأغصانُ من شجراتها
إلا رأينا غيرها يتولّدُ
هذا الأمينُ مضى فقام محمّد
خلفاً فنابَ عن الأمين محمّد
وختمها بقوله:

خلفٌ كريمٌ أشبه السلفَ الذي
كان يوجّد كالأمين بعصره
و قد مدح أحمد فارس الشدياق بلامية أولها:

إن الأمير محمداً مفضالُ
من آلِ رسلانٍ ونعم الأُلُ
وقال يصف معارفه:

سيانٌ في نظمٍ ونثرٍ قوله
قد ألفت الكتب التي شهدت بأن
فأجاد في التاريخ أي إجادة
وبكل فنٍّ لم يفتُه مقالُ
وقال الشاعر المشهور أسعد طراد يعزيه بوالده بقصيدة هذا مطلعها:

الأرضُ تخبر والجحائمُ تشهدُ
منها في مدح الفقيد:

غدت بنور رسلانٍ نائحةً ومن
لك يا أمين مع القلوب أمانةٌ
فارقت لبنان الذي مهّدته
أضرمت ناراً في القلوب كأنها
فرط الأسي أمست تقوم وتعدُ
حزنٌ بها أودعتها لا يُنفدُ
عدلاً وكان الظن لا يتمهدُ
نارُ القرى بحماك ليست تخمدُ

علي الدرويش

هو السيد علي أفندي الدرويش بن حسن بن إبراهيم المصري الشاعر المفلق أصاب في أواسط القرن التاسع عشر شهرة كبيرة في القطر المصري، وتقرّب من أصحاب الأمر ومن أدباء وطنه فمدحهم وكاتبهم. ولما توفي سنة (١٢٧٠هـ) (١٨٥٣م) جمع ديوانه وأقواله النثرية تلميذه مصطفى سلامة النجاري فطبعه على الحجر في مصر في ٤٨٢ صفحة وعنوانه بالأشعار في حميد الأشعار (١٢٧٠) قال مؤرخاً قصر صديقه عر في أفندي:

وقصرٍ كالسّمَاءِ به نجومٌ مطالعُها السّعادة والبُدورُ
على أقطاره تبكي عيونٌ إذا ابتسّمت لوارده زهورُ
فليس وافد وافاه نهرُ وقد نفدت لمدحتّه البحورُ
وحسبُك روضةٌ في كل مجدٍ وفضل بالبنان له يشيرُ
تقاصر من سنّاه ذوو ثناءٍ وحسن القصر ما فيه قصورُ
يقول العزّ والإسعاد أرخُ سعود البيت يا عر في منير
وقال شاكرًا:

سُررتُ بنيل القصد من غير موعدٍ ولا شيء أسهى من سرورٍ مجدٍ
سُررت بنعماه ولكن حزنتُ من قصوري بحق الشكر في فضل سيدي
له الحمد والشكر الذي هو أهله وقلّ له حمدي وشكري ومنشدي
فلو كل عضوٍ فيه عدّة ألسنٍ لأعجزني شكر الندى المتعدّد
وهل أنا إلا عبد إحسان عفوكم فأضحى لديه مدحكّم كالتعبّد
تعودتُ لولا لطفكم غير عادي وصعب على الإنسان ما لم يعودِ

وزدتم مقامي رفعة فوق مقصدي
وأشهى من الإنعام تكدير حسدي
فينطق حالي عن لساني المعقد
ودولته والموكب المتجدد
مليك سعيد النجم خير محمد

وزدتم نيمي نعمة أبدية
وكدرتم ظن الحسود بنعمة
وحملتني ما لا أطيع وجوبه
فيا أسعد الله السعيد ملكه
فقد أشغل الدرويش شكراً مؤرخاً

شهاب الدين

وقد فاق علي درويش شاعر آخر كان يعاصره وهو الأديب الأريب السيد شهاب الدين محمد بن إسماعيل ولد في مكة سنة (١٢١٨ هـ) (١٨٠٣ م) ثم قصد مصر فدرس على مشايخها لاسيما شيخا الأزهر محمد العروسي وحسن العطار فبرع في الكتابة والشعر. ولما أنشأ الشيخ حسن أول جريدة طبعت في الشرق وهي الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ كمساعد له في إنشائها شهاب الدين المذكور، ثم خلفه في إدارتها سنة (١٢٥٢ هـ) (١٨٣٦ م) وجعل مصححاً لمطبوعات مطبعة بولاق الشهيرة وبقي في مهنته إلى السنة (١٢٦٦ هـ) (١٨٤٩ م) وانقطع إلى الكتابة والتأليف.

وكانت وفاته سنة (١٢٧٤ هـ) (١٨٥٧ م) وقد أبقى السيد شهاب الدين من تأليفه كتاب (سفينة الملك ونفيسة الفلك) ضمنها مجموعاً وافياً من الزجليات والموشحات والأهازيج والموالي التي يتغنى بها أرباب الفن في مجالي الأفراح ومعاهد السرور، ولما أتمه سنة ١٢٥٩ هـ قال في تاريخه:

هذه سفينة فنّ بالمنى سُحنتُ والفضلُ في بحره العجاج أجراها
وإذ جرت بالأمانى فيه أرّخها سفينةُ البحر بسم الله مجراها
ثم طبع سنة (١٢٧٧ هـ) (١٨٦٠ م) ديوان شعره في ٣٨٠ صفحة وفيه القصائد الرنانة في كل فنون العروض ومعاني الشعر. فمن نظمه قوله يصف مزولة أنشأها حضرة سلامة أفندي المهندس لجامع القلعة لبيان الأوقات والساعات بحساب البروج الاثني عشر:

ومُظهِرَةٌ للوقت ظهرًا وغيره والبرج أيضاً فهي واحدة العصر
سلامة منشي رسمها وحسابها لجامع خيراتٍ تفرد في مصر
وقال من قصيدة يمدح بطرس بكتي قنصل دولة روسيا إذ زاره يوماً:

أتى ينجلي كالبدري في سندسية
فتم لي الصفو الذي كاد حظُّه
ألا وهو تاج الفخر والحسن والبها
جميل السجايا الألمي فطانةً
هشوشُ المحيّا ضاحك السن دائما
بنفسي أفديه وقد جاء زائرا
يصوغُ له نظمي نفيس مدائح
وله قصيدة طويلة في مدح نصر الله (نصري) الطرابلسي الشاعر الذي مر لنا ذكره هذا
أولها:

لا رعى الله يوم حان وداعي
فيه قد أزمع الرفاقُ فراقا
وغدا الدمع سائلا يتجارى
إلى أن قال:

أثرى هل تعودُ أوقاتُ أنسي
وإذا ما الزمان جاء بنصري
هو بحرٌ تُروى المآثر عنه
روضُ آدابهِ الغضيضُ جناهُ
وختمها بقوله:

زادك الله بهجوةً وكمالا
ونظم الأبيات الآتية لترسم على سفرة الطعام:

أيها السيد الكريم تكرم
وتناول ما شئت أكلا شهيا

وتفصّل بجبر خاطر مَنْ هُمْ
وتحدّث على الطعام وأنس
واستزدهم أكلاً وقل إن هذا
فهلمّوا بنا ومدّوا إليه
فإذا ما أكلت ضيفاً فأرخ

أتقنوا صنعه وخذ منه شيا
واحداً واحداً بشوش المحيّا
طاب نضجاً وصار غضاً طريا
أيدياً باعها ينال الثريا
إن هذا الرزقنا كل هنيا

إبراهيم بك مرزوق

ويلحق بأدباء مصر أحد مشاهير كتبتها إبراهيم بك مرزوق. ولد سنة (١٢٣٣ هـ) (١٨١٧ م) وكان منذ نعومة أظفاره مغرماً بالأدب كثير الحفظ من مختار الشعر، قيل: إنه كان يحفظ منه عشرين ألف بيت كما أنه أحرز جملة وافرة من منتخب المتون العلمية ومأثور الأخبار. وكان كثير التصرف في فنون الكتابة ويحسن نظم الشعر. ورحل إلى بلاد السودان فكانت وفاته في الخرطوم سنة (١٢٨٣ هـ) (١٨٦٦ م) وقد عني بجمع قصائده وطبعها الهمام محمد بك سعيد بن جعفر باشا مظهر، وقسمها إلى سبعة أبواب على حسب معانيها ووسم هذا الديوان بالدر البهي المنسوق بديوان الأديب إبراهيم بك مرزوق (وكان طبعه سنة ١٢٨٧ هـ) (١٨٧٠ م) ومما جاء فيه من الحكميات قوله:

إن الفضيلة في الأنام غدت على شرف النفوس الشَّمُّ أقوى حَجَّة
فإذا ادعت بأن أصلك يافتى من سادة الأبطال أهل الهَمَّة
أوضح لنا نور الشهامة مثلهم وعلى رفيع المجد أحسنَ غيرة
وإذا أردت الفخر فاسهر دائباً لطلابِه واهجر لذيذ الهجعة
فتكون ذا شرفٍ فتلك دلائل دلت على شرفٍ وكل فضيلة
وقال مستعظماً لصديق نفر عنه:

يا معرضاً متجنباً حاشا كمن نقض الذمام
مولاي مالك قد بخلت ست عليّ حتى بالكلام
سلم عليّ إذا مررت ت فلا أقلّ من السلام
وقال يرثي إسكاروس أفندي الباش كاتب القبطي:

لا شكّ عندي في فناء الوجود فأفضلُ السيرة خيرُ الوجود

والمـرء مجـزئـيُّ بأعمالـه
وإنما طوبى لمن قد قضى
كالبارع إسكاروس في فضله
فقل لراجي شأوه أرخوا
فشأنه يوم تُقام الحدودُ
دنياه بالخير وسعد السعدُ
باهي الحجا والجد غيظ الحسودُ
يكفى ثوى إسكاروس دار الخلودُ
(١٨٦٠م).

الشيخ علاء الدين الموصللي

هو علاء الدين علي أفندي الموصللي واحد شيوخ شهاب الدين الوسني زاده. ذكره في كتابه نزهة الألباب في غرائب الاغتراب وأثنى على آثاره الأدبية، لكنه ذم أخلاقه وضيق صدره وجهله بمداراة الناس قال:

كان لا يدري مداراة الورى
وروى له شعراً حسناً منه:

لئن لم تشاهدني أخافش أعين
وإن أنكرتني الحاسدون تجاهلاً
فأين لشمس الاستواء من السُّها
وليس الذي في الناس كالحى ميتٌ
وقوله:

وزمانٍ عدت على لياله
ودعتني صروفه في شتات
لا لذئب أتيتُه غير أن الـ
وإذا ما الصلاح فيكم فسادٌ
وكانت وفاته بالطاعون سنة (١٢٤٣هـ) (١٨٢٧م) وأنشد قبل وفاته:

أسفي على فصلٍ قضيت ولم أكن
ومن العلوم الغامضات ورمزها
وأخذت في كفني علوماً لم أجد
أبصرت عارف حقه فيبين
أملي قضيت وللغنون ديون
مستودعاً هي في الدفين دفين

عبد الحميد الموصلبي

هو عبد الحميد ابن الشيخ جواد الموصلبي الشهير بابن الصبّاغ أحد شعراء العراق الذين شرفوا تلك الأصقاع بأدابهم. وشعره رقيق لكنّه مفرّق لم يُجمع في ديوان. فمن قوله أبيات كتبها إلى الشاعر بطرس كرامة والتزم في كل صدورها وأعجازها تاريخاً للسنة المسيحية ١٨٤٤ إلا المصراع الأخير فجعله الأخير هجرياً هذا مطلعُه:

بعثنا إليكم بنتَ رمز من الفكرِ دهاها جووى أعطت به خالص الشعرِ
أمنتم صروع الدهر من قيد حادثٍ شهدتم هلال الأفق من كامل الشهرِ
ميامن ترعى بطرساً في كرامةٍ إلى غاية الدنيا إلى أوحده الدهرِ
هديتم بنور الرب باباً فأرخوا هو الله لا ما زلّ من مشرق الفجرِ
فأجابه بطرس كرامة برسالة طويلة نظماً ونثراً افتتحها بقوله:

عشقتكم من قبل لقيامكم وكلّ معشوقٍ بما يوصفُ
كالشمس لا تدركها مقلّةٌ لكنّها من نورها تعرفُ
وقال الشيخ عبد الحميد يمدح شيخ ناصيف اليازجيّ من قصيدة:

كبشُ الكتائب والكتاب وإنه بالنحر ينطخُ هامة ابن خروفِ
متوقد الأفكار يوشك في الدُّجى يبدو له المستورُ كالمكشوفِ
فطنٌ تمنطق بالفصاحة وارتدى جلبابَ علم النحو والتصريفِ
إلى أن ختمها بقوله وفي البيت الأخير تاريخ السنتين الهجرية والمسيحية (١٢٦٤هـ - ١٨٤٧م)

لا زال محفوفاً بحفظٍ وافٍ والخطُّ مثل الخطِّ بالتصنيفِ

فيه صفا عبد الحميد مؤرخاً ناهيتُ نظمي في مديح نصيفِ
وله خمساً لقصيدة الشيخ ناصيف المهملة فجعل تخميسه مهملًا كقصيدة الشيخ:
وكانت وفاة الشيخ عبد الحميد ابن الصبّاغ (١٢٧١هـ) (١٨٥٤م) فرثاه الشيخ اليازجي
بقصيدة جميلة استهلها بقوله:

لا عين تثبت في الدنيا ولا أثرُ مادام يطلع فيها الشمس والقمرُ
إلى أن قال:

قد كنت انتظر البشري برؤيته فجاءني بغير ما قد كنت أنتظرُ
إن كان قد فات شهدُ الوصل منه فقد رضيت بالصبر لكن كيف أصطبرُ
أحبُّ شيء لعيني حين أذكره دمعٌ وأطيب شيء عندها السهرُ
هذا الصديق الذي كانت مودّتهُ كالكوثر العذب لا يغتالها كدرُ
لا غرو أن أحزن الرواء مسرعهُ فحزنه فوق لبنان له قدرُ

عبد الجليل البصري

هو السيد عبد الجليل بن ياسين البصري ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب ولد في البصرة سنة (١١٩٠هـ) (١٧٧٦م) ثم أرتحل منها إلى الزبارة فسكنها حتى استولى عليها صاحب الدرعية ابن السعود، فسار إلى البحرين وسكن بها إلى سنة (١٢٥٩هـ) (١٨٤٣م) ثم استوطن الكويت وتوفي هناك سنة (١٢٧٠هـ) (١٨٥٤م) واشتهر بالحكم والكرم وكان ذا أدب وعلم وأوّل نظمه قالها مؤرخاً مولد ابنه عبد الوهاب سنة (١٢١١هـ) (١٧٩٦م):

حمدتُ الله أسدى بفضلي	وآلاء تـسـامتُ أن تُضاهي
كريمٌ مَنْ فيمن أضحت	رياضُ القلب مخضراً رباها
وطاب العيشُ وانكشفت همومٌ	كذلك النفس منتقياً عنها
فيامن قد مننتَ بغير من	بمن ساد الورى فخراً وجاها
أدمني فيه مسروراً دواما	وفيه العينُ قر بها كراها
ووفّقهُ لما نرضي وجنّب	هوى الأهواء وأحفظ من غواها
وخيرُ الفالِ قد أرختُ لابني	بطلعته بشيرُ السعد باها

وقال على لسان فقير من أبناء السبيل طلب منه أبياتاً يرتزق بها:

يا ماجداً ساد عن فضلٍ وعن كرم	وهمةً بلغت هام السماء غلا
يا من إذا قصد الراجي مكارمه	نال الأمانى وبراً وافرأ عجلا
إننا قصدناك والآمال واثقة	بأن جودك ينفي فقر من ندلاً
جننا ظمأً وحسن الظنّ أوردنا	إلى معاليك لا نبغي بها بدلاً
لقد أضربنا جور العداة وما	أودى بنا الدهر يا بؤس الذي فعلا

عَسْرٌ وَعُزْبَةٌ دَارِ ثَمِ مَسْكَنَةٍ
نَشْكُو إِلَى اللَّهِ هَذَا الْحَالِ ثَمِ إِلَى
عَسَى نَصَادِفِ مَنْ حَسَنَّاكَ مَرْحَمَةً
وَإِغْنَمِ بِذَلِكَ مَنَّا خَيْرَ أَدْعِيَةٍ
لَا زِلْتَ تَوَلِي جَمِيلًا كُلَّ ذِي أَمَلٍ
وَلَهُ يَذُمُّ آفَاتِ:

الغِيظُ آفَاتٌ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى
مِنْهَا حِجَابُ الذَّهْنِ عَنِ إِدْرَاكِهِ
وَبِهِ يَرَى الْفَطِنُ اللَّيْبُ كَأَنَّهُ
وَبِهِ الْحَلِيمُ إِلَى الْجَهَالَةِ صَائِرٌ
وَبِهِ يُسِيءُ لِدَى الْوَرَى أَخْلَاقُهُ
لَا يَرَعُوِي لِصَحِيحِ قَوْلِ نَصِيحَةٍ
مَنْ حَبَّ طَبَّ بِمَا تَنَاوَلَ عِلْمَهُ

وَذَلَّةٌ وَفِرَاقٌ قَاتِلٌ وَبَلَا
نَدْبٌ جَوَادٍ يَفِيدُ الْقَاصِدَ الْأَمَلَا
تَكُونُ رِفْدًا لَنَا إِذْ نَقَطَعُ السَّبِيلَا
يَزْفُهَُا قَلْبٌ عَافٍ بَاتَ مَبْتَهَلَا
فِي رَفْعَةٍ وَنَعِيمٍ دَامَ مَتَّصِلَا

فَإِذَا اسْتَطَعْتَ لَهُ دِفَاعًا فَاجْهَدِ
أَمْرًا تَحَاوَلَهُ كَأَنَّ لَمْ يُعْهَدِ
مَّمَّا بِهِ الْمَعْتَوَهُ أَوْ كَالْأَبْلَهِ
وَيَهْدُ عَنْهُ بِهِ مَنَارَ السُّؤْدُودِ
حَتَّى يُقَالَ لَهُ لَتَيْمُ الْمُحْتَدِ
وَيَرِي النَّصُوحَ كَعَائِبٍ وَمَفْنَدِ
وَأَخُو النَّبَاهَةِ يَقْتَدِي بِالْمُرْشَدِ

السيد محمد سعيد

كان أبوه محمد أمين الشهير بالمدرّس يعلّم في بغداد العلوم اللسانية ووضع فيها بعض المصنّفات، فلما توفي سنة (١٢٣٦هـ) (١٨٢١م) خلفه ابنه السيد محمد وقلد عدّة مناصب كالنيابة والإفتاء، ثم انفصل وبقي مشغولاً بالتدريس إلى سنة وفاته (١٢٧٣هـ) (١٨٥٧م) وتأليفه منها نحوية، ومنها شرعية، وصفه السيد نعمان أفندي الألوسي بقوله: إنه كان ذا تقوى وديانة وعفة وصيانة لا يغتاب أحداً ولا ينم على أحد أبداً، وكان يشع الخطّ حديد المزاج كثير الوسواس عي الكلام... وكان كثير الصدقات على اليتامى والأرامل. ولما مات رثاه السيد عبد الغفار الأخرس بقوله:

في رحمة الله حلّ شيخ	وجنّة دارها الخلود
تفيض من صدره علوم	وقد طمى بحرّها المديد
ولم يزل ميتاً وحيّاً	من علمه الناس تستفيد
سار إلى ربّه غير فان	بالعزّ وهو العزيز الحميد
ومذ توفاه قلّت أرخ	مضى إلى ربّه سعيد

عبد الباقي العمري الفاروقي

هو أديب العراق عبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي الموصلية، ولد في الموصل سنة (١٢٠٤هـ) (١٧٨٩م) انتهت إليه رئاسة الشعر والأدب في وطنه. تغدّى منذ صغره لبان العلم. وانتدبته الحكومة السنيّة وهو ابن عشرين إلى منصب كتخدا ووكيل الوالي فرافق القاسم باشا وعلي باشا إلى بغداد، وقام بأعباء رتبته أتمّ قيام، وكذلك سار بالعساكر الشاهانيّة إلى قبيلتي الزكرت والشمرت في النجف فقصّ جناح الفتنة بينهما بحسن درايتهما، وعاد إلى بغداد مقروناً باليُمن والإسعاد ونال الخطوة من الدولة العلية. ثمّ إلى الكتابة والآداب فشاع نشره الرائق وشعره الفائق فألف التأليف التي أحرز بها قصب السبق من مضمار أدباء العراق وفاز بين فصحاءهم بالقده المعليّ. وكانت وفاته سنة (١٢٧٨هـ) (١٨٦١م) قيل: إنّه أرّخ نفسه في عام مماته ببيت كتب على قبره:

بلسان يوجّد الله أرّخ ذاق كأس المنون عبد الباقي
أما تأليفه فكلّها ناطقة بفضله وتوقّد فهمه منها ديوان أهلة الأفكار في مغاني الابتكار
وكتاب نزّهة الدهر في تراجم فضلاء العصر وكتاب الباقيات الصالحات وكتاب نزّهة الدنيا
أودعه تراجم بعض رجال الموصل في القرن الثاني عشر والثالث عشر، وله ديوان شعر يسمّى
بالترياق الفاروقي من منشآت الفاروقي طبع مرّة بمطبعة حسن أحمد الطوخي سنة (١٢٨٧)
بمصر في ٣٣٦ صفحة، ثم أعاد طبعه الشيخ عثمان الموصلية بعد توسيع أبوابه وتكملته سنة
(١٣١٦) في ٤٥٦ صفحة. وهانحن نذكر بعض نتف من شعره تنويهاً بعلو مقامه في الآداب،
قال يؤرّخ جلوس السلطان عبد العزيز وأجاد:

للتلغراف الفضل إذ جاءنا يقول بشراكم بلفظٍ وجيز
قد أحرزت ملّتكم أرّخوا هزاً بظل الله عبد العزيز
وقال في التشبيه:

كَأَنَّ ضَوْءَ الْبَدْرِ فِي دَجَلَةً حِينَ يَشْرُقُ
وَالْمَوْجُ فِي أَثْنَائِهِ مِنْهُ الْعُبَابُ يَخْفُقُ
قِرَاضَةً مِنْ ذَهَبٍ طَفَا عَلَيْهَا الزَّبَقُ

وقال في فتح الدولة العلية لحصن سيوستبول مع دولتين الفرنسية والإنكليزية:

أَقُولُ الْمَدُولَ الْمَنْصُورَ عَكَرَهَا لَا زَالَ عَكَرَهَا بِاللَّهِ مِنْ صُورَا
لَمَّا اتَّفَقْتُمْ عَلَى صَدَقِ الْمَحَبَّةِ فِي مَا بَيْنَكُمْ وَاتَّحَدْتُمْ صِرْتُمْ سُورَا
بَسْطُورَةٌ دَعَتْ الْأَطْوَادَ رَاجِفَةً دَمَّرْتُمْ مَحْصَنَاتِ الرُّوسِ تَدْمِيرَا
مَدَافِعُ غَطَّتِ الدُّنْيَا غَمَائِمَهَا فغَادَرْتِ صَبْحَ يَوْمِ الْحَرْبِ دِيْجُورَا
أَفْوَاهُهَا دَامَتْ الْمَنَارَ الْأَسْنَةَ فَقَرَّرْتِ دَرَسَ مَلِكِ الرُّوسِ تَقْرِيرَا
رَعْدٌ وَبَرْقٌ وَغَيْمٌ مِنْ سَدَى وَلِظَى وَمَنْ دَخَانَ أَعَادَ الْكُونَ مَمْطُورَا
أَقْلَهُمْ فَرَّ لِمَا فَرَّ أَكْثَرَهُمْ لِكُونِهِ بَاتَ مَقْتُولًا وَمَأْسُورَا
وَالسِّيفُ غَنَى عَلَى هَامَاتِهِمْ طَرِبًا حَتَّى حَسَبْنَاهُ فَوْقَ الْغَصْنِ شَحْرُورَا
غَادَرْتُمْ الْبِرَّ بَحْرًا يَسْتَفِيضُ دَمَا وَالْبَحْرُ بَرًّا عَلَى الْأَشْلَاءِ مَعْبُورَا
سَبُوسْتَبُولَ التِّي أَعَيْتُ مَعَاقِلَهَا سَخَّرْتُمْ حَصْنَهَا أَرْخَتْ تَسْخِيرَا

(١٢٧١هـ)

وله مشطراً أبياتاً منسوبة لأبي نصر الفارابي الفيلسوف الشهير:

كَمَلْ حَقِيقَتَكَ التِّي لَمْ تَكْمَلِ وَعَنْ ارْتِكَابِ النِّقْصِ كُنْ فِي مَعزِلِ
وَإِبْغِ لِنَفْسِكَ مَا تَرْقِيهَا بِهِ (وَالجِسْمَ دَعَهُ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ)
أَتَكْمَلُ الْفَانِي وَتَتْرِكُ بَاقِيَاً تَكْمِيلُهُ أَوْلَى بِحَقِّ الْأَكْمَلِ
فَهُوَ الَّذِي لَا يَنْبَغِي لَكَ تَرْكُهُ (هَمَلًا وَأَنْتِ بِأَمْرِهِ لَمْ تَحْفَلِ)
فَالجِسْمُ لِلنَّفْسِ النَّفِيسَةِ آلَةٌ تَقْضِي الْمَرَامَ بِهَا إِذَا لَمْ تَكْسَلِ

ولكم عليها من حقوقٍ للعلا
(يفنى وتَبْقَى دائماً في غبطةٍ)
وسعادة أبديةٍ لا تنقضي
(أعطيتَ جسمك خادماً فخدمتهُ)
وجعلتَ من هو فوقه من دونه
(شركٌ كثيفٌ أنتَ في حبلاته)
منهُ وأنتَ بهِ بأيّةِ حالة
(من يستطيع بلوغَ أعلى منزل)
ويرى الثريّاً تحت أخص رجله
ولعبد الباقي الفاروقي مع أدباء زمانه مراسلات لطيفة فمدحوه ومدهم بقصائد لا تحصى،
وكثير منها يتضمن الطرف المستطرفة، وهذه أبيات قالها في تقرّظ مقامات مجمع البحرين
للشيخ ناصيف اليازجي أولها:

عُرِّرْ أم دُرِّرْ مكنوننةٌ
إلى أن قال:

قد أتتني تتقاضى دينها
بمزاياها العقول ارتسمت
وتجلّت صور العلم بها
وعلى الإحسان والحسن معا
رحتُ من راحة معناها ومن
ياله قاموس فضلٍ قد طوى
وكان مدحه سنة (١٢٦٤هـ) (١٨٤٨م) بقصيدة بائية يقول فيها:

أبلى النوى جسدي النحيفَ كأنني
قلمٌ بدا بيدي نصيف الكاتبِ

حَبْرٌ حَلا في حِبْرِهِ قِرطاسُهُ
كَالتَبْرِ لَمَّا لَاحَ فووقَ تَرائِبِ
فَسطورُهُ وطَروسُهُ في حَسَنها
حَاكَت سِماءَ زُينَت بِكواكِبِ
وختَمها بِقولِه:

لوقمتُ طولَ الدهرِ أنشدَ مدحَهُ
وبمدحِهِ العَمَريُّ أبَ مؤرِخا
بينَ الأنامِ فلمَ أقمَ بالواجِبِ
ترتيبَ مدحِي في نَصفِ الكاتِبِ
فقالَ الشِخِ ناصِيفَ يَجيبُه بِقصيدَةٍ منَ البحرِ والقافية:

أحسنتُ في قولٍ وفعلٍ بارعا
أنتَ الَّذي نالَ الكِمالَ موفِّقا
وإذا نظمتَ فأنتَ أبلغُ شاعرٍ
وإذا نظرتَ فعنَ شهابٍ ثاقِبِ
هذا رسولٌ لي إليكَ ولِيتنِي
ومنَ أقوالِ الفاروقيِ وصفه للتغراف:

خطُ التغرافِ حروفُ جَرٍ
ويلفظها بغيرِ فَمٍ ولكِنِ
يجيءُ بها منَ الغورِ البعيدِ
بألسنةٍ حادٍ منَ حديدِ
وقد هناهُ بطرسِ كرامةٍ برتبته الكتخداوية بقصيدة مطولة يقول فيها:

الشاعر الفرد الذي أهدى لنا
دُرُّ بجيدك أم حباك قلائدا
دُرُّ البُحورِ نُظْمَنَ في الأوراقِ
من شعره العَمَريُّ عبد الباقي
قرن الحجى بمحاسن الأخلاقِ
جمعَ الفصاحة بالبلاغة مثلها

محمود قبادو

هو الشيخ السيد أبو الثناء محمود قبادو الشريف. كلف بإحراز الآداب فنال منها نصيباً وافراً. وكانت له ذاكرة عجيبة لا ينسى شيئاً مما سمعه، قيل: إنه سمع يوماً رسالة فرنسية وهو لا يعرف تلك اللغة فأعادها بحرفها. وكان متضلماً بكل علوم العرب، لكنه برز في الشعر وكان يقوله بديهياً. وله ديوان شعر في جزأين جمعه تلميذ الشيخ عبده محمد السنوسي فطبعه في تونس (١٢٩٣هـ - ١٢٩٦م). توفي السيد محمود ولم يدرك الخمسين من عمره نحو السنة (١٢٨٨هـ) (١٧٨٠م). وكان بينه وبين الكنت رشيد الدحداح صداقة ومراسلات. وقد روى له الشيخ رشيد بعض الآثار الدالة على فضله من ذلك تشطيره لقصيدة بشر بن عوانة في مبارزة الأسد بعد أن افتتحها بأبيات حسنة يقول فيها:

أفاطم هل علمت مضاء عزمي ومطمح همتي نخواً وكبرا
وَجُودِ يَدِي وَإِقْدَامِي وَبِأَسِي وَلَا أَعْصِي لِباغِي العُرفِ أمرا
تَلِينِ لِمَنْ يَسالمني قناتي وتصلب أن يرم ذو الغمز هَصرَا
وَأني لا أَعُدُّ الووفرَ دُخرا ولكني أَعُدُّ الذُكرَ دُخرا
ثم يليها التشطير الذي هذا أوله:

(أفاطم لو شهدت لبطن خبتِ) لهانت عندك الأخبارُ خُبرا
ولو أشرفتِ في جنحِ عليه (وقد لاق الهزبرُ أخاك بشرا)
(إذا لرأيتِ ليثاً رام ليثا) وكلٌّ منهما بأخيه مُغرى
يرى كلٌّ على كل ثقة أخاه (هزبراً أغلباً لا في هزبرا)
فكاد يريبه فيخال مني (محاذرةً فقلتُ عُقرتُ مهرا)

ومن نظمه قصيدة دالية قالها تهنئة للسلطان عبد المجيد سنة (١٢٧٦هـ) (١٨٥٦م) ضمنها
عدداً وافراً من التواريخ وتفنن فيها على طرائق عجيبة. ومن مديحه قوله في الكنت رشيد:

فيا مخبراً لاحت بمراة طبعه خبايا طباع الدهر فهي له تبدو
بقيت رشيداً طبق وسمك مرشدا مهيأ من كل الأمور لك الرشد

جبرائيل المخلع

هو جبرائيل بن يوسف المخلع ولد في دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وتفقه في العلوم العربية والتركية والفارسية، ثم سافر إلى مصر وبقي فيها مدة يتنقل في دواوين الإنشاء في الإسكندرية، ثم عاد إلى دمشق ومات نحو السنة ١٨٥١. ومن مآثره ترجمة كتاب شهر عند العجم يسمى الجلستان أي روضة الورد لصالح الدين السعدي. عربته تعريباً متقناً بالنظم الرائق والنثر المسجع المنسجم، ثم طبعه سنة (١٨٤٦ م) في بولاق.

١ - حكاية: نظرت أعرابياً في حلقة الجوهرية بالبصرة، وهو يقول: اسمعوا يا ذوي النقد والخبرة، كنت ضللت في الصحراء طريق الجواز، ولم يبق معي من معنى الزاد ولا المجاز، فأيقنت بالهلاك، وسمحت له بالفؤاد إذ ذاك، فبينما أنا في البداء اقتضى الضر، وإذا بي وجدت كيساً ممتلئاً بالدر، فلا أنسى ما علاني من الفرح والمسرة، إذ توهمت أن أجد قمحاً مقلباً في تلك الصرة، فلما تحققت فيه وعانيت الدر والملس، دهشت من الفم الذي لا يبرح عن الفكر بحلول اليأس.

في يابس البید أو حرّ الرمال فما لظامی القلب یُغنی الماسُ والصّدْفُ
العامد الزاد إذ تهوی به قدمُ له استوی الذهبُ المکنوزُ والخزْفُ
٢ - حكاية: كان بعض العرب يُنشد من شدة الظمأ، وقد علا عليه حرُّ البادية وحمي:

یا لیت قبل منیتي یوماً أفوزُ بمُنیتي
نهرًا یلاطم رکتی وأظللُ أملاً قُربتی

٣ - حكاية: كذلك ضلّ في قاع البسيطة بعض السفّار، ولم يبق معه قوتٌ ولا قوة اقتدار، ما خلا يسراً من الدراهم قد ادّخره في وسطه ولم ينفقه في الضيق، ولا اهتدى بعد أن طاف

كثيراً إلى الطريق، فهلك بالمشقة، وبعد المشقة، فمرَّ عليه طائفة من الناس، فوجدوه قد وضع الدراهم عند الرأس، وخط على التراب من عدم القرطاس:

جميعُ نُضارِ الجعفريِّ لمن خلا عن الزادِ لا يغنيه شيئاً من الضرِّ
ومن يحترق في الفقر فقراً فإنه له السلجمُ المطبوخُ خيرٌ من التبرِّ
وفي تقرُّبِ ترجمة هذا الكتاب قال شهاب الدين الشاعر المصري:

كواكبٌ أشرقَتْ تزهو بأنوارِ أم لاحت لي روضُ أزهارِ وأنوارِ
كلابِلُ الألمعيِّ اللوذعيِّ بدا منه بدائعُ أسجاعِ وأشعارِ
زهتُ معاني جليستانِ البديعةِ في ماصاغِ من عربيِّ اللفظِ للداري
لا غرو أن جاءَ جبريلُ الكريمُ بما مقرأهُ حيثُ يُتلى يعجبُ القاري
معربٌ عبَّرت عنه براعتهُ عبارةً أظهرتهُ أي إظهارِ
متشورهُ دررٌ في سَمْطِهِ نُظمت نظماً بلاغتهُ جاءت بأسرارِ
وإذ زها حسنهُ بالطبعِ مبتهجاً أرختُ أزهى بهيجِ روضِ أزهارِ

عبد الغفار الأخرس

هو السيد عبد الغفار لابن السيد عبد الواحد من مشاهير شعراء العراق كان مولده في الموصل السنة (١٢٢٠هـ) (١٨٠٥م) ثم أنشأ في بغداد واتخذها موطناً وسكن جانب الكرخ وقرأ على الشيخ الألوسي كتاب سيبويه فأعطاه به إجازة. ثم درس العلوم العقلية والفنون العربية فأتقنها وتعاطى فن الشعر فأجاد به كل الإجازة حتى أن صاحب كتاب المسك الأذفر قال عنه: إن إليه كانت النهاية في دقة الشعر ولطافته وحلاوته وعضوبته. وكان مع ذلك في لسانه تلعثم وثقل، فدعي بالأخرس لسببه. قيل إنه في شبابه كتب إلى داود باشا والي العراق أبياتاً يسأله فيها أن يأمر بمعالجة لسانه قائلاً:

إن أياديك منك سابقةً عليّ قدماً في سالفِ الحُقبِ
هذا لساني يعوقه ثِقَلٌ وذاك عندي من أعظم النُوبِ
فلو تسببت في معالجاتي لَنَلتَ أجراً بذلك السببِ
وليس لي حرفة سوى أدبٍ جمٌّ ونظم القريض والخطبِ
من بعد داود لا حُرمتُ منىً فقللت قد مضت دولة الأديبِ

فأرسله الوالي إلى بعض أطباء الهند فقال له: أنا أعالج لسانك بدواء إما أن ينطلق وإما أن يلحقك بمن مضى من سالف الجدود. فأبى ولم يرض بدوائه وقال: لا أبيع كلي بيعضي وكرّ راجعاً إلى بغداد. وكان يتردد إلى البصرة لما عرف في عرف أهلها من السخاء ومحبة الغرباء. وله مدائح في أكثر أعيانها وفضلاتها، وبها كانت وفاته سنة (١٢٩٠هـ) (١٨٧٣م) كما ورد في مقدمة ديوانه، وفي سنة ١٢٩١ على رواية السيد نعمان الألوسي. وكان له شعر كثير متفرق جمعه أحمد عزت باشا العمري بعد وفاة صاحبه وسماه الطراز الأنفس في شعر الأخرس. وقد طبع هذا الديوان في مطبعة الجوائب سنة (١٣٠٤هـ) (١٨٨٦م)،

فمن شعره قوله يصف سفره من البصرة إلى بغداد على سفينة بخارية:

وبلغنا به أقاصي الأماني
 فهي مثل الأفلاك بالدوران
 مس لإسراعنا على الطيران
 والذي فيه كائن في أمان
 قَرَّبَ السَّيْرُ بُعْدَ كُلِّ مَكَانٍ
 وَصَفَوْهُمْ بِدَقَّةِ الْأَذْهَانِ
 بقيت من بقيّة اليونان
 ما وجدناه في قديم الزمان
 عاجزٌ عنها صاحب الإيوان
 ومقامٌ يعلو على كيوان
 وقد نظم السيد الأخرس قصائد عديدة في مدح أديب العراق عبد الباقي الفاروقي. ورثاه

قد ركبنا بمركب الدخان
 حيث دارت أفلاكه واستدارت
 ثم سرنا والطير يحسنا بالأ
 يخفق البحر رهبة حين يجري
 كلما أبعده البخار بمسرى
 أتقنت صنعه فطانة قوم
 ما أراها بالفكر إلا أناسا
 أبرزوا بالعقول كل عجيب
 وبنوا للعلا مباني علا و
 فلهم في الزمان علم وفخر
 بعد موته بقصيدة أولها:

إذ لا تلاقى بعد طول فراق
 مني ولا متعرّضاً لشقاق
 وجوانحي للبين في إحراق

مالي أودّع كل يوم صاحباً
 وأصارم الأحاب لا عن جفوة
 فارقتهم ومدامعي منهلة
 إلى أن قال:

وأجلّها فضلاً على الإطلاق
 عنه الثقّات مكارم الأخلاق
 ومناط فخري وارتياذ نياقي
 متناً هي الأطواق في الأعناق

فارقت أذكى العالمين قريحة
 وفقدت مستند الرجال إذا روت
 قد كان متجععي وشريعة منهلي
 كانت له الأيدي يطوقني بها
 وختمها بقوله:

رزء العراق بموت عبد الباقي

رزء أصيب به العراق فأرخوا
 .(١٢٧٨)

وقال مودعاً بعض الكرام اسمه يوسف:

مولاي قد حان الوداعُ
كم زرتُ حضرتك التي
ورجعتُ عنك بنائِلِ
واللهُ يعلمُ أننبي
يا مفرداً في عصره
يا يوسفُ البدرُ الذي
مالي بغيرك حاجةٌ
وسواك يا مولاي لا
ما كلُّ وِدادٍ يفـو
لا زلتُ أهلاً للجميـ

وقد عزمتُ على المسيرِ
ما زلتُ منها في حـورِ
غمـر وبـالخيرِ الكثـيرِ
عن شكر فضلك في قـصورِ
بالفضل معدوم النظرِ
يسمو على البدر المنيرِ
كغنى الخطير عن الحقيرِ
والله يخطـرُ في ضمـيري
زبـمـورد العذب النميرِ
لـمدى الليالي والشهورِ

ومما لم نجده في ديوانه تحميس قالها عبد الباقي العمري في قاض جائر:

ألا قطع الرحمن كل مُقاطعٍ
وراض بظلم طامع غير قانعٍ
مضراً بما يقضى به غير نافعٍ
وقاضٍ بجورٍ ماله من مضارعٍ
على أنه بالعسفِ أقطعُ من ماضٍ

فكم قد جنى في حكمه من جنايةٍ
فلا رُدَّ قاضٍ ما اهتدى لهدايةٍ
وقد راح في غيٍّ له وغوايبةٍ
قضى ومضى لكن إلى كل غايبةٍ

من الخزي لا يحظى بها أبداً قاضٍ

بلينا بقاضٍ جائرٍ غير عادلٍ
ومن أعظم البلوى بلاءً بجاهلٍ
يجورُ بحكمٍ قاصرٍ غير طائلٍ
يقولونُ يقضى قلتُ لكن بباطلٍ
وقالوا يقصُّ الحقُّ قلتُ بمقراضٍ

الحاج عمر الإنسي

ولد الإنسي سنة (١٢٣٧ هـ) (١٨٢٢ م) في بيروت وأخذ العلوم عن الشيخين محمد الحوت وعبد الله خالد، وقد قلدته الحكومة السنوية عدة مناصب كمنظارة النفوس في لبنان وعضوية مجلس إدارة بيروت ومديرية حيفاء ونيابة صور وبقاع العزيز، تقلب فيها كلها وأظهر فيها دراية وعفة نفس وعلو همة.

كانت وفاته في وطنه سنة (١٢٩٣ هـ) (١٨٧٦ م). وقد وصفه من عرفه بحسن الشعر وأنس المحضر والصدق والاستقامة. وكان فصيح اللفظ طلق اللسان حسن النظم، وله مصنفات منها ديوان شعره الموسوم بالمورد العذب، طبع في بيروت سنة (١٠١٣ هـ) (١٨٩٥ م) بهمة نجله السيد عبد الرحمن. وقد كان بينه وبين الشيخ ناصيف اليازجي مكاتبات. ومما مدحه به الشيخ قوله من أبيات:

وإذا أردتَ قـــــــصيدةً	فيه لها عمراً ونم
الشاعرُ العري ذو الــــ	غُرر التي سبّت العجم
في المكْرُمات له يــــدٌ	وإلى الصوابِ له قــــدم
ولله مناقبٌ لا تُنــــا	ل كأنها صــــيْدُ الحــــرم

وهذه نبذة من أقوال الحاج عمر. قال في التقى:

عليك بتقوى الله والصدق إنمّا	نجاهُ الفتى يا صاح بالصدقِ والتقى
وقسْ حالَ أبناء الزمان بضده	ترَ الفرق ما بين السعادة والشقا

وقال في الزهد:

رغبتُ عن الدنيا وزُخرفِ أهلها	وقلتُ لنفسي إنما العيشُ في الأخرى
فدعني وزهدي في الحطامِ فإنني	أرى الزهدَ في الدنيا هو الراحةُ الكبرى

ومن ظريف هجوه ما قاله في غلام قهوجي يُدعى هلالاً:

تعس الهلالُ القهوجيُّ لأنهُ قد قطَّعَ الأنفاسَ من أنفاسِهِ
هذا الهلالُ هو الهلاكُ وإنما غلطوا فلم يضعوا العصا في رأسِهِ
أراد بالعصا الشطبة التي تُرسم في رأس الكاف / ك (الشيبة باللام) / ل.
وقال يهجو ثقيلاً كان لا يزال يذكر ذنوبه:

شكا ثَقَلَ الذنوبَ لنا ثَقِيلٌ فقلتُ لَهُ استمعَ لبديعِ قبلي
ثلاثَ بالتناسبِ فيكَ خُصَّتْ فلم توجدِ بغيرِكَ من مثيلِ
ذنوبك مثل روحك ضمنَ جسمِ ثَقِيلِ في ثَقِيلِ في ثَقِيلِ
ومن رثائه قوله في مارون النقاش لما توفي في طرسوس سنة ١٢٧١هـ
من أبياتٍ:

فقدنا أديباً كان طرسُ يراعِهِ إذا خطَّ سطراناً نال من خطهِ شطرا
أخا شيمٍ قد أعجزتُ عن مديحها لساني فأمسى لا يُطيق لها شكرا
وما كنتُ يا مارونُ قبلك زاعماً بأن الثرى عن أعيني يجبُّ البدرا
فكم لك من آداب لطف شمائلِ إذا ما نشرنا ذكرها نفحتُ نشرها
وكم لك من أبيات شعرٍ حرّيةٍ بها أن تحلّي جيدها الغادة العذرا
ألا يا بني النقاش لا يحزننكم بكأ وسَّع الأجنانُ أو ضيق الصدرها
أرى الدهر لما قسَّم الحزنَ حصَّنا بتسعة أعشارٍ ومملكم عشرا
فأسف لو كان التأسف نافعاً عليه ولكنَّ الثناء له أحرى
الألوسيان عبد الله وعبد الباقي

وفي هذه المدة قضى اثنان من الألوسيين نحبهما في العراق. وهما أبناء السيد العلامة شهاب محمود أفندي الألوسي أعني عبد الله وعبد الباقي. فالسيد عبد الله بهاء الدين أفندي ولد سنة (١٢٤٨هـ) (١٨٣٢م) فقال السيد عبد الغفار الأخرس مؤرخاً لولده:

ليهئتكَ يا تحريرَ أهل زمانه ويا كاملاً عنه غدا الطَّرْفُ قاصرا
بطفلٍ ذكيٍّ قد أتاك وإِنما يضاهيك بالأخلاق سرّاً وظاهرا
وبشّرني فيه فقلتُ مؤرخا بولد عبد الله نلتَ البشائرا

فلما ترعرع أخذ العلوم عن والده إلى أن أصيب بوفاته وهو إذ ذاك بين اثنتين وعشرين سنة
فجزع لموته. ثم انكب على الدرس واجتمع ببعض أفاضل وطنه فما لبث أن فاقهم وأقبل على
التدريس فحصل بعد حين على شهرة واسعة وانتظم في سلك أهل الطريقة النقشبندية. ثم بلي
بأنواع الأسقام فخرج من وطنه قاصداً الأستانة العلية لكن أشقياء العربان نهبوا أثقاله فعاد
إلى بغداد صفر اليمين. وفي آخر أمره تولى القضاء في البصرة فأكرمه أهلها وعرفوا قدره لولا
أنه تأذى بحمياتها القتالة فخرج منها بعد سنتين ولسان حاله ينشد مع معاصره الشيخ صالح
التميمي:

ومتى تسيّر ركائبى عن بلدةٍ أبداً أقام فناؤها بفناها
لا فرق بين شمالها وجنوبها وقبؤها ودبورها وصبأها
ما إن تحركت الغصون بأرضها إلا تحرك في الجسم أذاها
أشجارها خضرٌ وأوجه أهلها صفرٌ محاسفُ السقام بهاها
لولا قضاء الله حتمٌ واجبٌ أبت المروءة أن أدوس ثراها

فما وصل إلى بغداد حتى مات بعد أيام (١٢٩١ هـ) (١٨٧٤ م) وله من العمر ٤٣ سنة،
وكان السيد عبد الله كثير التدين لين الجانب محباً للفقراء لا يأنف من مخالطتهم. وقد امتاز
بحسن نثره وجزالة تعبيره. ومن تأليفه رسائل ومقالات مفيدة وشروح في علمي المنطق
والبيان وألف كتاب الواضح في النحو وكتاباً في آداب الصوفية.

أما أخوه فهو السيد سعد الدين عبد الباقي وقع مولده سنة (١٢٥٠) فأرخه الشاعر عبد
الحميد الأطرقي:

طرباً بمن سرّ الورى ميلاده وسرى نسيم اللطف في الأفاق
يا سادتي بشرأكم فيمن بدا متخلقاً بمكارم الأخلاق

فرداً أتى وبه استعنتُ مؤرخاً تَمَّ السرورُ لكم بعبد الباقي
أخذ عن والده كأخيه ثم عن الشيخ عيسى البندبيجي وزار الحجاز وتولى القضاء في
كر كوك مركز ولاية شهرزور، ثم في بتليس وسافر إلى دار السعادة. وله عدة مصنفات أخصها
القول الماضي فيما يجب المفتي والقاضي وأوضح منهج في مناسك الحج الذي طبع في مصر،
وأسعد كتاب في فصل الخطاب وغير ذلك مما يشهد له برسوخ القدم في المعارف. توفي في مصر
سنة (١٢٩٨هـ) (١٨٨١م).

أبو النصر علي

ولد في منفلوط وفيها كانت وفاته سنة (١٢٩٨ هـ) (١٨٨١ م) نظم الشعر في مقتبل الشباب وأصبح من فرسان ميدانه فنما خبره إلى خديوي مصر إسماعيل باشا فقدمه وأجازه، ولأبي النصر عدة قصائد غرّاء فيه وفي أمراء الدولة الخديوية، وقد وافق إسماعيل باشا لما رحل إلى الأستانة، ثم مدح بعده الحضرة التوفيقية. ولأبي النصر ديوان كبير طبع في مطبعة بولاق سنة (١٣٠٠) ضمنه أقوالاً منتخبة في كل أبواب البلاغة ومعاني الشعر. ومن حسن شعره قوله يصف سفرة الحضرة التوفيقية إلى الصعيد سنة (١٢٨٧ م):

زار في موكبٍ كعقد اللآلي فازدهى بالقدم صفو الليالي
إلى أن قال:

فازدهى رونق الصعيد جمالا وتخلّلت أرجاؤه بالحلّال
وروى النيل عن رواه حديثا يشرح الصدر شرحه في المقال
حيث دقت بالشاطئين طبول والأهالي تفوق عدّ الرمال
وتلافوا بضمير سابقات فترى الليث فوق ظهر الغزال
وتوالوا في سيرهم فأضاءت حلية البيض بين سمر العوالي
وجميع البلاد أيدت سرورا ناشرات أعلامها بابتهاال
نسأل الله عصمةً ونجاحا وبقاء له وحسن مآل
ومن أقواله يعاقب دهره:

إلام تصوب الأوهام غيا وتنشر ما طواه الرشد طيا
أبعد الحق تُتنظر الأماني ويُفرض ميّت الآمال حيا

إذا كنا مع الأحياء موتى
شربت من الأسى عللاً ونهلاً
وكم جبت المهامه كي الأقي
فذاك أراه مختالاً فخوراً
وقال يصف الأمانى الباطلة:

بلوت الأمانى وجربتها
تريك البعيد قريباً كما
فلا تتخذها سبيلاً إلى
فإن الأمانى خيالٌ يمرُّ
وغاية ما ينتج من منهاها
ومن أقواله الحماسية قوله:

أرى دولة الأيام خائنة العهد
وما بالها تجني على كل ماجدٍ
ترينا محبباً باسم الثغر ظاهراً
تمر فتحلوا للغبيي ومن درى
أعدت لحربي جندها فلقيتها
واستقبل الأخطار بالبشر لا هيا
وإن ضاق ميدان المخاوف لم أكن

فهياً نلحقُ الأموات هياً
فزدتُ صدىً وما ألفتُ رياً
بمُتجمعي جواداً أو تقيماً
وهذا قصده يُدعى ولياً

فألفت فيها عجيب العجائب
تريك انقياد الأمير المهاب
بلوغ المرام ودع ما يُعاب
على من نخيل مر السحاب
تصور لخلاف الصواب

مراوغةً تصبو إلى الخلف في الوعد
كأن لها ثاراً على دولة المجدي
ولكن لها قلب مصر على الحقد
تجرعه كأس المرار على عمد
بقوة جاش دونها قوة الصلدي
بدون اكراتٍ مازج الهزل بالجد
حريصاً على حب الحياة ولا أفدي

ولأبي النصر رحلتان إلى القسطنطينية كانت الأولى في أيام السلطان عبد المجيد موفداً من محمد علي الكبير وأنشد حينئذ شيخ الإسلام قوله يمدح القسطنطينية:

وكنّا نرى مصر السعيدة جنّةً ونحسبها دون البلاد هي العليا

فلَمَّا رَأَى دَارَ الْخِلاَفَةِ عَيْنُنَا عَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّهُا لَهِيَ الدُّنْيَا
وكانت رحلته الثانية مع الخديوي إسماعيل باشا وصادف دخولهما الأستانة يوم عيد
جلوس السلطان عبد العزيز سنة (١٢٨٩هـ) (١٨٧٢م) فقال أبو النصر يمدح الحضرة
السلطانية بقصيدة مطلعها:

تَبَسَّمَتِ الْأَزْهَارُ عَنِ لَوْلُؤِ الْقَطْرِ فَفَاحَ شَذَاهَا فِي الْحَدَائِقِ كَالْعَطْرِ
ومنها في مدح السلطان:

أَفَادَ الْعَلَا جَاهًا وَعَزَا مُؤَبِدًا وَأَبْدَى لِأَعْلَامِ التَّقَدُّمِ مَظْهَرًا
وَأَحْيَا لِأَحْيَاءِ الْعَلَى كُلِّ دَارِسٍ وَجَدَّدَ فِي عَهْدِ قَرِيبٍ بَوَآخِرًا
بَرَوْنَقَهَا تَكْسُو الْفَخَّارَ مَهَابَةً لَهُ مِنْ رِجَالِ الْحَرْبِ جَيْشٌ عَرْمَرَمٌ
مَدَافِعُهُمْ شَمُّ الْأَنْوْفِ عَلَى الْعَدَى وَأَسْيَافُهُمْ فِي السَّلْمِ يَحْلُو صَيَاثُهَا
وختمها بهذا التاريخ:

وَهَا إِنْ فِي الْبُشْرَى أَقْوَلُ مَوْرَخَا جَلُوسُكَ عِيدَ الدَّهْرِ أَمَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ

محمود صفوت

من معاصري أبي النصر على وطنيه محمود أفندي صفوت بن مصطفى آغا الزيلع الشهير بالساعاتي ولد بالقاهرة سنة (١٢٤١) وبها توفي سنة وفاة أبي النصر (١٢٩٨هـ) (١٨٨١م) لزم الآداب واشتهر بنظمه ونثره حتى عد فيهما من المقدمين. وتوجه إلى الحجاز ودخل على أمير مكة الشريف محمد بن عون فأكرم مشواه وأبقاه عنده إلى آخر إمارته، ثم سافر إلى القسطنطينية وعاد بعد ذلك إلى وطنه، وفيها قضى بقية حياته. ولمحمود أفندي صفوت ديوان شعر نشر بالطبع في مصر سنة (١٣٢٩هـ) (١٩١١م). فمن ذلك قوله يفتخر:

وَلَع الزمانُ وأهلُهُ بَعداوتي إِنَّ الكرامَ لها اللثامُ عداؤُ
أحطُّ قَدوري الحادِثاتُ وهَمَّتِي ومَن دونها المَرِيخُ والجوزاءُ
هيهات تَهضمُ جانبي وعزائمي مثل البواتر دأبها الإمضاءُ
صبراً على كيد الزمان فإنها يبدو الصباحُ وتنجلي الظلماءُ
وله في رثاء أحد العلماء:

بكت عيون العلاء وانحطَّت الرُّتْبُ ومزَّقت شملها من حزنها الكتُبُ
ونكسَّت رأسها الأقالِمُ باكيَةً على القراطيس لَمَّا فاحت الحُطْبُ
وكيف لا وساء العلم كنت بها بدرأً تماماً فحالت دونك الحُجْبُ
يا شمسَ فضلٍ فدتك الشهبُ قاطبةً إذ عنك لا أنجمٌ تُغني ولا شهبُ
لما أصابك لا قوسٌ ولا وترٌ سهمُ المنية كاد الكون ينقلبُ
ما حيلة العبدِ والأقدارُ جاريةً العمرُ يوهبُ والأقدارُ تنتهبُ

صالح مجدي بك

وفي السنة ذاتها (١٢٩٨هـ) (١٨٨١م) توفي أديب آخر من نوابغ كتبة مصر السيد صالح مجدي بك. ولد في رجوان من مديرية الجيزة سنة (١٢٤٢هـ) (١٨٢٦م) وبعد أن تلقى مبادئ العلوم العربية ودرس اللغة الفرنسية أحقه أستاذه رفاة بك الطهطاوي بقلم الترجمة، ثم عهد إليه بتدريس اللغتين العربية والفرنسية في المدرسة الهندسية الخديوية، وعهدوا إليه تعريب كتب علمية للفرنج فعرب منها عدداً وافراً في رسم الأمكنة والطبقات الجيولوجية والميكانيكيات والحساب والجبر والهندسة والفلكيات والفنون الحربية كبناء الحصون ورمي القنابل إلى أن تولى رئاسة الترجمة وجعله إسماعيل باشا في المعية السنية وولاه مناصب أخرى، وكان آخر ما عهد إليه قضاء القاهرة فلزمه إلى وفاته.

كان صالح بك يحسن الإنشاء وفنون الكتابة وقد نشر مقالات عديدة اجتماعية وسياسية وأدبية في جرائد مصر كروضة المدارس والوقائع المصرية. واشتغل بتأليف مطول لتاريخ مصر مع علي باشا المبارك، وله ديوان شعر واسع طبع في بولاق سنة ١٣١٢هـ.

ومن شعر السيد صالح بك مجدي قوله سنة ١٢٨٩هـ يهنئ جناب الخديوي إسماعيل باشا عند رجوعه من الأستانة:

مع النصر وافي من عليه المعوّل	ومن هو في أيامه الغرّ أوّل
ومن هو للأوطان والملك والملا	ملاذٌ وحصنٌ لا يُرامٌ وموئلٌ
ومن تملأ الدنيا مهايئُهُ التي	بها الأسدُّ في آجامها تتجدلُ
ومن فاض من يمناهُ ماءٌ سماحةٌ	فأحيا بلاداً أهلها قد تمولوا
ومن شاد أركان المعالي بهمةٍ	يقصّرُ من إدراكها متطوّلُ
وقد جاءت البشرية بذاك فزُينت	لمقدمة مصرٍ وفازَ المؤملُ

وأثنت على دار الخلافة عند ما
فَعَش ما تشا في دولة أنت ربها
وقد قلت في يوم القدوم مؤرخا
وقال من قصيدة يهنته بها في أول العام:

بالبشر في مصر لاحت غرّة العام
تزهو بنور مليك غيث راحته
هو الخديو الذي أوطانه نشرت
وللتمدّن مدّت باعها وإلى
فياله من حكيم بالعلاج محام

وله في حسين باشا ناظر المعارف والأوقاف والأشغال العمومية:

لجانبك العالي ثلاث مصالح
وأضياء منك جبينها برئاسة
ونمت بها بركات أوقاف روت
وبحزمك الأشغال زاد نجاحها
ولك المعارف غرّدت أبنائها
وبديع نظم كامل في كامل
من مخلص لك في الشناء بدولة
وختمها بهذا التاريخ:

والمجد في عليك قال مؤرخا

رأته بها يعلو وشانیه يسفل
ومجدك فيها من قديم مؤثّل
إلى مصر إسماعيل بالبشر مقبل

تزهو بنور مليك للحمي حامي
في الكون طول المدى بين الوري هامي
للفضل في عصره مطويّ أعلام
أوج العلا سارعت من غير أحجام
ما كان في جسمها من فرط أسقام

نُظمت بمسّطتي عسجدٍ وُجّين
أعمالها منشورة العَلَمين
مصرًا وقد فاضت على الحرّمين
ونجازها في السهل والجبلين
بمدائح الأجداد والأبوين
من مخلص بالقلب والشفّتين
أضحيت فيها حائز الشرفين

زمن المعارف مُشرق بحسين

أبو السعود أفندي

ومن مشاهير أدباء مصر في ذلك الوقت أبو السعود أفندي عبد الله المصري ولد سنة (١٢٤٤هـ) (١٨٢٨م) في دهشور قرب الجيزة، ودرس في المدرسة الكلية التي أنشأها محمد علي باشا في القاهرة فبرع بين أقرانه. ثم ندبته الحكومة إلى نظارة أعمالها فكان في وقت الفراغ يواصل دروسه ويعكف على التأليف شعراً ونثراً. وحرر مدة جريدة وادي النيل وكاتب أدباء زمانه. ونقل بعض كتب الفرنج إلى العربية. ومن تأليفه (كتاب منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر) نظم فيه مجمل حوادث تاريخ مصر للجبرتي ووضع تاريخاً لفرنسا ألحقه بتاريخ ولاية مصر من أول الإسلام دعاه بنظم اللآلئ. وباشر بترجمة تاريخ عام مطول وسمه بالدرس التام في التاريخ العام طبع منه قسم سنة ١٢٨٩.

وكان أبو السعود شاعراً مجيداً له ديوان طبع في القاهرة أودعه كثيراً من فنون الشعر كالمديح والمرثي والفراقيات. ونبغ في المنظومات المولدة كالمواليا والموشحات. وله أرجوزة نظم فيها سيرة محمد علي باشا كثيرة الفوائد بينة المقاصد تبلغ عشرة آلاف بيت. وله غير ذلك مما تفنن فيه وسبق آل عصره.

توفي أبو السعود أفندي في ربيع الأول سنة (١٢٩٥هـ) (١٨٧٨م). وقد رثاه أحد شعراء وطنه بقصيدة قال في مطلعها:

خُلِقَ الهبوطُ مع الصعودِ ومع القيامِ بدا القعودُ
إلى أن قال:

ليس البكاء لغادةٍ أبدتْ لمغرمها الصدودُ
لكنَّه لَمَّا قَضَى ربُّ القريضِ أبو السعودُ
من لم يُجِبْهُ بدمعه فكأنما نفضَ العهدُ

ب عليه بالأسفِ الكبـودُ	فهو الحريُّ بأن تذو
لكنَّه عذبُ الورودُ	بحرُّ تدفق ماءؤه
أرجائها سائلُ العهدُ	بقريحةٍ سالت على
فكأتمَّ الأُمُّ الولـودُ	كم أنجبت نُخبألهُ
ءِ فليس يعرفها خمـودُ	أبداً توقَّـدُ بالذكا
ة فيه وهو من الأسودُ	نشبت مخالبتها المنيا
بين الملائكة السجودُ	لا غرو إن صعد السما
ن سريره لمن الشهودُ	فبناتُ نعشٍ قد حملـ

الحاج حسين بيهم

وفي آخر هذه الحقبة في صفر من سنة (١٢٩٨هـ) ٢٣ ك (١٨٨١م) فقدت الآداب أحد أركانها في بيروت وهو الحاج حسين ابن السيد عمر بيهم، كان والده عمر من أعيان المدينة وأدبائها رثاه الشيخ ناصيف اليازجي سنة وفاته (١٢٧٦هـ) (١٨٥٩م) بقصيدة مطلعها:

زُر تربةً في الحمى يا أيها المطرُ وقُل عليك سلامُ الله يا عمَرُ
ومنها:

في شخصه الدين والدنيا قد اجتمعا وذاك يندرُ أن تحظى به البشرُ
ولد حسين ابنه سنة (١٢٤٩هـ) (١٨٣٣م) ونشأ حريصاً على تحصيل مسائل العلم وفنون الأدب فأخذ عن علماء ملته كالشيخ محمد الحوت والشيخ عبد الله خالد. وبعد أن تعاطى التجارة زمنًا يسيراً انقطع إلى العلم ونال به شهرة، ثم نظم الشعر فصارت له به ملكة راسخة بحيث كان يقوله ارتجالاً في المحافل ويخرجه على صور مبتكرة تطرب له الأسماع. وقد ولّته الحكومة عدة مناصب كمنظارة الخارجية ورتاسة الأحكام العدلية، ثم أعيدت إليه الخارجية فقال في ذلك:

إنَّ الفؤاد له في الملك معرفةً فالخارجية لم تترك نظارتَهُ
لذاك سلطاننا المنصور ردُّ له مع حسن أنظاره أرخ بضاعته
ولما وضع القانون الأساسي وفتح للمرة الأولى مجلس النواب انتخبه مواطنوه ليمثلهم فيه فحضر في الأستانة جلساته، ثم عاد إلى وطنه واعتزل المأموريات وانقطع إلى الأدب. وكان حاضر الجواب ثاقب الرأي كريم الأخلاق عالي الهمة محبوباً عند الجميع. وكان أحد أعضاء جمعية العلوم السورية المنشأة في بيروت، فلما توفي رئيسها الأول الأمير محمد أرسلان عهدوا إليه رئاستها. وكان للحاج حسين نظم رشيق مطبوع قد بقي منه القليل، ومن آثاره رواية

أدبية وطنية مثلت مراراً وقرظها الأدباء. ومن شعره قوله في تاريخ جلوس السلطان عبد العزيز سنة ١٢٧٧هـ:

خلافه الإسلام قد أصبحت
وملئة الإيمان أرختها
وقال مؤرخاً إنشاء التلغراف في بيروت:
لله درُّ السِّلِكِ قد أدهشت
فأعجبَ الكون بتاريخه
وقال مشطراً:

إذا العناية لاحظتك عيونها
ناداك طائرٌ يمنها وسعودها
واصطد بها العنقاء فهي حباله
واصعد بها العلياء فهي معارج
ومن جيد شعره قوله يعزي صديقاً بفقد ماله:

لقد غمنا والله والصحب كلهم
كان شراراً منه طار لأرضنا
ولكننا قلنا مقالة عاقل
إذا سلمت هام الرجال من الردى
فكن مثل ظن الناس فيك مقابلا
ولا تأسفن إذ ضاع مالٌ ومقتنى
وإن حياة المرء رأسٌ لماله
وقد نظم أرجوزة حسنة في العلم وشرفه نشرت في أعمال الجمعية العلمية السورية لستها

الأولى، ومما رثي به الحاج حسين أفندي بيهم قول أبي الحسن الكستي:

فراقك صعبٌ يا حسينُ احتمالُهُ
رحلتَ إلى دار البقاء مكرِّماً
ولكن تركت القوم تبكي عيونهم
وليس لنا من بعد فقدك حليةٌ
حويت خصالاً جل في الناس قدرها
عفافٌ ومعروفٌ وعلمٌ ورقَّةٌ

وبعدك ركبُ الأنس شالت رحالُهُ
ومثلك مولى للنعميم وماله
عليك بدمعٍ كالسيول انهالُهُ
سوى الحزن أو صبرٍ يعزُّ مناله
وما كلُّ إنسان تجلُّ خصالُهُ
وفضلٌ ومجدٌ قلَّ فينا مثاله

محمد أكنسوس

وممن رزئت به الآداب في هذا الوقت في بلاد المغرب الأديب الشاعر أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس المراكشي، توفي في بلده مراكش سنة (١٢٩٤هـ) (١٨٧٧م) وقد عرف المذكور بسعة معارفه لاسيما التاريخية والأدبية. وله التاريخ المسمى كتاب الجيش، وقصائد عديدة في مشاهير بلاده، من ذلك قوله يرثي سلطان مراكش المولى عبد الرحمن المتوفى سنة (١٢٧٦هـ) (١٨٥٩م):

هذي الحياة شبيهة الأحلام ما الناس إن حَقَّقتَ غيرَ نيامٍ
ومنها:

لو كان ينجو من رداها مالكٌ في كثرة الأنصار والخدَامِ
لنا أمير المؤمنين ومن غدا أعلى ملوك الأرض نجل هشام
خير السلاطين الذين تقدّموا في الغرب أو في الشرق أو في الشام
يا مالكا كانت لنا أيامه ظلاً ظلّيلاً دائماً الإنعام
لا ضير إنك قد رحلت ميمّا دار الهناء وجنة الإكرام
فلك الرضا فانعم بما أعطيتُهُ ولك الهناء بنيل كل مرام
وقال يصف خروج السلطان المولى حسن على أعداء دولته سنة (١٢٩٣هـ) (١٨٧٦م):

عصفتَ عليهم بالبأسِ تُزْجِي كتائبَ كالسحابِ إذا تلوحُ
فألقيتَ الجرانَ على ذراهم بجيشٍ كلُّهم بطلٌ مُشِيحُ
فجاء العفو منك وهم ثلاثُ أسيرٌ أو كسيرٌ أو ذبيحُ
وقد قُسمتْ بلادُهُم بعدلٍ ودورهمُ كما قُسمَ الوطِيحُ

فلا تحلم فإن الجرح يُكوى طرياً بالمحاور أو يقيحُ
أبا زيد إذا تبقِيَ عليهم بصفحٍ رُبما ندم الصّفوحُ
وله يصف بستاناً للوزير أبي عبد الله محمد بن إدريس:

يا منزلاً قد خصّصته سعادةً واستبدلته أنعماً من أبوسِ
أصبحت مأوى للوزير محمد نجل الأدارسة الكرام المغرسِ
إنسان عين كون من لبست به رتبُ العلى أبهى وأبهج ملبسِ
يا أيها البحر الذي من فيضه كلّ الأمانى والغنى للمفلسِ
يهنيك ذا القصر الذي أنشأته بالسعد في عام انشراح الأنفسِ
لا زلت تشرف من مطالع سعه كالبدر يظهر من خلال الخندسِ
والدهرُ يخدم جانبك ويحتمي بجلالك العالى الأعزّ الأقدسِ
وكان محمد أكنسوس يأسف على ما يرى في وطنه من الخمول، فقال في ذلك قبل وفاته:

ولستُ أبالي أن يقال محمدٌ أبلى أم اكتظت عليه المآتمُ
ولكنّ ديناً قد أردتُ صلاحه أحاذرُ أن تقضي عليه العامُ
وللناس آمالٌ يُرجّون نيلها وإن متّ مآتتْ واضمحلّت عزائمُ
فيا ربى إن قدرت رجعي قريبةً إلى عالم الأرواح وانقضّ خاتمُ
فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً رشيداً يضيءُ النهجَ والليلُ قاتمُ

بنو اليازجي

وأول من يتحتم علينا ذكرهم الشيخ ناصيف اليازجي وأسرته التي كاد الموت يقصف آخر غصونها بوفاة نجليه المرحوم الشيخ إبراهيم والسيدة وردة. أصل هذا البيت من روم حمص. ثم نمت أسرتهم وتفرعت إلى عدة فروع فهاجر قوم منهم في العشر الأخير من القرن السابع عشر إلى لبنان فسكنوا جهة الغرب واستوطن غيرهم وادي التيم.

وكان بعضهم دخل في خدمة عمال الدولة في أواسط القرن الثامن عشر بصفة كاتب، وعرف باسم اليازجي أي الكاتب وعرف به أبناؤه، وكان عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط والد الشيخ ناصيف طبيباً درس الطب على بعض رهبان الشوير وتعاطاه بالعمل فحذق به، وكان مع ذلك محباً للآداب العربية يطالع من كتب اللغة ما يحصل عليه، ووسائل التعليم في ذلك الوقت قليلة. وتعلم الشعر فنظم بعض القصائد التي أخذتها أيدي الضياع. ومما روى له حفيده الشيخ إبراهيم قوله يمدح ديوان شعر للقس حنانيا منير:

عش بالهنا والخير والرضوانِ يا من عُنيَتْ بنظم ذا الديوانِ

إني لقد طالعتهُ فوجدتُهُ نظماً فريداً ماله من ثانِ

وكان مولد ناصيف ابنه في كفر شيما في ٢٥ آذار سنة ٨٠٠ درس مبادئ القراءة والكتابة على القس متي الشباي. ثم شعر برغبة عظيمة في معرفة أصول اللغة وفنون الآداب فانكب عليها بنشاط وحرص على إتقانها ما أمكنه فنال منها نصيباً حسناً. ثم درس الطب على والده ووضع فيه أرجوزة سماها الحجر الكريم في أصول الطب، ودرس أيضاً فن الموسيقى ووعى كثيراً من أصولها ودقائقها. وكان مغرماً بالتاريخ مواظباً على قراءة أخبار القدماء فيحفظ منها تفاصيل كثيرة لا تبرح من ذاكرته إذا انطبعت فيها مرة.

لكن الأدب غلب على الشيخ ناصيف فبلغ فيه مبلغاً عجبياً قيل: إنه استظهر القرآن وحفظ كل ديوان المتنبي وقصائد عديدة من العشر القديم والمولد لا يخل فيها بحرف. وكان في أوقات الفراغ ينسخ ما يحصل عليه من الآثار الأدبية بخط جميل أشبه بالقلم الفارسي.

ومما امتاز به على أهل زمانه شعره فإنه نبغ فيه على ما روي وعمره لا يتجاوز عشر سنين فكان يقول الشعر عفواً على البديهة، ويأتي بكل معنى بليغ. وكان في أول أمره ينظم المعنى والزجليات تفكهاً. وقد تلف معظم هذه المنظومات العامية.

وسطع في ذلك الوقت نجم الأمير بشير الكبير فقصده الأدباء والشعراء ومدحوه ونالوا من سجال فضله منهم المعلم إلياس أده ونقولا الترك وبطرس كرامة فسار الشيخ ناصيف إلى بيت الدين واتصل بهؤلاء الأدباء فقربوه من الأمير الذي اتخذهم كاتباً لأسراره ورفع شأنه. وللشيخ في مخدومه قصائد جليلة منها رائيته التي قالها مهنتاً له بانتصاره من أعدائه سنة (١٢٤٠هـ) (١٨٢٤م) وأولها:

يهنيك يهنيك هذا النصر والظفرُ فأنعمُ إذن أنت بل فلننعم البشرُ
وبقي في خدمته اثنتي عشرة سنة. فلما كُفِّت يد الأمير عن تدبير لبنان سنة ١٨٤٠م، فارقه الشيخ ناصيف ونزل مع أهله إلى بيروت فسكنها إلى سنة وفاته. وفي هذه الثلاثين السنة الأخيرة من عمره انقطع إلى التأليف في بيته وإلى التدريس ومراسلة الأدباء فحظي بشهرة عظيمة. وسمع به المستشرقون فكاتبوه واقترحوا عليه عدة مصنفات أجابهم إلى وضع بعضها فطبعوها في مجلاتهم.

كان علماء الشرق يتسابقون إلى مكاتبته ويتناوبون بينهم القصائد والرسائل. ومن فضل الشيخ ناصيف أنه سعى مع بعض أدباء الشام بعقد الجمعية السورية لترقية الآداب ورفع منار العلوم. وكان له في كل المساعي الأدبية يد مشكورة حتى أصبح في بلاد الشام كقطب العلوم العربية وشرعة المعارف الوطنية. واشتغل أيضاً مع أصحاب الرسالة الأميركية فنظم لهم المزامير وبعض الأغاني الدينية، واستفادوا منه أيضاً في تعريب الأسفار المقدسة التي نشرها في مطبعتهم. وكان أحد أعضاء جمعيتهم التي أنشؤوها سنة (١٨٤٨).

أما تأليف الشيخ ناصيف فكلها مشهورة وأشهرها مقاماته الستون المعروفة بمجمع البحرين التي عارض فيها المقامات الحريية. وله كتاب فصل الخطاب في الصرف والنحو. وجوف الفرا والخزانة وهما أرجوزتان في أصول النحو نظمها وعني بشرحها. وعقد الجمان

في البيان مع ملحق في العروض. وله شرح على المتنبي أتمه ابنه الشيخ إبراهيم ووسمه باسم العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب.

وشعره متفرق في ثلاثة دواوين: كتاب نفحة الريحان وكتاب فاكهة الندماء في مراسلات الأدباء وكتاب ثالث القمرين. وقد قصد الأديب ميخائيل أفندي إبراهيم رحمة جمع شعره في ديوان طبع منه نبدتان في المطبعة الشرقية في الحدث وفي المطبعة الأدبية مصححاً بقلم نجله المذكور. وعساه أن يضيف إليها ما لم يزل مخطوطاً أو شارداً من القصائد.

وشعر الشيخ ناصيف يجمع بين الرقة والمتانة يضارع نظم أجود الشعراء في كل أبواب المعاني وقد مر لنا عدة أقوال من قلمه تشهد على براعته ورسوخ قدمه في آداب الشهر. وقد مدح أكثر مشاهير عصره وأدباء زمانه، ورثى قوماً من الكرام الذين انتقلوا إلى دار البقاء في أيامه وله التواريخ المتعددة التي زان بها قبورهم أو عقلها على الآثار اللبنانية والكنائس وغيرها. فمن مديحه قوله من قصيدة غراء رفعها إلى جلالة السلطان عبد العزيز وضمن كل شطر منها تاريخاً لسنة (١٢٨٣ هـ):

ظل الإله علينا أوج طالعه قد فاق فوق جهات الأفق كالعالم
في خلقه عجب في عزه طرب راحاته سحبت يهمرن بالكرم
أمين رب الورى في الكون مؤتمن على العباد لحق العهد والذمم
ومدح نابوليون الثالث بقصيدة افتتحها بهذه الأبيات:

من قال أن الدهر ليس يعود هذا زمان عاد وهو جديد
قد عاد نابليون بعد زواله فكأن ذلك يومه الموعود
لا تُفقد الدنيا لفقد عزيزها ما دام يخلف ميتها المولود
تجدد الأشخاص فيها مثلها يُغرى القضيبي فينبت الأملود

وله في مديح الملكة فيكتوريا لما جلست على عرش بريطانيا العظمى من قصيدة:

اليوم قامت فتاة الملك بارزة وقام من قبلها أسلافها الأول

فرعُ الأصول التي مرّت وبهجتها
 في قلبها خاتمُ التقوى وفي يدها
 إنَّ الشّمار من الأغصان تُبدلُ
 من خاتم الملك ما يجري به المثلُ
 كما التقى الكحل في الأجنان والكحلُ
 قد التقى الدين والدنيا بساحتها

وله قصائد أخرى في مدح الخديويين أصحاب مصر إبراهيم باشا وسعيد باشا وإسماعيل باشا. وكثيراً ما كان يجمع في هذه المدائح أنواع الجناسات والفنون البديعية الصعبة المرتقى الدالة على تذييله للمشكلات اللفظية والمعنوية، لكن التعسف ظاهر في بعض هذه المنظومات التي وضعها لمعارضة قوم من شعراء القرون المتأخرة. ومن هذا القبيل بديعته التي التزم فيها تسمية الجناس والنوع أولها:

عاج المتيمُّ بالأطلال في العَلَمِ
 فأبرعَ الدمعُ في استهلاله العَرمِ
 ومن أحسن شعر صاحب الترجمة مراثيه التي أوردنا منها أمثلة. وله من قصيدة يرثي بها البطريك مكسيموس مظلوم:

ركنٌ هوى في دار مصرٍ أو شكت
 ضجّت به الإسكندرية هيبّةً
 منه رُبّالبنان أن تنفطّرا
 فكأنّ فوق سريره الإسكندرا
 أيدي المنون فمال محلول العُرى
 تُدعى فألقّت في التراب الجوهرا
 وله في رثاء صغير وأجاد:

أستودعُ الله في طي الضريح فتىً
 كنا نؤمل أن نجني له ثمرا
 كالغصن معتدلاً والبدر مكتملا
 فخيب الدهرُ منا ذلك الأمل
 عليه داعي المنايا إذ أتى عَجلا
 بجمرةٍ من دم الدمع الذي انهملا
 رؤوسها وصرأخ الباقيات علا
 كما حللت على نعشٍ به هُملا
 يا رحمة الله حُلّي فوق تربته

ومن مراثيه ما قاله في موت ابنه حبيب وهو آخر نظمه قاله قبل وفاته ولم يتم رثاءه لحزنه:

ذهب الحبيبُ فيا حشاشة ذوبي
رييته للبين حتى جاءه
يا أيها الأمُّ الحزينةُ أجملي
لا تخلعي ثوب الحداد ولازمي
هذا هو الغصنُ الرطيبُ أصابه
لا أستحي إن قلتُ أين نظيره
إني وقفتُ على جوانب قبره
ولقد كتبتُ له على صفحاته
لك يا ضريحُ كرامةٌ ومحبَّةٌ
أسفاً عليه ويا دموعُ أجيبي
في جناح ليل خاطفاً كالذبي
صبراً فإنَّ الصبرَ خيرُ طبيبٍ
ندباً عليه يليقُ بالمندوبِ
سهمُ القضاءِ فمات غيرَ رطيبٍ
بين الرجالِ فلستُ غر مصيبٍ
أسقي ثراهُ بدمعي المصبوبِ
يالوعتي من ذلك المكتوبِ
عندي لأنك قد حويت حبيبي

وله يرثي الأمير بشير الشهابي لما توفي في الأستانة سنة ١٨٥٠م:

إذا طلع النهارُ أرى الرجالا
وأعجبُ كيف تطوي الأرض ناسا
يخونُ الدهرُ شخصاً بعد شخصٍ
إذا أغلقتَ دون الموت بابا
ومن حَذَرَ المنية عن يمينٍ
من الله سلام على أميرٍ
كانَّ الموت لم يجسر عليه
فتى كالسيف إرهافاً وقطعا
ومثل البدر إشراقاً وحسنا
أجلُّ بني الكرام أباً وجداً
كما أبصرتُ في الليل الخيالا
لو اجتمعوا بها كانوا جبالا
كما ترمي عن القوس النبالا
تناول ألف بابٍ كيف جالا
تدور به فتأخذهُ شمالا
دفنا المجد معه والجلالا
مجاهرةً ففاجأه اغتيالا
ومثل الرمح قدداً واعتدالا
ومثل الغيث جوداً وابتذالا
وأكرمُ رهطهم عمّاً وخالا

وأحسنهم وأجملهم فعالا
كريمٌ من كريمٍ من كرامٍ
سليل أمير لبنانٍ ينادي
إذا قلتَ الأمير ولم تسمع
سألنا نخت ممن عن نظيرِ
ستبكيه البلادُ ومن عليها
وتحصى الناس ما فعلت يدهُ
إلى أن قال:

إلى دار السعادة سرت فوزا
رأيت العيش في الدنيا طريقا
وقال مؤرخاً سنة وفاته:

هذا الأمير السعيد الحظ تخدمهُ
تقول أرقام تاريخٍ تحيط به
ومن تعازيه اللطيفة قوله يخاطب تاجراً أصيب بهاله:

يا بائع الصبر لا تُشفق على الشاري
لا شيء كالصبر يشفي قلب صاحبه
هذا الذي تُحمد الأحزان جرعتُهُ
ويُحفظ القلبُ باق في سلامته
يا من حزنتَ لفقد المال إنك قد
كما أتى أمسٍ ذاك المالُ مكتسبا
ومن زهرياته قوله:

وأوثقهم وأصدقهم مَقالا
بنوا في المجد أعمدة طوالا
أنا لبنانُ لما ملتُ مالا
فلا يحتاج سامعك السؤال
لَهُ هل قام قال لا لا
إلى أن تستعيضُ له مثالا
ولكن بعد أن تحصى الرمالا

كأنك عاشقٌ يبغى الوصالا
لهافا اخترتُ أقربهُ مجالا

ملائك الله حول العرش تجتمعُ
إن الشهاب على الأفلاك ترتفعُ

فدرهمُ الصبر يسوى ألف دينارٍ
ولا حوى مثلهُ حانوتُ عطّارٍ
كبارد الماء يطفئ حدة النارِ
حتى يُبدلَ إعساراً بأيّسارٍ
خُلقت عارٍ وما في ذاك من عارٍ
يأتي غداً من بديع اللطف جبارٍ

مرَّ النَّسِيمَ عَلَى الرِّيَاضِ مَسْلَمًا
أَحْنَى إِلَيْهِ الزَّهْرَ مَفْرَقَ رَأْسِهِ
يَا حَبِّذَا مَاءَ الْغَدِيرِ وَشَمْسُهُ
مَحْتِ الرِّيحِ بِهَا كِتَابَةٌ بَعْضُهَا
وَلَهُ هَجْوٌ قَلِيلٌ فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي ثَقِيلٍ:

كَفَّ عَنِّي لَا أَبَالُكَ
وَعَرَفْنَاكَ وَإِلَّا
قَدْ مَضَى لِي بِكَ عَصْرٌ
حَسَبُ قَلْبِي مِنْكَ جَوْرٌ
سَنَرَى النَّادِمَ مِنَّا
وَقَالَ فِي بَخِيلٍ:

قَدْ قَالَ قَوْمٌ إِنْ خَبَزَكَ حَامِضٌ
كَذَبَ الْجَمِيعَ بَزَعَمَهُمْ فِي طَعْمِهِ
وَمِنْ حِكْمَةِ الْمَأْتُورَةِ:

إِنِّي لَقَدْ جَرَّبْتُ أَخْلَاقَ الْوَرَى
كُلَّ يَذْمُ النَّاسَ فَالَّذِي نَجَا
وَلَا يَحِبُّ غَيْرَ نَفْسِهِ فَمَا
يَعْرِفُ كُلَّ حَالِهِ فِيمَا مَضَى
وَكَوَلَّ عِلْمٌ يُدْرِكُ الْمَرْءَ سِوَى
وَكَوَلَّ مَنْ لَا خَيْرَ مِنْهُ يُرْتَجَى
وَمِنْهَا فِي وَصْفِ أَعْمَالِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَأَيَاتِهِ:

سَحْرًا فَرَدَّ هَزَارَهَا مَاتِرْنَا
أَدْبَاءً وَلَوْ مَلَكَ الْكَلَامَ تَكَلَّمَا
تَعْطِيهِ دِينَارًا فَيَقْلِبُ دَرَاهِمَا
فَتَخَاصَمْتَ مَنْ فَوْقَهُ فَتَهَشَّمَا

قَدْ تَبَيَّنَا مُحَالَكَ
فَمَتَى نَعْرِفُ حَالَكَ
حَامِلًا فِيهِ مَلَالِكَ
كَأَدْمِنُهُ يَتَهَالِكَ
وَيُسِيءُ اللَّهُ فَالْكَ

وَالْبَعْضُ أَثْبَتَ بِالْحَلَاوَةِ حِكْمَهُ
مَنْ ذَاقَهُ يَوْمًا لِيَعْرِفَ طَعْمَهُ

حَتَّى عَرَفْتُ مَا بَدَأَ وَمَا اخْتَفَى
مَنْ ذَمَّهُ يَدْخُلُ فِي ذَمِّ الْمَلَا
أَحَبُّهُ فَهُوَ إِلَى النَّفْسِ انْتَهَى
إِلَّا الَّذِي كَانَ دُنْيَاً فَارْتَقَى
عَرَفَانَ قَدَرَ نَفْسِهِ كَمَا اقْتَضَى
إِنْ عَاشَ أَوْ مَاتَ عَلَى حَدِّ سِوَا

شهدت عجايبه له في عصره
ولنا عليه أدلة قطعية
قد جاء لا سيف ولا رمح ولا
ياوي المغارة مثل راعي الضأن لا
وهو ابن يوسف لا ابن قيصر عندهم
فأتاه من شعب اليهود جماعة
وتباعدوا من قومهم بمذلة
قالوا هو ابن الله جهراً والعدا
والناس بين عواذل وعواذر
ما غركم يا قوم فيه أسيفه
هو ساحر يطغي فقالوا لم نجد
كانت رجال الله تحيي ميتا

فدرى الحكيم وتاه من لم يفهم
عقلاً ونقلاً ليس قطع تحكم
فرس ولا شيء يُباع بدرهم
راعي المالك في السير الأعظم
يغزو بجيش في البلاد عرم
كانوا على الدين التليد الأقدم
يأبون كل كرامة وتنعم
من حولهم مثل الذئب الحوم
لهم وبين محلل ومحرم
أم جاهه أم ماله في الأنعم
من ساحر يحيي الرميم بطلسم
بصلاتها ودعائها المتقدم

وأصيب الشيخ ناصيف في الستين الأخيرتين من عمره بفالج نصفي تحمل مضضه بالصبر، ثم دهمته سكتة دماغية فتوفي فجأة في ٨ شباط سنة ١٨٧١ رحمه الله. وقد صدق المثل تماماً في أولاد الشيخ ناصيف اليازجي فإنهم تعقبوا كلهم آثار والدهم. وكان أكبرهم الشيخ حبيب ولد في ١٥ شباط سنة ١٨٣٣، ولما ترعرع وجد أباه كهلاً تام القوة كامل العقل مولعاً بالآداب فدرس عليه كل الفنون العربية. ثم إلى اللغات الأجنبية فأتقن الفرنسية حتى برع فيها وتعلم غيرها كالإيطالية واليونانية والتركية.

وكان يتردد على المرسلين اليسوعيين في بيروت ويستفيد منهم. وتجد اسمه في قائمة الأدباء المنتظمين في الجمعية المشرقية التي أنشئوها سنة ١٨٥٠، ثم تفرغ للكتابة وعرب بعض التأليف الأجنبية منها قصة عادلدة برنزويك. ومنها أيضاً قصة تليهاك التي ألفها فيلون فأجاد في تعريبها إلا أنها لم تطبع، وقد طبعت في مصر ترجمة أخرى دونها حسناً. ومن تأليفه أيضاً كتاب اللامعة في شرح الجامعة فسر فيه الأرجوزة التي ألفها والده في علم العروض والقوافي

وكان اسمها الجامعة وقد طبع الكتاب سنة ١٨٩٦ في المطبعة الوطنية. وكان الشيخ حبيب عاقلاً لبيباً رياضياً وقد اشتغل بالتجارة في آخر عمره، وكان في شبابه يحب الشعر وله بعض منظومات، منها رثاؤه للطبيب الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم بقصيدة أولها:

يسرُّ المرءَ إقبالَ الليالي وينسى أن ذلك للزوالِ
ومنها:

دع الدنيا الغرورَ وكُنْ مجداً كحبر الشرق في طلب الكمالِ
هو المظلومُ حين رمى بتاج له واعتاض أكفاناً بـوالي
لقد ضربت به الأمثالُ لما غدا الرُّعاة بلا مثالِ
إلى أن قال:

وفي الإسكندرية دُكَّ طُودٌ فلم تنفك فاقدة الجبالِ
رئيسٌ كان في دنياه بحرا فكانت تُجتنى منه الالاي
لقد أَرْضَى الإلهَ بكلِّ أمرٍ وأرضى الناس في حُسنِ الفعالِ
فعاش كما نُورخهُ سعيديا وفي السدار قد بلغ المعالي
وكانت وفاة الشيخ حبيب كهلاً قبل والده ببضعة أسابيع في سلخ السنة ١٨٧٠. وكما عاجلت المنون بكر الشيخ ناصيف كذلك قطفت ابنه الشيخ خليل غصناً زاهياً في تمام شبابه وعز قوته. ولد هذا في السنة ١٨٥٦، وأخذ الآداب العربية عن أبيه وآله فوضعها مع الحليب، ولما نشأ دخل الكلية الأميركانية ودرس فيها العلوم.

وفي ١٨٨١ رحل إلى مصر وزار بعض أعيانها وأنشأ مجلة مرآة الشرق إلا أن الثورة العراقية ألجأته إلى الرجوع إلى وطنه فعلم مدة اللغة العربية في المدرستين البطريركية والأميريكانية حتى أصيب بصدره فكف عن التعليم ولم يزل يطلب علاجاً لوجعه حتى غلبه الداء فهات في الحدث في ٢٣ ك ١ سنة ١٨٨٩ ودفن في بيروت. وكان الشيخ خليل متوقد الذهن ذا قلم سيال وقد غلب عليه الشعر. ومن خدمته للآداب طبعه لكتاب كليلة ودمنة مضبوطاً بالشكل مع شرح الغريب من ألفاظه.

أما خلفه الشيخ خليل اليازجي الشعرية فهي أولاً روايته المروءة والوفاء نظم فيها وفاء حنظلة الطائي بوعدته بعد قدومه على النعمان يوم بؤسه وضمان شريك له في غيبته ليصلح أمور بيته ويرجع إلى القتل، ثم تنصر النعمان لنظره مروءة حنظلة. وهو حادث تاريخي معروف بنى عليه الشيخ خليل روايته، لكنه طمس محاسنها بما أودعها من الأدوار العشقية المملة التي تنسي سامعها الواقع التاريخي الأصلي فيضيع الجوهر بزخرف الأعراض الباطلة. ومن خلفته أيضاً مجموع منظوماته الذي عنوانه بنسبات الأوراق فطبعه بالقاهرة سنة ١٨٨٨ في ١٦٢ صفحة، نروي منها بعض القطع تبياناً لفضله وجودة قريحته. فمن مديحه قوله في عبد الله فكري باشا ناظر المعارف في مصر:

الجاءُ عندك نال أكملَ جاهِ فهناك نورٌ فوق نورِ زاهِ
والفخرُ منك كُسي بأبهى حلّة وعليك منه كلُّ ثوبِ باهِ
نالَت مسامعنا من اسمك لذّة فغدت محسّدة من الأفواهِ
حتى قال وتجاوز الحد في الغلو:

ولئن يك فيك الثنا متناهيًا فاعذر ففضلك ليس بالمتناهي
نزهت عن شبه فتبغي شاعرا متنزهاً في الشعر عن أشباهِ
ولأنت ذاك ومن لنا ببدايع لك أمراتٍ للقريضِ نواهِ
فلقد أتاني الشعر يتني علقه ويقول إني عبدُ عبدِ اللهِ
ومن أوصافه قوله في القاهرة يذكر لبنان وطيب هوأته:

قف فوق رابية من طور لبنانِ وقل سلامٌ على أرضٍ وسكانِ
أرض إذا ما سقاها الغيثُ كادها أن يستحيل إلى درٍّ ومرجانِ
يا أهل لبنان ما لبناكم جبلُّ لكنّه قمّة العلياء والشانِ
فيه العشائر أصحاب المفاخر أر باب المآثر من مجدٍ وعرفانِ
إمارة قد سمت فيه ومشيخة نشت أصولهما من عهد أزمانِ

ملجاء الوباء الحَرَّ يقصدهُ مصاب هذين من قاص ومن دان
وملجأً المبتلي من كل ذي سقمٍ بطيبِ ماءٍ وأهواءٍ وجيرانِ
وقال في الختام:

هذا هو الوطن المحبوب أذكرهُ وما أنا بمراعٍ حُبِّ أوطانِ
وقال مؤرخاً ميلاد ابنه حبيب سنة ١٨٨٤:

نجلٌ به جاد المهيمن حيث قد حَيَّتْ وطابت أنفُسٌ وقلوبُ
لَمَّا بتاريخٍ حبيبٍ سَمِيئُهُ قلت الحبيبُ إلى الخليلِ حبيبُ
ثم توفي الطفل في السنة التالية فقال:

وضيفٍ زارنا ومضى قريباً وما كادت تُعدُّ له شهوُرُ
تركت مؤرخاً بالويل حزني كبيراً أيها الطفل الصغيرُ

وبقي من بعد الشيخ خليل شقيقه الشيخ إبراهيم رافعاً أعلام اللغة والأدب مواصلاً لأعمال أسرته الكريمة بين العرب مزيناً للصحائف بمقالاته في صنوف المعارف. ولد الشيخ إبراهيم في بيروت في ٢ آذار من السنة ١٨٤٧ فاستروح روح الآداب منذ حداثته سنة بقرب والده عمدة البلغاء في وقته فاستقى من منهله وخاض في ميدانه وجعل يمارس الكتابة حتى برع في النثر والنظم.

استأنف حينئذ أدباء بيروت الجمعية العلمية السورية فانتظم في سلكها وألقى فيها الخطب وأنشد القصائد، ثم حرر مدة جريدة النجاح. ولما عمد الآباء اليسوعيون إلى تعريب الأسفار المقدسة عن أصلها العبراني واليوناني رأوا أن أمانة التعريب لا تفي بالمرام إن لم يغط المعرب حقه من الفصاحة والبلاغة بتنقيح العبارة وسبك الكلام وكان إذ ذاك صيت الشيخ إبراهيم نال بعض الشهرة فدعوا به إلى مدرستهم في غرير سنة ١٨٧٢ وباشروا معه في العمل.

فكان الأب أوغسطين روده الذي درس العربية في الجزائر وعلم العلوم الكتابية في فرنسا ينقل الكتب المقدسة فصلاً فصلاً وآيةً آيةً بعد مراجعة تفاسير الآباء والمعلمين والترجمات الشريفة العديدة منها ثلاث ترجمات عربيّة. فإذا أتم عمله نظر فيه الشيخ نظراً مدققاً فعرض

على العرب ملحوظاته، ثم تفاوض كلاهما إلى أن يتفقا على رأي واحد فيدوّنانه بالكتابة، ثم يعرضان شغلها على أربعة أساتذة من الآباء المتصلعين بالعلوم الدينية ومعرفة اللغات الشرقية فلا يطبع شيء إلا بعد مصادقتهم على كمال الترجمة.

اشتغل الشيخ إبراهيم في تنقيح التوراة العربية نحو تسع سنوات في غرير وبيروت. وقد علم سنين طويلة في المدرسة البطريركية فتخرج عليه كثيرون من أحداثها اشتهر بعضهم بالتأليف. وفي السنة (١٨٨٤م) اتفق على الدكتورين بشارة زلز و خليل سعادة على نشر مجلة الطبيب فكان الشيخ إبراهيم محرر فصولها اللغوية والأدبية. ثم انفرط عقد وصلتهم بعد سنة وانتقل الشيخ إبراهيم إلى مصر حيث أبرز أولاً مجلة البيان في آذار من السنة ١٨٩٧، ثم أبدلها بمجلة الضياء التي أنشأها ثماني سنوات إلى تاريخ وفاته في ٢٨ كانون الأول من السنة ١٩٠٦م. فقدت به الآداب العربية أحد أنصارها المعدودين.

وليس من حاجة هنا أن نعرف صفات الرجل مع قرب عهده بيننا ومما اشتهر به حسن ذوقه في الكتابة وانسجام كلامه فيظهر لقرائه كأنه المرآة الصقلية أو الماء الزلال فكان لا يزال يردد النظر فيما كتب وينقحه مراراً حتى يخرج كالبرد القشيب والخميلة الناعمة. وكان عارفاً باللغة معرفة واسعة كما تدل عليه بعض مؤلفاته أخصها (نجمة الرائد في المترادف والمتوارد) في جزأين على طريقة كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمداني.

ومنها اختصاره أو شرحه لبعض تأليف والده كمختصر نار القرى ومختصر الجمانه وشرح ديوان المتنبي المسمى بالعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، وكذلك تصحيحه وتهذيبه لعبارة بعض كتب الأدباء كتاريخ بابل وأشور للمرحوم جميل مدور ونفح الأزهار في منتخبات الأشعار لجامعه المرحوم البتلوني، ودليل الهائم في صناعة الناثر والناظم له. وكلت إلى الشيخ إبراهيم وضع معجم اللغة العربية فاشتغل فيه زمناً طويلاً، ثم أهمله فانتدبت حينئذ الشيخ اللغوي سعيد الشرتوني إلى وضع كتابه أقرب الموارد بدلاً منه، ثم عاد الشيخ إبراهيم إلى عمله مراراً وأتم منه قسماً لكنه مات ولم يمثله للطبع. وكان الشيخ كما هو معروف قليل الصحة بطيء الشغل ومجلة الضياء تستنفد همته فلا تسمح له بمعاناة سواه.

ومن آثاره اللغوية عدة مقالات مطولة وانتقادات لسانية كالأمالي اللغوية ولغة الجرائد وأغلاط العرب المولدين واللغة والعصر ونقد لسان العرب، وغير ذلك مما أصاب في بعضه وأخطأ في البعض الآخر، فتصدى له كثيرون من الكتبة فقامت بينه وبينهم الجدالات الطويلة. وللشيخ أيضاً قصائد متفرقة ومنظومات رشيقة لم تجمع حتى اليوم. روى بعضها جناب الأديب عيسى أفندي إسكندر معلوف في ترجمة حياته التي نشرها في المقتطف. ومن أقدم ما وجدنا له من القصائد ما أنشده في الجمعية السورية في أوائل سنة ١٨٦٨، وهي منظومة حماسية ذكر فيها العرب فقال في أولها:

سَلامٌ أياها العَرَبُ الكرامُ وِجادٌ رِبعٌ قَطْرُكمُ الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهداً مضت قِداماً فلم يَضِعِ الغمامُ
ثم قال في وصف مجالس العلم:

مجالسُ العلوم غدت منارا به ليغلب الجهل انصرامُ
جلاها كلُّ أبلجٍ أريحيٍّ تقرُّ له البلاغةُ والكلامُ
تُجرِّدُ من أياديه المواضي وتُرسَلُ من لواظِهِ السهامُ
رجالٌ في انتشار الفضل جدوا وفي حب العلوم صَبَّوا وعاموا
تلاعبت الحميَّةُ في نُهُامهم كما لَعِبَت بِشاربها المِدامُ
تمزُّ الأريحيَّةُ كلَّ يومٍ معاطفهم كما اهتزَّ الحسامُ
هُمُ الشُّهبُ والمطيرةُ فوق أرضٍ يلوح لَنُورِئِهِم فيها غمامُ
غمامٌ قد تخلَّلَهُ بُروقٌ يَصافحها الرجاءُ متى تُشامُ
جهابذة يقوم الفردُ منهم بما أعياب به جيش اللهامُ
ومن أبياته الحماسية فيها قوله عن العرب:

وما العَرَبُ الكرامُ سوى نصالٍ لها في أجفَنِ العُليا مقامُ
لعمرك نحن مصدرٌ كل فضلٍ وعن آثارنا أخذ الأنامُ

ونحن أولو المآثر من قديم
فقد علم العراق لنا قديماً
وفي أرض الحجاز لنا فيوض
وفوق الأندلوس لنا بنود
وسل في الغرب عن آثار فخر
ولسنا القانعين بذكر هذا
ولكننا سنجهد في المعالي
ومن محاسن نظمه ما كتبه في المجموع الذي
خص بمدح كريستوف كولب في السنة المثوية
لتذكار موته:

أبقى خريستوف الشهير لنفسه
رجلٌ لقد فتح البلاد بصبره
قد زاد هذي الأرض أرضاً مثلها
برزت إليه من الغيوب كأنها
فكأنه إذا حلّ فيها آدم
وقال يشكو تقلب الأيام من قصيدة:

كأنى بالبلاد تنوح حزناً
يحنُّ الأرز في لبنان شجواً
وتدمر في دميار مستمراً
وأضحت بعلبك وليس فيها
فلو درت البلاد بما عراها
ومن لطيف قوله في مدح سمو الخديوي عباس:

وإن جحدت مآثرنا اللثام
أيادي ليس تنكرها الشأم
يسيل لها إلى اليمين انسجام
لهامات النجوم بها إعتام
لها في جبهة الزمن ارتسام
وليس لنا بعروته اعتصام
إلى أن يستقيم لها قوام

ذكراً على الأيام ليس يبيد
وله من الهمم الجسم جنود
ليديه ألقى كنزها المرصود
خلق سوى الخلق القديم جديد
وكانت فردوسه المعهود
وقد أودى بعظمتها الثبور
وتندب بعد ذاك العز صور
وما سگانها إلا النسسور
سوى خرب لعظمتها تشير
لكادت من تلفها تمور

همامٌ توَلَّى الأمر وهو على شفا
تقلَّد أعباءَ الرئاسةِ أمردا
فكانت له أمًا وكان له أبا
وله تاريخ في الطبيب يوسف الجليخ المتوفى سنة ١٨٦٩م:

هذا الطبيب الذي من بعد مصرعه
أجرى عيون بني الجليخ الكرام له
فقِفَ على تربيهِ واهتف بمرحمة
وقل ليوسف أرخ طيِّ مضجعه
ويعجبنا قوله في ساعة دقاقة:

وُحْصِيَّةٌ أَعْمَارَنَا كُلَّمَا انْقَضَتْ
فيا بنت هذا الدهر سرتِ مسيرهُ
ومثله حسناً قوله في عودِ طربٍ:

وعودٍ صفا الندمانُ قدماً بظَلِّهِ
تعشَّقه طيرُ الأراكيةِ أخضرا
ورأى قدرةً بعلبك فذكر قدرة الرحمن بقوله:

يا بعلبك غريبة الأزمانِ
لم تُبَلِّكِ الأيامِ في حدثانها
ويا ليت قلمه لم يرقم غير هذه المعاني البليغة ويسودنا ذكر قصائد وكراريس ظهرت غفلاً
من اسم مؤلفها، ثم صرحت الجرائد بأنها من إنشائه كقصيدته السينية التي نشرها سليم
أفندي سر كيس في كتابه سر مملكة. وقد تطرف الشيخ حتى قال فيها عن أرباب الأديان:

ما هم رجالُ الله فيكم
بل هم القوم الأبالس
يمشون بين ظهرهم
تحت الطيالس والقلائس

ومثلها شقيقتها البائية التي مطلعها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الرُّكْبُ

وفي هذه القصائد والمنشورات مطاعن في الدين وتمهيج الخواطر على السلطة.

ومن فاتنا ذكره في القسم الأول من هذا الكتاب ولا يسعنا السكوت عنه وهو أحد نجوم تلك الثريا اليازجية المنيرة الشيخ راجي أخو الشيخ ناصيف: أن للشيخ راجي (١٨٠٣ - ١٨٥٧م) ديواناً مخطوطاً وأن شعره يشهد له بالبلاغة ومن مجموع مرثي السيد مكسيموس مظلوم قصيدة في ذلك الفقيه الجليل أولها:

معدن البرِّ محمد الظهر مكسيم وسُ ربُّ الحجى حميدُ الخصالِ

من سرى في طريق مولاهُ حتى سبق السابقين بالإفضالِ

ونحاصارفاً إلى الله فعلا بالتقى لا بالقلب والإعلالِ

كم محلُّ سامٍ أشاد وكم من منزلٍ قد بنى من مجد عالِ

فجعتنا بهِ صروف زمانٍ جائراً لا يزلُ في كلِّ حالِ

ورمتنا النبالُ منه إلى أن لم يُعدْ موضعُ لوقع النبالِ

توفي الشيخ راجي سنة ١٨٥٦ يؤخذ من تاريخ قاله فيه حنا بك أسعد أبي الصعب:

مذ سار راجي اليازجيُّ إلى السما وغدا إلى المولى العليِّ مناجيا

قد جاء في ذاك المؤرخ راقما قد زار فضلك يا إلهي راجيا

وللشيخ راجي يدعى بالشيخ ملحم كان يتعاطى الآداب كأبيه وكان سابقاً نزيل زحلة ولا نعلم شيئاً من أخباره حاضراً. وقد وقع لنا من شعره مرثاة نظمها سنة ١٨٦٩م في وفاة الدكتور يوسف الجليخ مطلعها:

كووس البين دارت في الأنعام من الشيخ إلى العلام

إلى أن قال:

طبيبٌ كان يشفي كلَّ داءٍ إذا استولت تباريحُ السقام

دعاه اليوم ما لا منه شافٍ ولا منه سليمٌ في الأنام
وأعقب فيه آل الجليخ سكرًا وكأس الحزن لا كأس المدام
وختمها بقوله:

تركت العالم الغرّار طوعًا وبنت مجاوراً دار السلام
لئن تكُ قد رحلت اليوم عنا فذكرك لا يزال إلى الدوام
ومن أولاد الشيخ ناصيف السيدة وردة وابنته التي عمرت زمناً طويلاً.

آل المراش

عرف بنو المراش في حلب منذ القرن الثامن عشر، ومنهم كان بطرس المراش الذي قتل في سبيل دينه سنة ١٨١٨ في حلب، وعرف بعد قليل فتح الله المراش وكان له إلمام بالعلوم اللغوية والأدبيات أبقى منها آثاراً مخطوطة، وخلفه ابنه فرنسيس فنال شهرة طيبة بذكائه وما عرفه وخلفته الأدبية. ولد في ٢٩ حزيران سنة ١٨٣٦ م، ثم تلقن العلوم اللسانية وآداب الشعر وانكب على دراسة الطب أربع سنوات تحت نظارة طبيب إنكليزي كان في الشهباء، وأراد أن يتم دروسه في عاصمة الفرنسيين فسافر إليها في خريف سنة ١٨٦٦، وقد وصف سفره إليها في كتاب رحلة باريس الذي طبعه في بيروت سنة ١٨٦٧.

ولم يسعده الدهر في غربته فكرّ راجعاً إلى وطنه وتفرغ للتصنيف لا يكثر لما أصابه من ضعف البصر وانحطاط القوى حتى أفل نجم حياته فمات في مقبل الكهولة سنة ١٨٧٣. وكان فرنسيس صادق الإيمان كثير التدين وقد ألف كتاباً بناه على مبادئ العلوم الطبيعية والعقلية بياناً لوجود الخالق وإثباتاً لحقيقة الوحي سماه (شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة) أعرب فيه عن دقة نظر ومعرفة بأحوال الطبيعة والعلوم العصرية.

ومن مصنفاته التي تجمع بين الفلسفة والآداب فأودعها الآراء السياسية والاجتماعية على صورة مبتكرة كتاب (غابة الحق) الذي طبع في حلب سنة ١٨٦٥، ثم كرر طبعه في بيروت ومصر ومثله كتاب (مشهد الأحوال) المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٣ على أسلوب لطيف ونسق حديث. وفي بيروت طبعت له رواية حسنة دعاها (در الصدف في غرائب الصدف) ومما طبعه قبلها في حلب ١٨٦١ كتاب (المرأة الصافية في المبادئ الطبيعية) لخص فيه علم الطبيعة. ثم خطبة في تعزية الكروب وراحة المتعوب ١٨٦٤ وكتاب (الكنوز الغنية في الرموز الميمونة ١٨٧٠، وهي قصيدة رائية في نحو خمسمئة بيت ضمنها رموزاً خفية على صورة رواية شعرية. ومن نظمه أيضاً ديوان مرآة الحسناء.

وكان فرنسيس المارش يجب في كلامه الترفع عن الأساليب المتبدلة فيطلب في نشره ونظمه المعاني المتكررة والتصورات الفلسفية فلا يبالي بانسجام الكلام وسلالته، فتجد لذلك في أقواله شيئاً من التعقد والخشونة مع الأعضاء من قواعد اللغة فمن شعره قوله في الحماسة:

فيقوا من الغفلات يا أهل الوطن
حَتَّامَ أَنْتُمْ يَا بُزَاةَ رَوَابِضُ
هَجَمَ الْعَدُوُّ وَهَا الْغَبَارُ وَأَنْتُمْ
لَا تَحْجُلُ الْغَرِبَانُ مِنْ سَعَةِ الْفَلَا
نَادَاكُمْ الْوَطْنَ الَّذِي قَدْ ضَمَّكُمْ
كُرُّوا إِلَى الْأَعْدَاءِ كَرَّ الْأَسَدِي
فَأَصْغُوا لِصَوْتِ أَبِي لَكُمْ يَرْجُو الْحَمِي
أَوْ مَا تَرُونَ الدَّمْعَ مِنْهُ لِأَجْلِكُمْ
لَا يَحْسِنُ الْمَوْتَ الزُّؤَامُ لَدَى امْرِئٍ
وله في الزهريات:

هو ذا الصباحُ بدا وبالأنوارِ
والشمسُ قد نشرتُ بيارقها على
وعلى عمود الصُّبحِ قد شاد الضُّحى
والشرقُ أوتَرَ قوس نورٍ وانثنى
والليلُ مزَّقَ ثوبه حزنًا على
ما زال مَدُّ النورِ يرفع في العُلا
حتى امتلا جوف انقضاء من الضيا
فترنمَ القُمريُّ فوق غصونه
والنسرُ هبَّ إلى العُلا كأنه

طُبعت وجوه الكونِ من الإبصارِ
قمم الجبالِ أمام جيشِ نهارِ
بُرجِ النهارِ مسلَّحاً بالنارِ
يرمي على الدنيا سهامَ شرارِ
فقد النجومِ وغار في الأغوارِ
جَزُرَ الظلامِ كعاصفٍ لغبارِ
وزهت بذلك كافَّةُ الأقطارِ
طرباً وفاحت نسمةُ الأسحارِ
يبغي المسير مع السحابِ الجاري

وقال يشكو الدهر:

رأيتُ دمي يسيلُ من العيونِ
لكنك أذيقه كأس المنونِ

رمتُ قلبي نبال الدهر حتى
فلو كان الزمان يُصاغُ جسماً

وقال في خواص الجسم:

فيه فعنه قطُّ ليس تحولُ
جذبُ سكونٌ للتجزّي قبولُ

الجسم معروفٌ بستّ خصائصٍ
عدمُ التداخلِ وامتدادُ صورةٍ

ومن حكمة قوله:

من ملوكٍ إلى رُعاةِ البهائمِ
لا تنبي في ولائهم أو مآثمِ
باله والسير في القيدِ ناعمِ
مأهلاً ولذا مزايا ثلاثمِ
من قصور الملوك ذات الدعائمِ

صدّقوني كل الأنامِ سواءً
كلُّ نفسٍ لها سرورٌ وحزنٌ
كم أميرٍ في دسته باب يسقي
أصغر الخلق مثل أكبرها جرّ
والخلايا للنحل أعجبُ صنعا

وكان فرنسيس المراه يرسل أهل الفضل في زمانه كالشيخ ناصيف اليازجي وغيره. وله
مآثر عديدة وفصول إنشائية وأراجيز نشرها أرباب الجرائد في عهده كأصحاب الجوائب
والمحلة والزهرة والجنان.

ومن جيد وصفه قوله في الحسود:

ربحت تجارته بحظّ كيسٍ
وتنفس الصعداء أيّ تنفسٍ
ويلاه من تحسين حال المفلسِ
بكرأ غدا ذا رفعةٍ في المجلسِ
وانتاب سحنته ظلام الحنّسِ
إنّ السعادة لا ترى في المتعسِ

قال لزيدٍ إنّ عمراً فاز إذ
فأزورّ من غضبٍ وسكّرج عينه
وغدا يقول مخرطاً ومبرطاً
وكذاك لما أخبروا عمراً بأن
أرغى وأزبد خائراً كالمعتري
وانحاز يصرخ قد كذبتم فاصرخوا

فانسابَ كالأفعى وقال أعودُ من
والكلّ ييدون المسرة كلّها
تبّاً لبغيك أيها الإنسان ما
ذي كبرياؤك ياله من آفةٍ
عار غدا متبختراً في الأطلسِ
سمعوا بنائبةٍ سرت في الأروسِ
إيليسُ ربُّ النحاس منك بأنحسِ
كالأفعوان سعت لقتل الأنفسِ
وقد رثاه المرحوم بشاره الشدياق فقال يذكر تأليفه:

تركت يا مفرداً شأننا يذكّرنا
من مشهد قد جلا الأحوال بأن لنا
ومن غرائب ما شهدت من صدفٍ
ورحاً قبرت فيها قد حوت حكماً
شذاء كالمسك لما فاح في الظل
منه عجائب أفعال بلا خللٍ
أبهى من الدرّ أو أشهى من العسلِ
صيغت من الدرّ من قولٍ ومن عمل
ولفرنسيس المراه أختٍ واشتهرا أيضاً بالأداب نوجل ذكرهما، فنروي أخبارهما في
تاريخ القرن العشرين.

رزق الله حسون

ولد رزق الله حسون في حلب نحو سنة ١٨٢٥ من أسرة كريمة أصلها من الأرمن ودرس العلوم في دير بزمار في لبنان. وبعد أن قضى مدة في وطنه متاجراً سافر إلى الأستانة فتوطنها برهة من الدهر وصار فيها ناظراً لجمرك الدخان، ثم تجول في أوروبا ودخل فرنسا وروسيا وحل مدة في لندن، وكان في أسفاره يشتغل بالأدب العربية ويؤلف التأليف الثرية والشعرية. كان خطه بديعاً وفي المكتبة الشرقية من قلمه عدة كتب تأخذ بالأبصار لجودة خطها وإتقانها، كتبها على ورق جميل النقش كان انتسخها في أوقات الفراغ في خزائن كتب أوروبا كصبح الأعشى للقلقشندي وديوان الأخطل وديوان ذي الرمة والمتم لابن درستويه ونقائض جرير والفرزدق والأناجيل المقدسة ترجمة الدبسي.

وبعد حوادث سنة ١٨٦٠ قدم إلى الشام في صحبة فؤاد باشا فكان يعرب مناشيره وأوامره. ثم عاد إلى إنكلترا واشتغل بالتأليف في قرية (ونزورث) بقرب قصر الملكة فكتوريا، ومما صنفه وقتئذ ثم طبع في المطبعة الأميركية في بيروت سنة ١٨٦٩ و١٨٧٠ كتابه (الشعر) أودعه نظم سفر أيوب ونشيد موسى في الخروج ونشيدته في التثنية، ثم سفر نشيد الأناشيد لسليمان، وسفر الجامعة وختمه بمراثي أرميا. ودونك مثلاً من ترجمته وهو وصف أيوب للفرس:

فهل تُعطي الجوادَ يخبُّ عزمًا	وتكسو عنقه عرقاً بسينا
أتوثبه كمثل جرادة نَفْـ	نَحْ منخره مهيب السامعينا
ببطن الخبث بحاثٌ وتُوبُّ	بيأس يلتقي الحُرْب الزبونا
ويهزأ بالمخاوف ليس يخشى	عن الأسياف لم يُججم جينا
تصلُّ عليه واقعةٌ سهامٌ	وترهقه رماح الدارين

ويطوي الأرض في وثبٍ ورجزٍ
إذا ما البوقُ يُنفخُ قال هه من
ولهذا المثال الآخر من نظمه لمراثي أرميا:

أنى خلا منها الأنيسُ البلدةُ
صارت كأرمليةٍ معظمةٍ الملا
تبكي دماً والدمعُ فوق خدودها
أصحابها غدروا بها طراً على
ملاى شعوب بالجللاء تشَّتتوا
أم القرى ضُربَت عليها الجزيةُ
فقدت عزاءً خليلها ووُدودها
نمطِ العدا أضحوا شاتٍ حسودها

ومن مآثر رزق الله حسون كتابان آخران طبعهما في لندن: الأول كتاب النفثات ضمنه أربعين مثلاً من أمثال أحد كتبة الروس يدعى إيفان أندريفتش كورلف فنقلها حسون إلى العربية ونظمها شعراً وألحقها ببعض مقاطيع شعرية من نظمه. والتعسف في كثير منها ظاهر وأغلاطها عديدة هذا منها مثال:

دفع الجوعُ والدُّجى الذئبَ حتى
طارقاً لحظيرةٍ ناظراً من
فرأى الغنمَ المساكين والسكَّ
يذبحُ الحمَلَ السمين ويُلقي
والكلابُ روابضٌ ونيامٌ
فقضى عجباً وولى كئيباً
قائلاً يا كلابُ كم تنبحوني
أن تدانى إلى سُهول البقاعِ
نُقِبَ صخر يلوحُ ضوءُ شعاعِ
ين في كفِّ حاسرٍ من ذراعِ
للعرى الكِرشَ والمعى في الفقاعِ
لا تذبُّ ولا يَنبُحُ تُداعي
خائباً من مرامِهِ والمساعي
لو تعدَّيتُ مثل هذا الراعي

والكتاب الآخر هو ديوان حاتم الطائي، طبعه سنة ١٨٧٢ م، وكان رزق الله حسون من رجال السياسة يسعى مع الأحرار في إصلاح تركيا، وذلك ما ألجأه إلى سكنى لندن في آخر حياته، وهناك طبع جريدته مرآة الأحوال سنة ١٨٧٦، وكانت أقدم الجرائد العربية في الأستانة، وشفعها سنة ١٨٧٩ بمجلة سياسية كان مدارها على حال المسألتين الشرقية

والمصرية. أما وفاة المترجم فوُجعت سنة ١٨٨٠، مات فجأةً في لندن. وكان رزق الله حسون صديقاً لأدباء زمانه يكاتبهم ويساجلهم، فمن ذلك ما كتب لبطرس كرامة:

خدين المعالي وابن بجدتها الفردُ
 وذاك ربُّ العرشِ أسنى كرامةٍ
 ولا زلتَ في أمنٍ وموفورِ نعمةٍ
 وبعُدُ فقد طال البعادُ ومهجتي
 وما لي عن لُقياك صبرٌ ولا غنى
 ألا بئسما الأيامُ أغرت يد النوى
 موانعُ حالت دون فرضِ زيارتي
 وأصبحتُ من إبطائك في هواجسٍ
 فأبغي للاطمئنان منكم ألوكةً
 ومما نظمه فيه المعلم بطرس كرامة أبيات قالها لما اقترن سنة بسيدة تدعى ماتلد ١٨٤٨ م
 فقال:

نهاديك يا نجل الفؤادِ تهانئنا
 بخير اقترانٍ جاء وهو مباركُ
 فلا زلتما طول الزمان بصحةٍ
 زفاف سعيدٌ والهناء مؤرُخُ
 تنبئُ عن أفراننا حيننا تبتدو
 يقارنهُ بر ويصبحهُ سعدُ
 وعيشٍ رغيدٍ بُرُدُهُ الأمن والرغد
 موافٍ لرزق الله بالخير ماتلدُ
 ولرزق الله في الهجاء قوله في يوسف حجار أحد عملة نصر الله دلال الحلبي، وكان استغنى
 بعد فقر فترفع:

المرء يُذكر بالأعمال لا المالِ
 ليس الثراء بمُجدي النَّائلِيه ثنا
 وهل سمعت بذِي كبرٍ وذِي صلفٍ
 أحسنُ بخيرهما عن كسب رئبالِ
 إن كان ما جمعوه سُحَّت أوبالِ
 يرقى المعالي بطول القيل والقالِ

قد ظنَّ يوسف حجاراً بغرته
فجاء يخطر لا يلوي على أحدٍ
الله أكبرُ هذا حالُ ذي شططٍ
إن ساعدتك الليالي كن على حذرٍ
هلاً تذكرت أياماً سلفنَ وقد
ومنها:

أن العلى هزَّ عطفيه كمكسالٍ
يتيه عجباً بإدبارٍ وإقبالٍ
نال المنى بعد إقتارٍ وإقلالٍ
فما تدوم على لون ولا حالٍ
مضت بخدمة نصر الله دلالٍ

أبا هبنقة القس الذي اشتهرت
قد استرحت من العقل الرصين ورا
لا تأسفنَّ على ما فات عن عرضٍ
قد عاش قلبك عجلٌ وهو ذو إحنٍ

أخباره سُدَّ بجدِّ ناعم البالٍ
عي الضان يحكيك في جهلٍ وأمثالٍ
فالنوك داءٌ ولكن غير قتالٍ
لكننا أنت لا تُعزى إلى آلٍ

جرجس عيسى

ولد الخوري جرجس عيسى في معلقة زحلة وانضوى إلى الرهبانية الحناوية في الشوير سنة ١٨٤٥، ثم تلقى العلوم الدينية وأنس في نفسه ميلاً إلى الآداب العربية فتخرج فيها على الشيخ ناصيف اليازجي فأتقنها. ودرس الفقه على الشيخ يوسف الأسير فبرع فيه ونصب مدة حاكماً للنصارى في عهد الأمير بشير أحمد اللمعي. وفي إثر حوادث سنة ١٨٦٠ سافر إلى أيرلندة، فجمع إحسانات وافرة خص منها بعد عودته إلى سورية قسماً لبناء المدرسة البطريركية. ولما فتحت هذه المدرسة سنة ١٨٦٦ كان الخوري عيسى أول رؤسائها وقام بشؤونها الدينية والأدبية أحسن قيام ودبرها سنتين، وإليه أشار سليم بك تقلاً في مدحه للمدرسة المذكورة حيث قال:

وقد خصَّها من قبلُ في جرجس الذي أبان ابتداها وابتغى الكدَّ والقهرا
وقاسى بها كل الصَّعاب مجاهداً وجملها علماً وقدرأً كذا ذكرا
ثم عاد الخوري جرجس إلى دير مار يوحنا الصايغ، وتعاطى أعمال الرسالة والوعظ وإرشاد المؤمنين في لبنان وبيروت بغيرة وتقى حتى ذهب في ٨ آب سنة ١٨٧٥ شهيد تفانيه في خدمة المصابين في الهواء الأصفر. فمات في بيروت مأسوفاً عليه، وقد رثاه الشيخ خليل اليازجي بدليته التي أوها:

سقاك من الحيا صوبُ العهدِ بدمعٍ سال من مُقل الغوادي
وكان الخوري جرجس عيسى شاعراً مجيداً له ديوان مخطوط، ومن نظمه قوله من قصيدة يمدح بها الشيخ ناصيف اليازجي:

إذا عُرِضت مسائلنا لديه نراه حلها حالاً تصدَّى
فيوضح رمزها لفظاً ومعنى ويكشف سرها قرباً وبُعداً

تجاوز في المهابة منه حدًا
وقدّم رأيه فيه تبدي
ففتواه الصحيحة لن تُردًا

له في مجلس العلماء مرأى
إذا اختلف النحاة بحكم أمرٍ
وإن أفتى بخطّ أو لسانٍ

جرجس إسحق طراد

وكذلك عرف في تلك المدة شاعرٌ من أسرة وجيئة في بيروت اسمه جرجس إسحق طراد تكرر ذكره في منشورات زمانه كالجوائب والنحلة وغيرهما. وله هناك فصول نقلها من اليونانية وقصائد منها قصيدة دعاها المصباح مدح فيها العلم، ومن أبياتها قوله:

العلم مصباحٌ منيرٌ في الورى والجهل ليلٌ مظلمٌ لن يلمعاً
فاسعوا بكسب العلم سعياً كاملاً والله يعلي كلَّ خيرٍ من سعى
واجلوا شمس العلم في بيروتنا فالجهلٌ غيرٌ بسيفه لن يُردعاً
وله من أبيات في مدح مجلة النحلة سنة ١٨٧٠م:

هي نحلةٌ من كلِّ فنٍّ قد جنتُ وجلت عن التاريخ ما هو مظلمٌ
هَبُّوا بني الأوطانِ واجنُّوا شهدها قد حان أنْ قطافه والموسمُ
وشي صحائفها جليلٌ ماجدٌ في وصفه الأوطانُ تزهو وتبسمُ
وقد رثى الطيب الذكر المطران طوبياً عون رئيس أساقفة بيروت الماروني سنة ١٨٧١م،
بمرثية قال فيها:

خطبٌ جسيمٌ دهانا اليومِ وأسفي كلُّ إذاً قائلاً قد ضاع مصطبري
فقد الهامِ الكريمِ الحاذقِ الورع الذي تردى بثوب الخير والطهر
عونُ الفقيرِ حليمٌ ماجدٌ فطنٌ شهيمٌ شهيرٌ وذو قلبٍ بلا وضرٍ
وقد مدح أيضاً إسماعيل باشا خديوي مصر فقال من قصيدة:

على إسماعيل سيدنا سلامٌ ترده الأكايرُ والصغارُ
إذا ما غاب غاب العزُّ معه كما إن عاد عاد لنا الفخارُ

لعزته نخرُّ الأسد طوعاً
فما الإسكندرية في حماه
ومصر الآن في الأقطار خُودٌ
ومن حكمه قوله:

ما كلُّ من رامَ نظم الشعر يدركه
ليس الذي عاش أياماً مطولةً
بين الحياة وكلِّ الناس معركةً
ولا الذي رام يفدي الناس يفديها
بل الذي عرك الأيام يدرىها
بالحظِّ والبؤس تفنينا ونفيها
وكان مولد هذا الشاعر سنة ١٨٥١م، ووفاته في كانون من سنة ١٨٧٧م.

قيصر أبيلا

له على قصيدة دينية حسنة النظم وهي عبارة عن مفاوضة غاية في الرقة بين الله والخاطيء
أولها:

يدعوك ربُّك أيها المتمرّدُ حتّام في الليل المعاصي ترقدُ
فأجب نداءه واعتصم بحباله فهو المجير وغيره لا يعضدُ
وله من الآثار منها نبذ في مواد علمية وصناعية وأدبية نشرها في مجلة النحلة، توفي قيصر في
شرح شبابه في صيداء سنة ١٨٧٣، فأرخ وفاته نقولا أفندي النقاش:

قد غبت يا بدرأ منيراً بالثرا وغدا الظلام مخيّاً فوق الوري
وكسوت أبيلا كساء تفجع حاشاه أن يغني وأن يتغيّرا
رفقاً بأدمع واله يا آله وتصبروا فكفناكم ما قد جرى
أين القياصرة المعظم قدرهم فالكل ساروا والبقاء تعدّرا
ونعم فقدتم قيصرأ لكننا أرّخ غدا بالله قيصر قيصرأ (١٨٧٣)
ومن شعر قيصر أبيلا قوله في وصف الدنيا ونكباتها:

ذر الدّهر فالأيام فاسخة العقيد وناشرة البلوى وطاوية العهد
وما هذه الدنيا سوى دار ذلّة وفيها يجول المرء في الهمم والكد
نروم بها طول البقاء ودونه سيوف القضا بالفتك ماضية الحد
تخادعنا الدنيا بوعد مسرة وليس البأساء فيها وفا الوعد
تسل على ذي الملك والجاه سيفها كما أنّها تسطو على أحقر العبد
وهيهات ما الدنيا الغرور بمنزل ولكن بها نجري إلى منزل الخلد

وكلُّ على هذا الطريقِ مسافرٌ
ومن مديحه قوله في مجلة النحلة:

فلا صاحبٌ يفدي ولا ثروةٌ تُجدي

ألا حبَّذا القومُ الكرامُ الألى لهم
عليهم ثناءٌ لا يزال مؤبدا
فأكرمُ بمن من روضِ أفكارهم لنا
تطيب لنا مما حوته فوائدُ

على وطنٍ من خير أفضالهم فضلُ
يطيبُ كما طاب الذي جنتِ النحلُ
جني نحلةٍ يجلو وأثانهُ تغلو
وأعذبُ شيء ما يلذُّ به العقلُ

الشيخ يوسف الأسير

ولد الشيخ يوسف ابن السيد عبد القادر الحسيني الأسير في صيداء سنة (١٢٣٠ هـ) (١٨١٥ م) فتلقى في وطنه مبادئ العلوم العقلية والنقلية عن علماء الأزهر. وبعد سبع سنين عاد إلى الشام وسكن في كثير من مدنها يتعاطى العلوم الفقهية، وتولى في الأستانة رئاسة التصحيح في دائرة نظارة المعارف، لكنه آثر العود إلى وطنه وتفرغ للتأليف في الفرائض والأبحاث الفقهية وخرج في الفقه كثيرين من الأحداث وعلم مجدة في مدرسة الحكمة، وكان زكي الفؤاد فصيح اللسان يجيد النثر والنظم.

ومن آثاره الأدبية التي خلفها شرح أطواق الذهب للزمخشري، وكانت وفاته سنة ١٣٠٧ / ٢ كانون الأول ١٨٨٩ وللشيخ يوسف الأسير موشحات وقصائد متفرقة وأبيات حكمية جمعها في ديوانه الروض الأريض الذي في بيروت سنة ١٣٠٦ هـ. ومن حسن أقواله ما وصف به الشعر الجيد وناظمه:

خليليّ كم قد جدّ في الناس شاعرٌ وليس له بيتٌ من الشعر عامرٌ
وأحسنُ شعرٍ ما نراه مهذباً بليغاً به يلتدُّ بادٍ وحاضرٌ
به تطرب الأسماع من كل مُنشدٍ وتجري به الأمثال وهي سوائرٌ
ولم ير غبناً من شراه بهاله وفيه بلا شك تُسرُّ السرائرُ
وله في لبنان بعد أن فاز بالدستور بعد مذابح سنة ١٨٦٠ م:

ترى لبنان أهلاً للتهاني فقد نال الأمان مع الأماني
وأضحى جنّةً من حلّ فيه قريبَ العين مسرور الجنانِ
وجدت العلوم به دروسٌ وكانت في الدروس وفي التواني
وللأخبار قد وُجدت سلوكٌ كذلك طبع ذي الصحف الحسانِ

بحقِّ كاملٍ في ذا الأوانِ
بداودِ سليمان الرمانِ
وذي الرأي المصيب بكل شأنِ
شديد العزم محمود المعاني

وَمَنْ وَرَدَ الشَّرِيعَةَ فِيهِ يَصْدُرُ
وَذَاكَ مَهْمَّةُ الشَّهْمِ الْمَسْمَى
عَظِيمِ الشَّأْنِ ذُو هِمَّةِ الْعَوَالِي
سَدِيدِ الْحَزْمِ مَمْدُوحِ الْمَعَالِي
وَمَنْ مَدَحَهُ قَوْلُهُ فِي أَسْرَةِ بَنِي الْعَطَارِ فِي دِمَشْقَ:

قد ملكتم بمزيد اللطف رقي
طيبَ وردِ الروض في نشر ونشق
ولكم أصل نما من خير عرقِ
ثم إن الشيخ منكم شمسُ أفقِ
ضوءكم لاح بغرب وبشرقِ
وبمعروف وإحسان ورفقِ
ذو اعتلاءٍ فلکم أقباب سبقِ
يا سراً أحرزوا كل ترقي
حاكياً في ورقِ تغريد وُرقِ
مع رغيد العيش في أوسع رزقي

يا بني العطار يا عطرَ دَمَشْقِ
فاح في الكون شذاكم فائقا
أسماء المجد سام فرعكم
طفلكم نجمٌ وبدرٌ كهلكم
يا بدور الشام يا أهل العلا
سدتم الناس بعلم وتقى
فإذا رام مجارةً لكم
حبّذا الأسرة أنتم في الورى
أنالاً أبرح أشدو بناسمكم
زادكم ربي علوماً وهُدَى
وافتح رثاء شريفٍ بقوله:

حيث أي لرحمة الله أسري
بعضها البعوض كأموج بحرِ
مأ ودينا قد فارقتها بحرِ
حامٍ يُستخرجون منها بقسرِ
أو هي الجسر قد أعدّ لعبرِ

إنما موقتي كإطلاق أسري
إن أكدار هذه الدار يتلو
ألفت أنفس البرية أجسا
هم فيها مثل الأجنة في الأر
وهي كالفلك قد أعدّ لنقلِ

أنس الغافلون فيها وأنسوا
 إني لا تكونون دار مقـرّ
 لو درى الغافلون فيها بقاءً
 أيقنوا أنهم بأعظم خسـرٍ
 هي دار السلام ما تشتهي الأنفـ
 س فيها من كل خير وبرٍ
 لا يملُّ الإنسان فيها مقاما
 إذ تخلّلت من كل شرٍّ وضـرّ
 وللشيخ يوسف مراسلات نثرية وشعرية مع أدباء زمانه تجدها في تأليفهم كالشيخ إبراهيم
 الأحـدب وأحمد أفندي الشدياق. وقد مدحه الشيخ ناصيف بقصيدة يقول فيها:

أسير الحق في حكمٍ تساوى
 فما يُدرى الحبيب من البغيضِ
 يقلب في المسائل كل طـرْفِ
 ويلقى الناس بالطرف الغضبيضِ
 إمام الشعر يتدع القوافي
 ويأمن من دوتها حول القريضِ
 يقل له الثناء ولو أخذنا
 قوافيه من الروض الأريضِ
 ولما توفي قال فيه الشعراء مرثي عديدة جمعها الشيخ قاسم الكستي في مجموع نشر بالطبع.

الشيخ إبراهيم الأحذب

كان مولده في طرابلس الشام سنة (١٢٤٢هـ) (١٨٢٦م) وطلب العلوم اللسانية والأدبية منذ نعومة أظفاره فبرع فيها. ثم عكف على التدريس في طرابلس وبيروت فعد فيها من نوابغ عصره فتقرب إليه الأدباء وأقبل عليه الأعيان والحكام وقلدوه المناصب الخطيرة ككتابة الأحكام ورئاسة الكتابة. ثم تعين كرئيس لكتاب محكمة بيروت فتعاطى شؤونها نيافاً وثلاثين سنة. وكان أحد أعضاء مجلس المعارف في الثغر فامتاز فيه بسعة آدابه وحسن ذوقه.

وقد حرر مدة ثمرات الفنون فأودعها كثيراً من أثمار آدابه. وكانت وفاته في رجب في سنة (١٣٠٨هـ) (١٨٩١م). وقد بلغت تأليفه الأدبية نحو العشرين (كشوف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان) وكتاب (فرائد اللآل في مجمع الأمثال) الذي نظم فيها أمثال الميداني. وكان الشيخ إبراهيم الأحذب قريحة شعرية غريبة حتى أن مجموع أبيات قصائده يكاد يبلغ ثمانين ألف بيت. فله ثلاثة دواوين ومقامات جارى فيها العلامة الحريري عددها ٨٠ مقالة وألف عدة تأليف كروايات أدبية ومناظرات ورسائل ومجاميع حكمية ومقالات مسجعة، وغير ذلك مما عدده نجلاه الأديبان في مقدمة مجمع الأمثال. ومن شعره ما قاله يمدح الأمير عبد القادر الجزائري:

غدا نظامي بها في أرفع الدرج
أبيات شعري فراقت كل مبتهج
من الأنامل يجري الدرّ في خلج
سورية بسناها الفائق البهج
إلا لمزكوم طبع غدّ في الهمج
في الغرب آثاره كالصبح في البلج

إني بمدح ابن محيي الدين ذو همم
وفي مآثر عبد القادر اطّردت
غوث النزيل وغيث فيض نائله
شمس أنارت بلاد الشرق فابتهجت
في الكون آثاره كالمسك قد نفحت
لله غرب حسام منه قد شهدت

لا زلت تهدي لك الأمداح ما طلعتُ شمسُ بنورك تغنينا عن السُّرْحِ
وقال في الرجز ناظماً بعض أمثال رويت لأبي بكر الصديق:

يَرْهَبُ عَبْدٌ رَاغِبٌ فِي كُلِّ مَتِي	يَقْرَنُ رَبِّي الْوَعْدَ بِالْوَعِيدِ كِي
تَعَزَّى يَا سَامِي بِمَا قَدْ نَزَلَا	لَيْسَتْ مَعَ الْعِزَا مَصِيبَةٌ إِلَّا
مَعَ أَنَّهُ أَهْوَنُ مِمَّا بَعُدُّ	الْمَوْتُ مِمَّا قَبْلَهُ أَشَدُّ
لِامْرَأَةٍ حَيْثُ جَنَوْنَا ضُرَّهُمْ	قَدْ ذَلَّ قَوْمٌ أَشْنَدُوا أَمْرَهُمْ
تَرَاكَ مِمَّنْ جَلَّ فَالزَّمْ دِينَا	إِنَّ عَلَيْكَ أَبَدًا عِيُونَنَا
أَخَاهُ بِالنَّفْسِ وَمَا أَهَانَا	وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَعَانَا
وَأَفْعَلَ جَمِيلاً يَغْدُ خَيْراً فَعَلَكَا	وَالنَّفْسَ أَصْلَحَ يَصْلِحُ النَّاسُ لَكَا

أبو الحسن الكستي

هو الشيخ أبو الحسن قاسم بن محمد الكستي أصله من بيروت وفيها اشتهر نحو أربعين سنة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان مولده نحو سنة ١٨٤٠ م، أخذ الآداب عن أئمة زمانه فلما رسخت فيها قدمه صار مرشداً لغيره، وتعاطى التدريس مدة بين مواطنيه من أهل ملته. وقد مات الكستي في منتصف سنة ١٩٠٩ م، ومن آثار فضله ديوانان أحدهما ديوان مرآة الغريبة طبع على نفقة السيد سليم رمضان سنة (١٢٧٩ هـ) (١٨٨٠ م) افتتحه بقصيدة ابتهالية هذا أولها:

إليك رفعنا الأمر يا من له الأمرُ فمن فضلك الإحسان والنفع والضُرُّ
تعطف وجُد بالخير يا خير منعمٍ على كَسْرنا يا من به يحضُل الجَبْرُ
عليك اعتاد الخلق في كل أمةٍ وبابك مقصودٌ به الفتح والنصرُ
فقلت لنا اذعوني دعوناك ربنا أجب سؤلنا بالخير يا ربُّ برُّ
وديوان ترجمان الأفكار طبع سنة ١٢٩٩ هـ. ومن شعره ما مدح به سعيد باشا عزيز مصر لما قدم إلى بيروت:

عزيز مصرٍ سعيد الوقت ذو شرف إلى علاه تناهى المجدُّ والحسبُ
يتيممة العقد أضحى في العلى ولذا قد صاغ مدح علاه العُجمُ والعربُ
إننا لنشهد منه كل مكرمةٍ لها المحامدُ دون الناس تنتسبُ
عن وصفه ومزاياهُ وأنعمه تقاصر الدرُّ والأزهارُ والسحُبُ
مآثر العزِّ في علياه مشرقةٌ كالشمس لكن سناه ليس يحتجب
من معشر لهم في كل كائنةٍ ذكرٌ تولد من أسبابه الطرب
وقال في الحكم:

وعالم لا نفع في علمه
ولم تكن أعماله صالحة
فهو بحكم العقل بين الملا
كوردة ليس لها رائحة
وله مضمناً الشطر الأخير:

أيها الإنسان لا تجنح إلى
وأفطم النفس عن الشر تجد
طرقات الغي والزم ورعك
كل خيرٍ ترجيه تبعك
و بحال الفقر أو حال الغنى
كُنْ مع الله تر الله معك
وسمع يوماً شاكر بك يدق العود فاستفزه الطرب فقال على البديهة:

بشاكر هذا العصر طابت نفوسنا
وتغرُّ الهنا أمسى به يتبسم
ترى كلَّ عودٍ من جمادٍ وعوده
يحسُّ وعن سرِّ القلوب يترجم
وللشيخ القاسم الكستي عدة أراجيز طويلة حسنة منها أرجوزة تنيف على مئة بيت وصف
فيها مكارم الأخلاق في النساء الصالحات. ومن أراجيزه الحكيمة قوله:

لم يخل في الدنيا كريمٌ من أذى
ولو تواری في مغارات الخفا
ومن يظنُّ أنه يبقى بها
وإن يكون ناجياً من ضرِّها
فتانئةٌ تُضحكنا لكنَّها
فلم نجد لعفوها من سببٍ
ونظم أرجوزة فكاهية وصف فيها الملوخية على سبيل المداعبة:

سُبْحانَ من أنبت في الوجودِ
حشيشةً كجوهراً العقودِ
وقد سقاها من غيوث الرحمة
فحملتْ لكن ثمار الحكمة
هي الملوخيَّة ذات الشهرة
ومن بها المعسورُ يلقى يُسره
بحسنها كل النفوس ابتهجت
وألسن الناس بها قد لهجت

وَصُـبِغَتْ بِلَوْنِهَا الْعِمَائِمُ
 وَصَحَّحَّ مِنْ تِرْيَاقِهَا جَرِيحُ
 تَظْهَرُ كَالصَّبِيحِ لِذِي عَيْنَيْنِ
 صَالِحَةٌ لِمَدْحِ كُلِّ مَادِحِ
 يَشْمُهُا مَنْ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ
 خَوْفًا عَلَيْهَا مِنْ يَدِ الزَّمَانِ
 كَمَا صَعِدَ الْبَالُونُ فِي الْهَوَاءِ
 فَأَصْبَحَ الْكَوْنُ بِهَا مَنْسَمًا
 بِسُكْرِهِ حَلَاوَةَ الْمُدَامِ
 يَأْكُلُهَا كُلُّ شَرِيفٍ رَاضٍ
 فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِهَذَا النِّقْطَةِ
 وَقَدَرُهَا تَسْمُو بِهِ الْمَوَائِدُ
 تُقَرِّعُ بِالْأَسْنَانِ كَالصَّوَاعِقِ
 تَشْرِقُهَا الْأَبْصَارُ قَبْلَ الْمَبْلَعِ
 فَمَلَّؤُوا بِهَا بَطُونَ الْكُتُبِ
 وَقَالَ مِنْهَا يُصْنَعُ الْمَعْجُونُ
 وَجَوْفُهُ لَهَا اسْتَقَرَّ مَنْزِلًا
 بِقِرَاطٍ أَنْ يَسْتَعْمَلُوهَا شَرِبًا
 لَا تَبْخُلُوا بِهَا عَلَى الْبَطُونِ
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ تَفْنَنُ فِيهَا الشَّاعِرُ مَا شَاءَ، وَمَنْ فَكَّاهَاتِهِ مَا رَثَى بِهِ طَائِرًا مِنْ نَوْعِ الْكِنَارِمَاتِ

كَمْ هَطَلَتْ مِنْ فَوْقِهَا الْغِمَائِمُ
 وَكَمْ مَشَى يَأْكُلُهَا كَسِيحُ
 خِيوطِهَا بِيَضَاءٍ كَاللُّجَيْنِ
 فَاقَتْ عَلَى الرِّيحَانِ بِالرَّوَائِحِ
 لَوْ أَنَّهَا قَدِ نَبَتَتْ فِي اللَّدِّ
 يَحْرَسُهَا النَّاطُورُ فِي الْبِسْتَانِ
 بُخَارِهَا يَصْعَدُ بِالْهَبَاءِ
 كَأَنَّهَا قَدِ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ
 وَطَعْمُهَا يَجْلِبُ لِلْأَفْهَامِ
 مَيَّاسَةٌ الْأَعْطَافِ فِي الرِّيَاضِ
 عَنْهَا سَأَلُوا مَضَرَ وَتِلْكَ الْخَطَّةُ
 إِذْ عِنْدَهُمْ لَهَا اعْتِبَارُ زَائِدُ
 تَرَى عَلَيْهَا كَثْرَةَ الْمَلَاعِقِ
 إِنْ مُلِئَتْ بِهَا بَطُونَ الْقِصَعِ
 وَتَرَجَمَتْ عَنْهَا فَحُولُ الْمَغْرِبِ
 وَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ أَفْلَاطُونُ
 كَانَتْ لِلْقِمَانِ الْحَكِيمِ مَأْكَلًا
 وَكَانَ يَوْصِي سَائِرَ الْأَطْبَا
 كَذَا ابْنُ سَيْنَا قَالَ فِي الْقَانُونِ
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ تَفْنَنُ فِيهَا الشَّاعِرُ مَا شَاءَ، وَمَنْ فَكَّاهَاتِهِ مَا رَثَى بِهِ طَائِرًا مِنْ نَوْعِ الْكِنَارِمَاتِ
 لِأَحَدِ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ يَعْزِيهِ:

فإنه من أحسن الأطيّار
ومُحَمَّدٌ لذاته الأثَارُ
من حقه وقُمتَ بالذي طلبُ
ومن أبيه يا رفيقي أرفقا
لكن رمَاهُ ريشه بعَلَّه
والموت إن حلَّ فما الدواءُ
والتزمِ الشكرَ تكن مأجورا
فديته من طارق الليالي
لا ينفَعُ الحزمُ ولا تُغني الحيلُ
يكون بالثغريد منه خيرا
يشنّف الأسماع بالجواهرِ
إذا شدا بصوته الرخيمِ
وربّما استغني عنها إن بدا
يدعو إلى الغبوق والصبّوح
على اللّجّين وهو بالحسن ذهبُ
ملوّن الررداء كالعروسِ
من ذهبٍ قد صيغَ لا من قارِ
ملازم الخلوّة بانفرادِ
حتى أباده القضاء والقدرُ
وإن يكن من الطيور الصادحة

يا صاحبي عزّيتَ بالكنارِ
قد صدحت بمدحه الأخبارُ
ولم تقصّر في أداء ما وجبُ
من أمه كنتَ عليه أشفقا
مامات من جوع ولا من قلّة
لا يُرتجى لدائه شفاءُ
عليه لا تحزنُ وكن صبورا
لو كان يُفدى بالنفيس الغالي
لكن إذا ما حادثُ الموتِ نزلُ
عوضك الرحمن عنه طيرا
فما رأينا قبله من طائرِ
يُغني عن المدام والنديمِ
أين الكمنجما منه صوتاً إن شدا
فياله من طائرٍ صدوحِ
ذو ذنبٍ فائقٍ والله العجبُ
مزينٌ بالتاج كالطاووسِ
لله حسنٌ ذلك المنقارِ
قد كان في الدنيا من الزهادِ
وعاش محبوساً ولم يشك الضجرُ
فإنّي أهدي إليه الفاتحة

عبد السلام الشطي

الشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن المعروف بالشطي الدمشقي. أصل أسرته من بغداد، وولد هو بدمشق سنة (١٢٥٦هـ) (١٨٤٠م) ثم درس العلوم الدينية والفقهية على علماء الفيحاء وتعبد على الطريقة القادرية، وكان صبياً للأدب مشهوراً بفطر الذكاء وحسن النظم غلب على شعره اللطف والعدوبة. وله ديوان جمع بهمة حفيده محمد جميل الشطي سنة ١٣٢٤. وقد سافر المترجم إلى بلاد الروم مرتين ودخل القسطنطينية سنة (١٢٩٣هـ) ووجه عليه تدريس أدرنه وخصص له راتب سنوي من الصرة السلطانية. توفي فجأة في دمشق في ١١ محرم سنة (١٢٩٥هـ) منتصف كانون الثاني ١٨٧٨م. ومن شعره ما قاله في وصف بيروت وتمنتها بسحب ماء نهر الكلب إليها:

بيروت إني في هواها أرغبُ	من ثغرها البسّام طابَ المشربُ
يا حسنها من بلدة قد خصّها	ربُّ العباد بما يسرُّ ويطرِبُ
بين البلاد بديعةٌ فكأنّها	شمسٌ على أفقِ العلى لا تغربُ
يا طالما قد زرتّها فوجدتها	ظمانّةٌ من حرّها تتلّهّبُ
حيرانةٌ حار الطيب بدائها	ودواؤها قد عزّ فيه المطلبُ
تشكي وتبكي حسرةً وتأسفا	من فقدها ما تشتيه وتطلبُ
من بعد ذاك أتيها فوجدتها	تحتال من عجبٍ وذيلًا تسحبُ
فسألتها عن حالها فتبسّمت	وانهّل من فيها فراتٌ أعذبُ
فاستيقنت نفسي ببرد حميمها	فغدوت في نعمائها أتغلّبُ
وأتيت في هذا النظام مهنتا	إذ جاءهم هذا الطهور الطيّبُ
ورجوت من فضل الإله دوامه	في كلّ حين دائماً لا يُسلبُ

وكتب رقعةً دعا بها بعض أصحاب الفضل من أصدقائه:

يا سادةً في دُورهم
وزينوا بجمعهم
ومتّعوا بقرهم
إذا أردتُّم إننهُ
أعطوه منهُ موثقاً
في ليلةٍ لطيفةٍ
ويرتجبي من فضلكم
وقال مستغفراً عن ذنوب شبابه:

يا ربَّ إنَّ العبد عبدٌ مذنبٌ
قد قطف اللذات في شبابه
وهو فقيرٌ مالهُ عنك غنى
بجهله فاغفر له ما قد جنى

محمد الميقاتي

الشيخ محمد أفندي ابن عبد القادر الميقاتي، كان طرابلسياً أديباً له النظم الرائق فجمع شعره بعد وفاته سنة (١٣٠٢ هـ) (١٨٨٤ م) الأديب عبد الحميد بن محمد حبلى أحد مواطنيه وطبعه في بيروت في المطبعة الأدبية سنة ١٣٠٤ هـ، ودعاه ديوان حسن الصياغة لجوهر البلاغة. فمن قوله يعاتب الدهر:

الدهر شيمته بيدي لنا العجبا فلا تكن من فعال الدهر معتجبا
ولا تنق بشراب منه وقت صفا فيستحيل سرايا صفوه وهبنا
ولا يغرك ما يوليك من منح فغلبها محن تزكو به لهبا
إن يسمح الدهر يوماً يسترد غدا أو يحسن الدهر يوماً بالأسى انقلبا
هيهات يجدي الفتى من الدهر مهرب ولو سما فوق أفلاك السما هربا
فالصبر أجمل بالحر الكريم على ما خصه قلم الأقدار أو كتبنا
مالي وللدهر يرميني بكلكه كأنني قاتل أماله أو أبنا
ويلاه من زمني كم ذا يقابلني من جوره بالأسى ويلاه وأخربا
أهل البسيطة قد أثنت على أدبي وأذعنت لي بأني سيد الأدبا
ودأب قومي معاداتي ومنقصتي ولا أرى لي ذنباً لا ولا سببا
لا ذنب لي غير أني فقتهم شرفا وإنني فقتهم بين الورى رتبا
ما ضرني لا أقال الله عثرتهم لو أنهم قابلوا فضلي بما وجبا
وله مؤرخاً داراً بناها آل كتسفليس في طرابلس:

لكم الهنا يا آل كـ فليس يا أهل المآثر

جَدَّدْتُمْ فَوْقَ الْعَلَى بَيْتَ الْمَكْرَمِ وَالْمَفَاخِرِ
بَيْتٌ لِحَسَنِ بِنَائِهِ بَدْرُ الْمَسْرَةِ فِيهِ سَافِرُ
قَدْ شَادَهُ إِسْكَندَرُ مَنْ فَضَّلَهُ فِي النَّاسِ ظَاهِرُ
وَالسَّعْدُ حَوْلَ رِحَابِهِ بِالْعَزِّ وَالْإِقْبَالِ دَائِرُ
وَفِي السَّعَادَةِ قَدْ غَدَا أَرَّخَ لَهُ بِالشُّكْرِ فَاغْرُ (١٨٦٨ م).
وَقَالَ خَمْسًا:

لَمَنْ أَشْتَكِي ضَعْفِي وَضَنْكِي وَشَدَّتِي وَمَنْ يَشْفِي أَسْقَامِي وَيَرْحَمُ لِعَبْرَتِي
لَجَأْتُ فَمَا لِي غَيْرَ ذَلِكَ مَقَالَتِي إِلَهِي بِتَقْدِيرِ النُّفُوسِ الزَّكِّيَّةِ

وَتَجْدِيدِهَا مِنْ عَالَمِ الْبَشَرِيَّةِ

وَبِالنُّورِ سَرَ الْكَائِنَاتِ وَمِنْ دُنَا إِلَيْكَ مَقَامًا لَنْ يُحِيطَ بِهَا سَنَا
وَنَادِيَّتُهُ هَأَنْتَ حَبِي وَهَأَنَا أَرَّلُ عَنْ فَوَادِي مَا أَلَاقِي مِنَ الْعَنَا

فَلِإِي قَلِيلِ الصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلِيَّةِ

عبد الفتاح اللاذقي

ونبع في اللاذقية في الوقت عينه شاعر متفنن أبو الحسن عبد الفتاح بن مصطفى بن محمد المحمودي اللاذقي العطار، كان مولده سنة (١٢٥٨هـ) (١٨٤٢م) ونظم الشعر في شبابه، ثم جمعه في ديوان ودعاه (سفير الفؤاد) فطبعه في بيروت في مطبعة جمعية الفنون سنة (١٢٩٧هـ) (١٨٨٠م) وجعله أربعة أركان في المدائح والتوسلات، ثم في امتداح السادات، ثم في التهاني والمراثي، وأخيراً في القدود والموشحات. فمن ذلك قوله مبتهلاً إلى الله عز وجل:

شكوتك فاقتي وإنك تعلمُ بحالي ونارُ الفقْر في القلب تُضرمُ
وللخلق لا أشكو افتقاري وفاقتي فمن يشك للمخلوق لا شكَّ يندمُ
فجُدْ برزقٍ يملأ القلبَ عَفَّةً فجودك لي عزٌّ وكنزٌ ومغنمُ
وإلا فصبرني على ما قسمت لي فأمرُك يا ربَّ البرية مُبرمُ
وكتب إلى نائب الحكمة فيض الله أفندي عن لسان شيخ كان خدم جبل الريحان وصلى في أهله فلم يعطوه حقه من الموسم:

أخا الأفضال فيض الله يا من حوى المجد المؤثّل واللطافه
فناقِلْ شقّتي هذا فقيرٌ وموصوفٌ بأنواع العفافه
لقد صلّى بأقوامٍ إماما وفي محرابهم جعل اعتكافه
وفي شهر الصيام فكم تعنّى وكم قد سار مع بُعد المسافه
لقد جحدوا إمامته وجادوا له بالهزل جدّاً والكتافه
وما جادوا له أبداً بيئراً ولا عملوا له أبداً ضيافه
وقد حرموه من أكل المحاشي ومن أكل القطائف والكتافه

فهم قومٌ لقد مكروا بهذا
وقد رُفعتْ قضيتُهُ إليكم
إنما الأفضال فانظرُ أمر هذا
فهذا قد أضيف إلى علاكم
وليس لهم من المولى مخافه
وفي انتظاركم يرجو انتصافه
فعينُ العدل لم تنظر خلافة
وحاز الفخر في تلك الإضافه
ومن محاسن شعره قوله في مولود سنة ١٢٧٩هـ:

أهلاً به من قادمٍ
بشراك فيه أيها الـ
فاهناً به لأنه فيـ
بيت الهنا والسعد فيه م
والعز فيه قد نما
والفخر ننادى من شدا
في كل جاهٍ جاهرُ
خلُّ الفخيم الفاجرُ
ه الغلامُ الناضرُ
كل عامٍ عامرُ
والبشر فيه ظاهرُ
أرَّخ غلامٌ باهرُ (١٢٧٩).

محمد سليم القصاب

يعد محمد سليم القصاب من فرسان حلبة الأدب وبين مسلمي الشام، عاش في ختام القرن التاسع عشر الدمشقي محمد سليم بن أنيس الشهير بالقصاب. طبع له ديوان حسن في دمشق في مطبعة الجمعية الخيرية سنة (١٢٩٨هـ) (١٨٨١م) فمن أقواله الجيدة ما قاله من قصيدة في السيد عبد القادر الجزائري وأولاده:

لَمَّا بَأْرَضِ الشَّامِ حَلَّ رِكَابُهُ نَادَيْتُهُا بَآهِى الْبِلَادِ وَفَاخِرِي
يَا دَوْحَةً طَابَتْ مَغَارِسُهَا فِلْمِ تُثْمِرُ سَوَى لَيْثٍ وَشَبْلِ كَاسِرِ
مِنْ كُلِّ شَهْمٍ فِي الْأَنَامِ مُحَمَّدٍ يَعْنُو إِلَى عَلِيَاءِ كُلِّ مَفَاخِرِ
مَوْلَايَ مِحْيَى الْدِينِ مَصْبَاحِ الْهُدَى ذَاكَ الْعَلِيِّ الشَّأْنِ أَحْمَدِ شَاكِرِ
فَكَأَنَّهْمَ لَمَّا تَبَدَّلُوا حَوْلَهُ أَقْبَارُ تَمَّ حَوْلَ بَدْرِ سَافِرِ
أَكْرَمَ بِهِ فِرْعَاءَ يَفَاخِرُ فِرْعَهُ بِأَصْوَلِهِ فَلِكِ السَّمَاءِ الدَّائِرِ
لَا زَالَ فِي أَوْجِ الْمَعَارِجِ نَجْمُهُ يَسْمُو بِمَجْدِ مَالِهِ مِنْ آخِرِ

وقال في جنينة شادها مدحت باشا لأهل دمشق دعاها جنينة الملة سنة ١٢٩٦:

هَذِهِ غَرْفَةٌ أَنْسَ أَرْزَلْفَتْ فِي رَبَا الشَّامِ تَسْرُ النَّاطِرِينَ
قَدْ بَدَتْ أَزْهَارُهَا تَنْثِي عَلَى مَدَحَتِ الْعَلِيَا وَصَدْرَ الْأَعْظَمِينَ
شَادَهَا لِلْمَلَّةِ الْغُرَّاءِ قُلُّ فَادْخُلُوها بِسَلَامٍ آمْنِيْنُ

ومن رثائه قوله في وجيه قومه حسين بيهم لما توفي في بيروت سنة ١٢٩٨:

هُوَى الْكَوْكَبِ الدَّرِّيِّ مِنْ أَفْقِ الْعَلَى فَجَرَّ الْقَضَا ذَيْلَ الظَّلَامِ وَأَسْبَلَا
مَصَابٌ كَسَا بِيْرُوتَ بُرْدَ حَدَادِهَا وَحَقُّ لَهَا بِالْحَزَنِ أَنْ تَتَسْرَبَلَا

فما كان إلا روحها وحياتها
عفافٌ وحلمٌ وافتخارٌ ورفعةٌ
أقيموا بنى الآداب واجب نعمةٍ
وختم المرثية بقوله:

فلما دعاه الله جل جلاله
فقال بشير العفو تاريخه زها
ومن محاسن وصفه قوله في وطنه الشام:

ما الشام إلا جنّة الأمصار
حسباؤها الدرُّ النضيدُ وتربُّها
فيها الرياضُ الزاهرات محاسنا
قد هبَّ فيها الريحُ يرقصُ غصنها
وتفجَّرت فيها المنابع إنَّها
هي موطني دون البلاد وبغيتي

وقد أصبحت من بعده جسداً بلا
وجودٍ حكى فيض السحاب ترسلاً
فلم يبق ما النفس أن تتعللاً

إلى جنّة الفردوس ليس مهلاً
حسين المعالي قر في جنّة العلا

تزهو بغوطتها على الأقطار
الكافورُ والبَّورُ فيها جاري
فانهض بنا ننشق شذا الأزهارِ
والطيرُ غنَّى في عُلا الأشجارِ
دَوْبُ اللُّجين بجدولِ الأنهارِ
فيها انتعاشي وانقضا أوطارِ

السيد محمود حمزة الحسيني

هو العالم الدمشقي العريق النسب من عائلة أصلها من حران يرقى نسبها إلى الحسين. كان مولده في دمشق سنة ١٢٣٦ وفيها توفي سنة (١٣٠٥هـ) (١٨٢٠ - ١٨٨٧م) واكب منذ صغره على العلوم اللغوية، ثم انقطع إلى العلوم الفقهية فأصبح فيها إماماً ومعظم مصنفاً في الدين وفي كل أبواب الشرع إلا القليل منها كإعلام الناس والبرهان على بقاء دولة آل عثمان. وله قصائد حسنة، وقد شرح بديعية لوالده وعرف بحسن الخط. وكان السيد محمود رجلاً مهيباً جليل القدر كريم الطباع تولى الإفتاء في دمشق دهرًا طويلاً، وقد أظهر نحو المسيحيين في نكبة دمشق سنة ١٨٦٠ مروءة أجازته عنها الدولة الفرنسية بهبة سنوية. شيخ واسع المدارك غزير الآداب. وفيه يقول محمد القصاب بمدحه:

مفتي الأنام سليل المجد ملجؤنا	تاج الفخام فخر الفخر ذو الهمم
ماضي العزائم لا نندُّ يضارعه	بالأمر والنهي والإحسان والكرم
بحر المعارف بالأموج زاخره	يلقي لنا جوهر الإرشاد والحكم
في كل فن له باع يصيد به	ماشت إدراكه عن حاذق فهم

الأمير عبد القادر الجزائري

أديب جمُّ من رجال السيف ومن فرسان القلم. كان مولد هذا الأمير في القبطنة من قرى آيالة وهران في بلاد الجزائر سنة (١٢٢٢هـ) (١٨٠٧م) درس العلوم اللسانية في حدائته على أساتذة وهران. ثم رافق والده في رحلته إلى الحجاز والشام والعراق وعاد إلى وطنه فعكف على العلوم الخاصة كالفلسفة والفلك والتاريخ حتى حمل الفرنسيون على الجزائر سنة ١٨٣٠ تلافياً لإهانة لحقت هناك بسفير ملكهم كرلوس العاشر واحتلوا جهااتها. فانتشبت الحرب بين أهلها والفرنسيين وباع الجزائريون للأمير عبد القادر فقاموا معه قيام الأبطال للدفاع عن أوطانهم.

وكانت تلك الحرب سجلاً تارة لهم وتارة عليهم ودامت خمس عشرة سنة ألقى الأمير بعدها إلى التسليم فسلم ولقي من الفرنسيين كل احتفاء ورعاية وجعلوا له راتباً سنوياً، ثم تنقل مدة في مدن فرنسا وغيرها إلى أن اتخذ له دمشق سكناً في أواسط سنة (١٢٧١هـ) (١٨٥٥م) فطابت له هناك السكنى، وفيها توفي في ١٩ رجب سنة (١٣٠٠هـ) حزيران (١٨٨٣م). ومن مبراته جزاه الله خيراً دفاعه عن احتمي في داره من نصارى دمشق في مذابح سنة ١٨٦٠، وكان عددهم نحو أربعة آلاف.

وكان الأمير عبد القادر مغرى بالعلوم محباً للعلماء يعظمهم ويحسن إليهم. قيل: إنه كان يبلغ ما يوزع عليهم وعلى الفقراء مئتي ليرة في كل شهر. له تأليف مفيدة في التصوف وعلم الكلام وبعض كتب أدبية منها (ذكر العاقل وتنبية الغافل) (أتمه سنة ١٢٧١هـ) (١٨٥٤م). وقد نقله إلى الفرنسية المستشرق (غوستاف دوغا) فطبعه في باريس سنة ١٨٥٨، وكان للأمير سليقة جيدة في نظم القريض. ومن قصائده مرثية أولها:

أمسعودُ جاءَ السعد والخيرُ واليسرُ وولت ليالي النحس ليس لها ذكرُ
ومنها قصيدة حماسية كان يتمثل في معارفه بأحد أبياتها الفخرية:

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي وبى يحتمي جيشي وتُحرسُ أبطالي
ومن أبياته الفخرية قوله يذكر فيها أحد أيامه لما حارب الفرنسيين:

ونحن لنا دينٌ وديننا تجمعا ولا فخر إلا مالنا يرفع اللوا
مناقب مختارٍ قوة قادرٍ قوة تسامت وعباسية مجدها احتوى
فإن شئت علماً تلقني خير عالمٍ وفي الروع أخباري غدت تُوهن القوى
ونحن سقيننا البيض في كل معركٍ دماء العدى لما وهت منهم القوى
ألم تر في خنق النطاح نطاحنا غداة التقيناهم شجاعٌ لهم لوى
وكم هامة ذاك النهار قد دُتْها بحد حسامي والقنا طعنه شوى
وأشقر تحتي كلمته رمأحهم ثمانٍ ولم يشك الوحي بل ولا التوى
بيومٍ قضى نجباً أحيى فارتقى إلى جنانٍ له فيها نبي الرضا أوى
فما ارتد من وقع السهام عنانهُ إلى أن أتاه الفوز رغماً لمن عوى
ومنها في وصف الحرب:

وأسيافنا قد جرّدت من جفونها ولا ورد إلا بعد ورد به الروى
ولما بدا قرني يميناهُ حرباً وكفي بها نارٌ بها الكبشُ قد ثوى
فأيقن أني قابض الروح فانكفا يولي فوافاه حسامي بما هوى
شددتُ عليهم شدّة هاشمية وقد وردوا ورد المنايا على الغوى
وقد مدح الشعراء الأمير عبد القادر بقصائد يبلغ مجموعها كتاباً ضخماً. ومما قيل فيه لأحدهم:

بحر المعارف والعوارف والندى ذو الحكمة العليا الكريم العنصر
مولى يتيهُ به الزمان وحسبه أن لم يفز بنظيره مذ أعصر
وفي طرابلس الشام قضى نجبه في العقد الأخير من القرن التاسع عشر نحو (١٢١٠هـ)
(١٨٩٢م).

الشيخ محمد الشهال الطرابلسي

كان له في نظم الشعر حظ وافر سلك فيه منهج الرقة واللفظ. فجمع ابنه عبد الفتاح قصائده في ديوان دعاه (عقد اللآل من نظم الشهال) وطبعه في طرابلس سنة ١٣١٢ هـ. فمن حسن أقواله ما قاله مراسلاً بعض أصدقائه:

متى يجمعُ الرحمنُ شملي بُمُنيتي وأحظى بطيب الوصل بعد تشُّتِّي
أأجابنا كم ذا أبثُّ شكايتي ولم تسمعوا دعوى حليفِ المحبةِ
قضى الله بالهجران بيني وبينكم فياليت قبل الهجر كانت منيَّتي
تحجبتُم عن ناظريِّ وشخصُكم مقيمٌ بقلبي أينما كان وجهتي
وذكرُكم ما زال وسط ضمائرِي يخامرُني في كل يومٍ وليلةِ
نأيتُم فخلقتُم جفوني قريحةً فباهت بأسرار الشجون الخفيةِ
عسى الله أن يمحو دحى البُعد باللقا ويجمعني فيه بأحسن حالةِ
وقال يهنئ أحد أصحابه بقدومه إلى الفيحاء بغتةً:

خليل العلي والمجد عن غير موعد لقد واصل الفيحا فطابت به نثرا
وأضحى لسان العز عند قدومه ينادي لقد وافى الخليل فيا بشرى

الشيخ محمد الهاللي

هو محمد بن هلال بن حمود المولود في حماة سنة (١٢٣٥هـ) (١٨١٩م) والمتوفى في ٢٩ ذي الحجة (١٣١١هـ) حزيران (١٨٩٤م) نشأ بحماة ودرس على علماء أهل ملته العلوم الدينية، ثم انقطع لدرس الآداب ونظم الشعر فقصده القصائد على نمط ذلك العهد ومدح كثيرين من وجهاء بلاده، ثم ارتحل إلى دمشق سنة (١٢٩٨هـ) (١٨٨١م) فاستوطنها ونعم في سكنائها وأنس بأهلها وعاشر أديبها وكرام أهلها وأمرائها، فنال الخطوة من فضلهم ولم يزل في هناء عيش إلى وفاته في الفيحاء فقال الشيخ عبد المجيد الخاني يؤرخ سنة موته:

لقد تُوفِّي الهاللي سيّد الشعرا وكوكبُ الأدب العالِي الذي اشتهدرا
فلا غريبٌ إذا نادى مؤرخه ألا توفِّي الهاللي سيّد الشعرا (١٣١١)
وقد جمع بعض مواطنيه ديوانه فطبعوه في حماة سنة ١٣٢٩، وقسموه أبواباً على حسب
معاني الشعراء من مديح وتهاني وثناء وتواريخ.

فما قاله لما هاجر من حماة إلى دمشق بأهله يستمنح فضل الأمير السيد عبد القادر
الجزائري:

هاجرتُ من بلدي بأهلي غازيا	بعساكر الآمالِ خير همّام
ورميتُ سهم الظنّ عن قوس الرجا	طمعاً وحاشا أن تطيش سهامي
وبجيش فقري قد أتيتُ إلى حمى	أغنى وأندى كل بحر طامي
مستمطياً حسن الطويّة راكبا	فرس الفراسة ناشرأ أعلامي
مستبشراً من سيدي بعناية	عني يزولُ بها عناء أوامي
مولاي عبد القادري الحسني الذي	في ظل نعمته نصبتُ خيامي
الكاشف الفاقات ماحي ليلها	بسناء صبح الجود والإنعام

وافيتُ جَنَّةَ قَرَبِهِ لِأَفُورَ مَنْ
ولما أُوِّمِلَ مِنْ عَوَائِدِ فَضْلِهِ
مَآوَى مَكَارِمِهِ بِدَارِ سَلَامٍ
طال انتظاري في دمشق الشام
ة بزواجتي من بعد غربته عام
فأمر له الأمير بجائزة سنية.

ومن ظريف قوله يؤرخ إنشاء سبيل في دمشق سنة ١٣٠٤ :

بَادِرٌ لِأَعْذَبِ سَلْسِيلٍ فِيهِ مَا
لِللَّهِ فاعِلٌ خَيْرٍ فَعَلٍ دَائِمٍ
بِمَعِينِهِ يَشْفِي الْعَلِيلَ مِنَ الظَّمَا
لِينَالِ مِنْ مَوْلَاهُ أَجْرًا أَعْظَمًا
أَرْخُ وَنَادِ اسْقِ الْعَطَاشَ تَكَرُّمًا
حَوْضٌ لَوَارِدِهِ الصَّفَا مِنْهُ شِدَا
وقال أيضاً مؤرخاً وفاة والده هلال سنة ١٨٨٠ :

لَنِعْمَ عُقْبَى الدارِ دارُ البقا
يا زائراً هذا الضريح الذي
وَحَبَّذا إِلَى النَعِيمِ المَالُ
حوى هلالاً فاز بالانتقال
عاماً به آن غيَابُ الهلالِ
لِنِصْفِ ذِي الحِجَّةِ قُلُّ أَرْخُوا

عبد الله باشا فكري

ولد في مكة إذ كان أبوه محمد مرافقاً في الحجاز للجنود المصرية سنة (١٢٥٠هـ) (١٨٣٤م) ثم نشأ في مصر وشاب في حضانة المعارف حتى تضلّع في كل علم. وقلدته الحكومة المصرية للمناصب الجليلة كمنظارة المدارس ووزارة المعارف. وكان سار معها في رفقة الخديوي إسماعيل باشا إلى إسطنبول سنة ١٨٦١، ثم عهد إليه تهذيب ولي العهد محمد توفيق باشا مع أخويه الحسن والحسين فقام بتلك المهمة أحسن قيام. ولما ولي نظارة المعارف سعى في تنظيم الدروس وصنف للدارسين كتباً يدرسون فيها، ومن خدمه الطيبة أنه لم يزل يحض الحكومة حتى أنشأت المكتبة الخديوية التي تعهد من أغنى الخزائن الكتبية بالمخطوطات والمآثر العربية.

ولما حدثت الثورة العربية سنة ١٨٨٢ أُلقي القبض على عبد الله باشا فكري وبقي مدة تحت الاستنطاق إلى أن عرفت براءته وبرئت ساحته، وكان الخديوي قد قطع معاشه فكتب إليه من قصيدة:

مليكي ومولاي العزيز وسيدي	ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوامٌ عليّ تقوّلوا	بأمر فقد جاؤوا بما زوروا نكرا
فما كان لي في الشرِّ باعٌ ولا يدٌ	ولا كنتُ من يبغي مدى عمره الشرا
فعفواً أبا العباس لا زلت قادرا	على الأمر إن العفو من قادر أحرى
وحسبي ما قدم من ضنك أشهر	تجرعتُ فيه الصبر أطعمهُ مرا
يعادل منها الشهرُ في الطول حقبَةً	ويعدل منها اليومُ في طوله شهرا
أيجعل في دين المروءة أنني	أكابد في أيامك البؤس والعسرا

فما لبث أن أعاده الخديوي إلى مقامه السابق فقال يشكره من قصيدة طويلة:

ألا إنَّ شكر الصنع حقٌّ لمنعمٍ فشكراً لآلاء الخديوي المعظَّم
مليكٌ له في الجود فضلٌ ومفخرٌ على كل منهلٍّ من السحب مرهمٍ
سأشكره النعماء ما عانقت يدي يراعي أو استولى على منطقي فمي
فلا زال محروس الحمى متمتعاً مع الخيرة الأشبال في خير أنعم
وتجول عبد الله باشا بعد ذلك في جهات الحجاز والشام. ولما عقد في أستوكهلم مؤتمر
المستشرقين سنة ١٨٨٨ أوفدته الحكومة للنيابة عنها وزار معظم الحواضر الأوروبية، وكتب
تفاصيل رحلته في كتاب دعاه إرشاد الألباء إلى محاسن أوروبا لكن الموت عاجله فتوفي قبل
إتمامه في أواخر سنة (١٣٠٧هـ) (١٨٩٠م) فأنجزه نجله بعد وفاته. وقد خلف عبد الله باشا
فكري آثاراً أدبية جليلة كنظم اللآل في الحكم والأمثال، والمقامة الفكرية في المملكة الباطنية،
والفوائد الفكرية للمكاتب المصرية، جمع فيه ابنه كثيراً من كتاباته وقصائده في كتاب دعاه
الآثار الفكرية، ومن حكمه قوله:

إذا رُمّت المروءة والمعالي وأن تلقى إليه العرش بَرّاً
فلا تقرب لمدى الخُلوات سرا من الأفعال ما تخشاهُ جهراً
وقال يصف ثامن مؤتمر المستشرقين في أستوكهلم من قصيدة:

ناد به احتفل الأفاضل حفلةً بحديثها تتقادم الأعصارُ
جمعت لثامن مرةً معدودةً في الدهر لا يُنسى لها تذكُّرُ
متآلفين بعيدهم بقربهم والفضل أقربُ وصلة تمتارُ
من كل فياض القريحة وردهُ عذبٌ وبحرٌ علومه زخارُ
ومؤزر بالفضل مشتمل به منه شعارٌ زانهُ ودثارُ
لا زال ملك الفضل معمور الذرا بذويه ممدوداً له الأعمارُ

الشيخ علي الليثي

ولد نحو سنة ١٨٣٠، وصرف همه إلى العلوم اللغوية والأدبية فصار منشئاً بليغاً وشاعراً مفلحاً حتى نظمه أولو الأمر في سلك رؤساء المعية السنية. ورافق الخديوي إسماعيل باشا في سفره إلى الأستانة سنة ١٢٩٠، ومدح السلطان عبد العزيز. وكان الأدباء يتسابقون إلى مطارحة الليثي ويتفاخرون بمكاتبته. وقد طال عمره حتى توفي مأسوفاً عليه في ٢٥ ك ٢٥ سنة (١٨٩٦م) (١٣١٣هـ). وله منظومات جمّة يجمع منها ديوان إلا أنها لا تزال متفرقة. فمن محاسن أقواله رثاؤه لعبد الله باشا فكري:

ندمُّ المنايا وهي في النَّقدِ أعدلُ غداة انتقت مولى به الفضلُ يكملُ
كأنَّ المنايا في انتقاها خبيرةٌ بكسبِ النفوس العاليات تُعجِّلُ
فتمَّ لها من منتقى الدرِّ حليّةٌ بها العالمُ العلويُّ أنأ يهللُ
ومنها في وصف الفقيه:

لقد كان ذا برٍّ عطوفاً مهذباً سجايأه صفو القطر بل هي أمثلُ
رقيق حواشي الطبع سهلٌ محبَّب إلى كل قلبٍ حيث كان مبجَّلُ
كريم السجايأ لا الدنيا تشينه عظيم المزايا إذ يقولُ ويفعلُ
شأئله لو قُسمت في زماننا على الناس لآزدانوا بها وتجمَّلوا
فقدنا محيأه ولكنَّ بيننا بديع مزاياهُ بها تتمثَّلُ

وقال يمدح السلطان عبد العزيز في عيد جلوسه سنة ١٢٩٠:

دَع ذكر كسرى وقصّر إن أردت ثنا عن قيصر الروم حيث النفعُ مفقودُ
واشرح مآثر من سارت بسيرته ركائبُ المجد تحدوها الصناديدُ

مولى الملوك الذي من يُمن دولته
عبدُ العزيز الذي آثاره مُحدث
أجاد نظم أمور الملك في نسقٍ
وشاد فوق العلى أركانهُ فغدا
فلا تقسهُ بأسلافٍ له كُرمتُ
ففخرهم عقدٌ درٌّ وهو واسطةُ
وله اللامية المشهورة قالها بعد الفتنة العرابية مستعظفاً مستصفحاً عن الجناة:

كل حال لصدّه يتحوّل
يا فؤادي استرخّ فما الصبرُ إلا
قدرٌ غالبٌ وسرُّ الحفايا
رُب ساعٍ لحتفه وهو ممّن
فالزم الصبرَ إذ عليه المعوّل
ما به مظهر القضاء تنزل
فوق عقل الأريب مهما تكمّل
ظنّ بالسعي العلى يتوصّل

السيد عبد الله نديم

هو كاتب بليغ نبغ في مصر وسعى في تحرير وطنه فأنشأ عدة جرائد سياسية كان يزرع فيها بذور آماله وينهض همم مواطنيه حتى لقب بخطيب الشرق. ولما ثارت الفتنة العراقية نفي من وطنه، ثم صفح عنه وبعد قليل اضطر إلى مغادرة بلاده فتوجه إلى الأستانة ونال الخطوة لدى السلطان وما لبث أن توفي في القسطنطينية سنة ١٣١٤ هـ. وكان مولده بالإسكندرية سنة (١٢٦١هـ) (١٨٤٤ - ١٨٩٦م).

وكان عبد النديم خطيباً لسناً متوقداً للذهن صافي القرية شديد العارضة متفنناً في الكتابة نظماً ونشراً، له ثلاثة دواوين كبيرة ورسائل وتآليف لغوية وأدبية، طبع منها قسم في كتاب سلافة النديم في منتخبات السيد عبد الله نديم وهو في نثره سهل العبارة قريب المعاني يتحاشى كل تصنع.

فمن أقواله ما ذم به الخمرة:

طافَ النديمُ بكأسه في الحانِ	ومشى يزفُّ البكرَ بالأحانِ
برزتْ تُقهقهُ بين ندمانِ الطلا	فخجلتْ إذ ضحكتْ على الأذقانِ
ذلتْ لدولة حكمها دُولُ الورى	من غير ما حرب ولا أعوانِ
خفتْ فطارت بالعقولِ وخلفتْ	تلك الجسومِ بحالة الحيرانِ
أيُّ المحاسنِ أبصروا في وجهها	وهي العتيقة من قديم زمانِ
أمُ الخبائثِ بنتُ عُسلوجِ الهوى	أخت الحشائشِ زوجة الشيطانِ
من زفَّها من خدرها لفؤاده	صرعتهُ عند مزالِق الأطيانِ
وإذا تَستر في ترشُّفها بدتْ	من فيه تفضحهُ لدى الإخوانِ
وإذا مشى لعبت به عن مكرها	فيقال هذي مشية السكرانِ

ومن أوصافه الحسنة قوله يصف قطاراً بخارياً:

نظر الحكيم صفاته فتحّيرا
دوماً يحن إلى ديار أصوله
ويظلُّ يبكي والدموع تزيده
تلقاهُ حال السير أفعى تلتوي
أو سبع غلبٍ قد أحسَّ بصائدٍ
أو إنها شهبٌ هوت من أفقها
وله في الفخر والحماسة:

إذا ما المجدُ نادانا أجبنا
فإننا في عداد الناس قومٌ
إذا طاش الزمان بنا حلّمنا
وإن شئنا نثرنا القول درّا
وإن شئنا سلبنا كلَّ لبّ
فيظهر حين ينظرنا حيننا
بما يرضي الإله لنا رضينا
ولكنّا ثميننا أن نهيننا
وإن شئنا نظمناهُ ثمينا
وإن شئنا سحرنا المنشئينا

محمد عثمان جلال

هو ابن يوسف الحسني الونائي ولد سنة (١٢٤٥هـ) (١٨٢٩م) ودرس في صغره اللغات في مدرسة الألسن في حي الأزبكية، ثم دخل سنة (١٢٦١هـ) (١٨٤٤م) في قلم الترجمة، ثم انتدبته الحكومة لأشغال الكتابة في وزاراتها إلى أن استوزره توفيق باشا الخديوي واتخذة لصحبه في رحلته إلى جهات القطر المصري فكتب تأليفه (السياحة الخديوية) ثم تقلد القضاء في محكمة الاستئناف وأحيل على المعاش سنة ١٨٩٥، وكانت وفاته في ١٦ كانون الثاني سنة ١٨٩٨.

وللمترجم عدة تأليف نقل بعضها من الفرنسية كرواية بول وفرجينى، وكأمثال لافونتين نظمها بالشعر، ودعاها العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ دونك مثلاً منها وهو مثل البخيل والدجاجة:

كان البخيل عنده دجاجة	تكفيه طول الدهر شرّ الحاجة
في كل يوم مرّ تعطيه العجب	وهي تبيض بيضة من الذهب
فظن يوماً أن فيها كنزاً	وإنه يزاد منه عزاً
فقبض الدجاجة المسكين	وكان في يمينه سكين
وشقتها نصفين من غفلته	إذ هي كاللدجاج في حضرته
ولم يجد كنزاً ولا لقيته	بل رمة في حجره مرمية
فقال لا شك بأن الطمعا	ضيع للإنسان ما قد جمعا

وكان محمد عثمان يحب اللغة المصرية العامية فنقل إليها عدة روايات تمثيلية عن الشعارين راسبن وموليار تصرف فيها بعض التصرف. ومن ظريف شعره قوله يمدح الحضرة الخديوية العباسية سنة ١٣٠٩:

من يضاهيك في العلى مَنْ يُداني
يد حكمٍ بالعدلٍ لا يعترها
ويدُّ العطاء كالنيل قد فا
وله في رثاء عبد الله باشا فكري:

همامٌ علا فوق السماء بفكره
فتى غاص في بحر المدارس رأيه
وسال غديرٌ من عذوبة فضله
زها نجمة دهرًا بمصر فلم يجد
ثلاث لغاتٍ كالعرائس حازها
من العرب العرباء كان إذا حكى
وكان لأهل الفارسية تحفة
ونال بديوان المعارف رفعة
فوا أسفًا وأراه قبرٌ ولو درى
ومامات ليثٌ أورث الغاب شبله

يا عزيزاً له علينا يدان
عارضُ الميل فهي كالميزان
ض بإنعامه على البلدان

فمن ثمّ سمته الأفاضل بالفكري
فأخرج من حصائه غالي الدرّ
فأنضح أثماراً على يانع الزهرِ
قريناً ولكن لا أمان إلى الدهرِ
بهمتّه لا بالجهاز ولا المهـرِ
وحرّر بالنظم البديع أو النثر
بمعلومه الوهبيّ يحكي ليزدجر
مفضلةً من فضل زيد على عمرو
لآثر سوداء القلوب على القبرِ
ولا كان هذا الغابٌ يخلو من الزأرِ

حسن حسني الطويراني

ولد في مصر (١٢٦٦هـ) (١٨٥٠م) وتوفي بالأستانة سنة (١٣١٥هـ) (١٨٩٧م) نشط منذ حداثته إلى العلم والأدب حتى برز بين كتاب زمانه، وقضى قسماً من عمره في السياحة في إفريقية وآسية وبلاد الروملي وأنشأ عدة جرائد كالزمان والإنسان والنيل والعدل ومجلة المعارف والمجلة الزراعية. وألف تأليف عديدة دينية واجتماعية وأدبية بعضها تركية وبعضها عربية. وله ديوان شعر دعاه (ثمرات الحياة) اختار عبد الغني العريسي قسماً منه وطبعه في مصر سنة ١٣٢٥. فهذه بعض أمثال نكتفها منه قال مفتخرأ:

إن كنتَ محتقراً حالي وتجهلها
سأل عارفاً عن شأنِي فتعرفني
أنا الذي ما سمعتُ بي للخنا قدّم
ولا شكاهمّتي من كان يصحّبني
لي جانبٌ لصديقي هَينٌ أبدا
وجانبٌ لعدوّي ثم لم يلنِ
ولي لسانٌ أرى أن تبقى بضاعته
ولي فؤاد بحب الباقياتِ فني
وقال أيضاً:

غيري تغيرُهُ الصروف
وسواي تُفزعُهُ الحتوف
وأنا الذي لا عيبَ لي
إلا اقتحامِي للمخوف
لا أتقي بأس القوي
ولا يَرى بأسِي الضعيفُ
حسبي يُقال: سكوته
أدبٌ ومنطقُهُ شريفُ
لا تقبلُ إنِّي صديقُ
أو فلانٌ لي صديقُ
إنما أنت وهذا
لرفيقٌ في طريقِ
فاجتماعٌ في اتساع
وافتراقٌ وقت ضيق
ومن محاسن أقواله:

إن الحياة وطيبها ونعيمها
مما يؤمّل في الزمان ويُعشّق
غياتنا فيها بدايةً غيرنا
كالشمس مغربها لغيرك مشرق

الملا حسن الموصللي البزاز

اشتهر في أواسط القرن التاسع عشر وتوفي في عشره الأخير. له ديوان شعر طبع بمصر سنة ١٣٠٥ بهمة تلميذه الحاج محمد شيث الجومرد الموصللي الذي ذيل الديوان بنبذ من شعره. وقد اتسع حسن البزاز في قصائده بمدح أصحاب الطرائق المتصوفين. ومن شعره ما وصف به اشتداد البرد وسقوط الثلوج في الموصل في أواخر رجب سنة (١٢٧٧هـ) كانون الثاني (١٨٦١م):

تجلى علينا عارضٌ غيرٌ ماطر	ولكنه بالثلج عمّ نواحيا
فأصبحت الخضراء بيضاء قد زهت	وعادت رباها والبطاح كواسيا
وكم بسما منهُ يدُ البرد والشتا	بساطاً على وجه البسيطة باهيا
وكم جبل راسٍ يقولُ مُفاخرا	ألم تنظروا وقد عمّ الثلجُ رأسيا
فقلت به إذ كان شاذاً وقوعه	ليذكره من بعد من كان باقيا
غمماً وكانون مداناً مؤرخا	حبا مصرنا برداً من الثلج زاهيا

(١٢٧٧هـ)

ومن ظريف قوله في حبه تعالى وعمل الصالحات لوجهه عز وجل:

لئن لم يكن في الصالحات مُثوبةٌ	وليس على العصيان منه عقابُ
إطاعته عندي نعيمٌ وجنةٌ	وعصيانه قبل العذاب عذابُ
وقال يرثي أخويه علياً ومصطفى:	
بكينَ حمامات الأراك لغربتي	ونحنَ على فقدان ما أنا فاقدُ
لقد غاب عني فرقدٌ بعد فرقدٍ	وقد بات عني ماجدٌ ثمَّ ماجدُ

ومالي عزاءً عنهم غير أنني بهم ملحقٌ يوماً وما أنا خالدٌ
ومن أدباء العراقيين (إبراهيم فصيح الحيدري) كان مولده في بغداد سنة (١٢٣٥هـ)
(١٨٢٠م) من بيت علم وفضل وسافر إلى دار الخلافة وحصلت له رتبة الحرمين مدة، وتولى
نيابة القضاء في بغداد وله بعض التأليف وفيها الغث والسمين، توفي سنة (١٢٩٩هـ)
(١٨٨١م).

صالح القزويني

هو ابن السيد مهدي الحسيني. ولد في النجف في أواسط شهر رجب (١٢٠٨ هـ) (١٧٩٣ م) وبها توفي في ٥ ربيع الأول سنة (١٣٠١ هـ) أوائل كانون الثاني سنة (١٨٨٣ م) انقطع منذ حداثة إلى درس العلوم الدينية والدينية على مشايخ وطنه فتصلح منها، ثم نبغ بالشعر فقصد القصائد وتفنن في المنظومات. وقد جمع شعره في ديوانين واسعين. وانتقل في شبابه إلى بغداد فوجد بين أهلها أطيّب مثوى إلى آخر حياته. فمن شعره قوله في وصف بغداد:

تالله ما الزوراء إلا جنّة
ما التزب إلا عنبر ما الماء إلا
وكان بين رياضها وحسانها
ومن حكمه قوله:

لم يشرب الصفو من لم يشرب الكدرا
ولم يفز بالمنى من ذل جانبيه
أولى الورى بالعلى من أكرمها
جرد لنيل المعالي صارماً ذكرا
وليس يخطر من لم يركب الخطرا
ولم يطل في الورى من باعه قصرا
كفاً وأشرفها ذكراً إذا ذكرا
من العزائم يبري الصارم الذكرا
وللمجد بُرداً بطي البيد متشرا
بالحزم يملأ سمع الدهر والبصرا
شمّر من العزم أذبالاً وكن رجلا

الشيخ إسماعيل الموصللي

ولد في الموصل وجاء إلى بغداد في إبان شبابه ودرس في مدرسة الصاغة عدة سنين حتى وفاته في ٢٨ ذي الحجة سنة (١٣٠٢هـ) (١٨٨٤م) حنفي المذهب على الطريقة النقشبندية. وكان إماماً في العلوم اللدنية وبرز في النحو وفي الفنون الثقلية والعقلية. وقد أعقب جملة من الأبناء كلهم من طلبة العلم أكبرهم محمد راغب خلف أباه في التدريس. ولأحمد فارس الشدياق قصيدة يمدح فيها الشيخ إبراهيم ويشي على معارفه منها:

كل مالذهم فذلك عندي ألم غير ذكر إبراهيم
عقبري مهذبٌ قد حوى في صدره قبل أن يشبَّ العلوما
ولهذا يُدعى فصيحاً وقد جا ء وأجاد المنشورَ والمنظوما
وقوافٍ من كل بحرٍ إذا ما سُردت خلستهنَّ دراً نظيما
عن أبيه وجده مستفيضٌ كلُّ فضلٍ فكان إرثاً مقيما

ومنها في شكر الشيخ لمدافعتة عنه وانتصاره له:

رد عنِّي السنيةً بالنظم والنثر فكان لذا الرجيم رجوما
علم الناس إبراهيم خليلا وصديقاً لي أن دعوت حميما
هذه مدحتي فإن كنت قصر تُفاني مدحتُ برأ حليما

عبد الله أفندي العمري الموصللي

من أدباء وطنه المعدودين وأحد رؤساء علماء العراق. له فضول ثرية وأشعار متفرقة لم تجمع حتى اليوم، وقد مدحه علماء زمانه منهم عبد الباقي العمري نسيبه حيث قال:

ليت شعري ماذا أقول بمولى قد أقررت بفضل الأعداء
فيه قررت عيوننا واستنارت وازدهت في وروده الخضراء
يا أديباً سما سماء المعالي كيف ترقى رقيك الأدباء
نلت حد الإعجاز نظماً لهذا خرست دون نطقك الفصحاء
أنت يا سيدي بغير رثاء ختم النظم فيك والإنشاء
ورثاه حسن البزاز فقال من قصيدة:

قضى الخبر الذي للعلم جبر به فرجاء أهل العلم يأس
كفى ما قد جرى إن غاض بحر وغابت من سماء المجد شمس
أساء الموت فيه كل نفس وطابت منه في الفردوس نفس
هو التاج الشهير بكل فضل تباهى فيه للعلياء رأس
كأن الموت نقاد بصير أحس بما يحاول منه حس
تفرّد فانتقى منا نقياً تحسّر بعده عرب وفرس

وجارى عبد الله أفندي العمري في معارفه وبلاغة كتاباته شهاب الدين العلوي أحد رجال وطنه المقدمين، يعده العراقيون كفارس حلبة الآداب في زمانه. له ديوان شعر لم ينشر بالطبع، وكان يكتب علماء عصره ويناوهم الرسائل الأدبية والقصائد الرنانة، ومن شعره الذي قاله في الوصف قصيدة يصف فيها طغيان دجلة أولها:

طغيان دجلة خطبٌ من الخطوب المخلصة
ومن شعره أبيات قالها في مدح مقامات مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي:
حديقة أثمرت أوراقها حكماً لنا شماريخها امتدّت وقد ينعت
فمن يشأ يتفكه في مناقبها ومن يشأ يتفقه بالذي شرعت
طالع تُقابلك مهاه الزمان بها وانظر إلى صورة الدنيا وقد نصعت
كم أودعت نبذ اللسع قد عدّبت ورداً ومن قلب ذاك الصدر قد نبعت
على الكمالات طبعُ اللطف أرخها لطفاً مقاماتُ ناصيف التي طبعت
(١٨٨٥م)

ومن مدح الشيخ شهاب الموصللي صاحب الجوائب فقال فيه من أبيات:

شهابُ العصر خلاقُ المعاني فهل من ذاكر للأرجاني
عزيز الشأن تفتخر المعاني به فخر المعالي والمعاني
لعمرك إن ما يلقيه قولاً ليمسك ما ينمق بالبنانِ
فذاك الدرُّ للأسماعِ حليٌّ وهذا الشذرُ نورٌ للعيانِ
وصفتُ حلاه عن بُعدٍ كأنّي أراهُ في علاه على التديانِ

حيدر الحلبي

ولد سنة (١٢٤٦هـ) (١٨٣١م) وتوفي سنة (١٣٠٤هـ) (١٨٨٧م) برز بنظم الشعر منذ شبابه فدعي بشاعر العراق. طبع له ديوان في بمباي في الهند معظم قصائده في النسيب والفخر والمديح.

وهذه أبيات من محاسن قوله في الرثاء:

أأحببنا هل عائدُ بكمُ الدهرُ
سلامٌ على تلك المحاسن إنها
لي الله بعد اليوم من لي بقربكم
قفوا زودونا إنما هي ساعةٌ
رحلتم وقلبي شطره في ظعنكم
وشيعتكم والدمعُ يوم نواكمُ
فكم خلفكم لي أنه مالوتُ بكم
سأبكيكم ما نأح في الوكر طائرُ
وقال يمدح صرعى العلويين:

سقياً لثاوين لم تبلل مضاجعهم
أفناهم صبرهم تحت الظبا كرمما
مشوا إلى الحرب مشي الضاريات لها
فال حرب تعلم إن ماتوا بها فلقند
إلا الدماء وإلا الأدمع السجُم
حتى مضوا ورداهم ملؤه كرم
فصار عوا الموت فيها والقنا أجم
ماتت بها منهم الأسياف لا الهمم
لا يهرمون ولللهيبة الهرم

جعفر الحلبي

المولود في أعمال الحلة سنة ١٢٧٧، والمتوفى في عز شبابه في النجف سنة (١٣١٥ هـ) (١٨٦٠ - ١٨٩٧ م). كان شاعراً أكثرأ في شعره الحسن والسقيم، وقد طبع شعره في صيداء سنة ١٣٣١، مدح أشرف القوم وخصوصاً أمراء نجد. ومن لطيف قوله يهنئ شاه العجم مظفر الدين بعد قتل سلفه ناصر الدين:

حل المظفر لما الناصر ارتحلا	فما خلا الدستُ حتى قيل فيه حلا
وجه تحفَى ووجهٌ بان رونقه	كالنيرين بدا هذا وذا أفلا
نحسُّ وسعدٌ بأفاق العلى اعتركا	فالحمدُ لله إذ نجم السعودِ علا
مالت جوانبُ تختِ الملكِ واعتدلتُ	سرعان ما مال تختُ الملكِ واعتدلا
ما جرَّعَ الدين صاباً فقدُ ناصره	حتى دعاه ابنه أن يحتسي العسلا
كذي يدين أمد الله واحدةً	بقوة البطش والأخرى التوت شللا
فسلم الله للإسلام حارسه	ويرحم الله من في نصره قتلا
قام الزمان سريعاً من تعشَّره	كبا على وجهه ثم استوى عَجلا
لقد بكينا على من قد مضى حزنا	كما ضحكنا بمن أبقى لنا جذلا

الشيخ ملا كاظم الأوزي

تفنن أيضاً في الشعر فعد من فحوله ونشر ديوانه في بمباي. ومما استحسنا له من الحكم قوله:

إن رُمْتَ توطئة المرام الأصعبِ فاركب من الإقدام أخشن مركبِ
اربأ بنفسك أن تَدُودك شهوةً دون انتصابك فوق أشرفِ منصبِ
لا تكثرن من الشباب وذكره أنت ابنُ يومك لا ابنُ ماضي الأحقبِ
ومنها:

كم من أخ لك غير أمك أمه تُنسيك سيرته إخاء المتسبِ
من لم تُؤذيه خلأثق طبعه ألفتيه بالسيف غير مؤدبِ
فاحذر عداوات الرجال ودارها إن لم تكن جدت لديدك فرحبِ
وافظن لأدوية الأمور فإنها سم الأفاعي غير سم العقربِ
وإذا تنكبهُ من مكان ريجهُ فتخط منه إلى المكان الأطيبِ

سليم بن موسى بسترس

كان مولده في بيروت في ٢٩ آب سنة ١٨٣٩، وأقبل صغيراً على درس الآداب العربية وبعض اللغات الأجنبية وفي سنة (١٨٥٥) تجول في أنحاء أوروبا وزار عواصمها. وقد وصف رحلته في كتاب طبعه في المطبعة السورية دعاه النزهة الشهية في الرحلة السليمية. ثم تعاطى بعد ذلك الأشغال التجارية في الإسكندرية، ثم انتقل إلى إنكلترا وسكن ليفربول ولندن واتسعت هناك أشغاله وعرف بفضلته وسخاء يده، فتوفر عدد أصحابه بين وجود البلاد وأعيانها ونال من محاسن الإمبراطور إسكندر الثاني التعطفات الفائقة وحاز الامتيازات الخاصة، وكذلك الدولة العثمانية منحه أوسمتها العالية الشأن.

وكانت وفاته في لندن في ٣ شباط سنة ١٨٨٣، لكن جثته نقلت إلى بيروت فدفن في ضريح عائلته، وقد رثاه كثير من الأدباء نثراً ونظماً بنخبة الأقوال التي جمعت في كتاب خاص. فمن رقيق ما قيل عن لسان الفقيده عند نقل جثته إلى بيروت أبيات لإلياس أفندي نوفل:

لما قضى السُّقْمُ أن يسطو على بدني	قدرقٌ حتى رأيتُ الروح تُشقلني
فقلْتُ: لا تدفنوا جسمي بغربته	فالشرق أقربُه ترباً إلى عدن
هناك فوق رباهُ خيرٌ من تركتُ	عيني وتحت ثراهُ خيرٌ مُرتمن
قد جئتم أئراً يا جيرتي موانا	العينُ التي شخصت للأهل والوطن
فعند مشهد نعشي فاندبوا أسفا	صباي أو عند قبري فاذكروا زمني
أودعتُ جسمي لديكم في المات وكم	أودعتكم في حياتي القلبَ في شجني
فاستعطفوا الله من أجلي فرحمتهُ	هي الغناء لنفسي يوم يُحشرنِي

وكان سليم دي بسترس شاعراً له منظومات متعددة جمع فيها بين سلاسة الكلام ولطف المعاني. فمما استحسناه من نظمه قوله وفيه ما يدل على إيمانه:

لا شيء غير نفوسنا يتخلَّدُ
وسواؤها فوق البسيط كلهُ
وروحُ إله الكون أرسلها إلى
حتى إذا كملت مواعيدُ لها
وتُفارق الجسم الذي سُجنت به
حتى إذا تمَّ المعادُ وقد أتى
تعطي إلى رب العباد حسابها
في ساعةٍ يا هولها من ساعةٍ
وتبيت مع طغيات أجنادِ العلا
وتشاهدُ المجد المشعشع نورهُ
وله تهنئة في عام جديد:

تلك البقيَّة غيرها لا يوجدُ
يفنى وضمنَ تراها يتوسَّدُ
جسد الفنا نوراً به يتوقدُ
نادى بها عودي إليَّ فتصعدُ
بحياته وإلى السعادة تقصدُ
يومٌ به كلُّ الخلائق تُحشدُ
في محفل فيه الملائكُ تشهدُ
إن لم تكن فيه الفضائل تعضدُ
تجثو إلى العرش المنير وتسجدُ
وتسبحُ الرب العظيم وتحمّدُ

أتى العام الجديدُ يزيد عاماً
على قدر السنين إليك يهدى
أسرُّ بكلِّ عامٍ حيثُ فيه
وإن كنت البعيد فإنَّ قلبي
أوكلهُ ينوبُ اليوم عنِّي

بتاريخ المحبَّة والودادِ
تحيات السليم على بعدادِ
محبَّتنا تدومُ على اتحادِ
على طول المدى بين الأيدي
بتقديم التحيات الجدادِ

المعلم إبراهيم سركيس

هو أخو الوطني الشهير خليل أفندي سر كيس صاحب مطبعة الآداب ومنشئ جريدة لسان الحال، كان مولده في أعبية سنة ١٨٣٤ م، من عائلة مارونية إلا أنه درس على المرسلين الأمريكيان فجنح إلى مذهبهم وصار أحد شيوخ الكنيسة الإنجيلية في بيروت وعلم في إحدى مدارسها. ثم اشتغل عدة سنين في مطبعة الأمريكيان فأحكم صناعة الطباعة وتولى تصحيح المطبوعات ومبيع الكتب إلى أن توفي في ١٠ نيسان سنة ١٨٨٥.

كان ذكي الفؤاد محباً للعلوم محسناً للكتابة وقد نفع مواطنيه بعدة مصنفات تأليفاً وتعريباً أخصها (الدر التنظيم في التاريخ القديم) و (الدرة اليتيمة في الأمثال القديمة) و (صوت النفير في أعمال اسكندر الكبير) و (الأجوبة الوافية في علم الجغرافية) و (أوضح الأقوال في متلف الصحة والصيف والمال) و (تحفة الأخوين إلى طلبة اللغتين عربي وإنكليزي). وله تأليف أخرى دينية.

وكان ينظم أيضاً فمن منظوماته ترانيم روحية في مجموع أغاني البروتستانت. هذه ترنيمة منها في الحرب الروحية:

١ - هلم جميعاً قريباً بعيد	فها صوت بوقٍ لأجل القتال
جنودُ الأعداء نراها تزيد	فها تواتوا سلاحاً لذاك النزال
قرار	
مرتمون نحن مرتمون	سـيـوفكم احمـلوا هـاجمـين
هو ذا الحربُ شديد طويل	سـيروا بقـوات ربِّ إسرائيل
٢ - عدوي أمامي بصف القتال	فأثبت لا عن طريقي أحيذ
ونغمتتنا قوتَي ذي الجلال	فسيروا بإيمان عزم وطيـد...

ومما نظمه فنشره تحت رسمه:

وإن نُقِضَ البیتُ الَّذي أنا ساكنٌ
ونفسيّ تحيا عند فاديٍّ دائماً
فلي في السما بيتٌ من الله قد بُني
وإن يكن الجسمُ الترابُ قد فني

إسكندر أبكاريوس

وتوفي في هذه السنة ١٨٨٥ كاتب آخر أصاب بعض الشهرة في أوروبا فضلاً عن الشرق بمنشوراته العربية أعني به إسكندر آغا أبكاريوس وكان أبوه يعقوب بن أبكار أرمينيا غريغوريا ذا شأن يسكن بيروت، فلما مات أرخَّ وفاته الشيخ ناصيف اليازجي سنة ١٨٤٥ بقوله:

مضى إلى الله من طابت سريرتهُ بالله وهو بعفو الله مصحوبُ
فقل لمن جاء بالتاريخ يطلبهُ قد صار في حضن إبراهيم يعقوبُ
ونشأ ابنه إسكندر ويوحنا على حب الآداب منذ حداثتها وجال إسكندر في أنحاء أوروبا
ثم عاد إلى بيروت واشتغل بالتأليف، ثم دخل مصر وخدم أصحابها ومدحهم فأجازوه
بتقليده عدة مناصب. وتوفي إسكندر في أواخر سنة ١٨٨٥ في بيروت وكان أتى إلى وطنه
طلباً للعلاج من مرض السَّحج. وله مصنفات مفيدة أنبأ في تأليفها بحسن ذوقه وكثرة
مطالعتة منها كتابه (نهاية الأرب في أخبار العرب) طبعه أولاً في مرسيية سنة ١٨٥٢، ثم زاد
عليه وجدد طبعه في بيروت في المطبعة الوطنية سنة ١٨٦٧. وألف سنة ١٨٥٨ كتاب روضة
الآداب في طبقات شعراء العرب قرَّظه من الأدباء منهم الشيخ أبو حسن الكسبي حيث قال
من أبيات:

لله روضةُ آداب لقد جمعتُ أوراقها ثممر الأخبار والسيرِ
ناهيك من طبقات شاد محمها إسكندر فاحتوت من مبدع الأثر
ولإسكندر أبكاريوس ديوان شعر لم يزل مخطوطاً وكتاب ديوان الدواوين في أجود
المتقدمين والمتأخرين، وكتاب نزهة النفوس وزينة الطروس. وله ترجمة إبراهيم باشا دعاها
المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، وكلها مسجعة يتخللها الشعر في آخرها قائمة تأليفه.
ومثلها أيضاً المآثر الخديوية ووزراء الحكومة المصرية نشرها في أعداد الجنان سنة ١٨٧٤،

وكتاب التحفة الغراء في محاسن تونس الخضراء. وله تاريخ مخطوط قدمه لمصطفى فاضل باشا، وسماه نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان. ومن شعره قوله يهنئ الخديوي سعيد باشا لما زار بيروت سنة ١٨٥٩:

شَرَّفْتَنَا فَتَزِينَتْ أَقْطَارُنَا وزهت ممالها وطلب المورد
وَتَنَوَّرَتْ بِيْرُوتٌ حَتَّى أَصْبَحَتْ من نور مجدك كوكباً يتوقد
وقال يمدح إبراهيم باشا:

هَمَامٌ كَانَ فِي الدُّنْيَا فَرِيدَا وركناً في المهمات العظام
وَلَا زَالَتْ وَقَائِعُهُ الْمَوَاضِي مخلدَةً عَلَى طُولِ الدَّوَامِ
وَقَائِعٌ لَو رَأَاهَا الطِّفْلُ يَوْمَا لَشَابَ لَهْوَهَا قَبْلَ الْفِطَامِ
وقال في محمد توفيق باشا إذ كان ولي العهد:

يَا مَنْ بِهِ آمَالُنَا تَتَعَلَّقُ ونفوسنا للقائه تتشوقُ
فِيكَ الْفَضَائِلُ وَاللِّطَائِفُ وَالتَّقَى والمكرمات وكل حسنٍ يُرْمَقُ
لَمْ تَجْتَمِعْ فِيكَ الْمَحَاسِنُ إِلَّا مَا منك المحاسنُ كُلُّهَا تَتَفَرَّقُ
تَاهَتْ بِكُمْ مِصرُ السَّعِيدَةِ عِزَّةٌ وغدا جبين العصر فيكم يشرقُ
لَا زَالَتْ لِلْقِصَادِ أَحْسَنُ كَعْبَةٍ وطريق رزق بابه لا يُغْلَقُ
وَاسْلَمَ وَدَمٌ فِي غِبْطَةٍ وَسَعَادَةٍ وتُؤَدِّمُ مَأْمُولاً وَأَنْتَ مَوْفَقُ

أديب إسحق

دمشقي الأصل ولد في ٢١ ك ٢ سنة ١٨٥٦ في الفيحاء وتعلم في مدرسة مرسلها للعاشرين اللغتين الفرنسية والعربية، ثم أكرم بالكتابة والإنشاء ونظم الشعر منذ ربيع شبابه وقدم بيروت ودرس في مدرستها القديمة في حي الصيفي، ثم اجتمع بقوم من شبانها العصرين فنزع منزعهم واشتغل بالسياسة والتأليف، ثم انتظم في سلك جمعية أنشأها الماسون سنة ١٨٧٣، وكان المترجم من أخص أعضائها العاملين وقد ألغتها الحكومة مدة لتطرف أصحابها وطعنهم في الحكومة والدين كمألوف عادتهم.

ثم تولى تحرير جريدة التقدم فضمَّنها فصلاً ثورية دحضتها جريدة البشير. ثم تنقل بعد ذلك فسافر إلى فرنسا، ثم عاد إلى مصر وكتب عدة جرائد وأنشأ جريدة مصر وحرَّر في جرائدها إلى أن أصيب بداء السل فقفل راجعاً إلى سواحل الشام ولم يلبث أن توفي في قرية الحدث قريباً من بيروت في ١٢ حزيران سنة ١٨٨٥، وهو في عز شبابه ودفن دفناً مدنياً.

كان أديب إسحق سلس القلم سريع الخاطر ذلق اللسان إلا أن مجاهرته بمعاداة الدين وأتباعه للتعاليم الماسونية أظلم عقله وأفقداه أصالة الرأي وسداد الفكر في أمور كثيرة. وكان إنشاؤه عصرياً يشبه فيه بإنشاء كتبة الفرنج ولأديب إسحق شعر حسن نختر منه قوله في وصف المرأة:

حَسِبَ الْمَرْأَةَ قَوْمٌ آفَةٌ	من يدانيها من الناس هلكُ
ورآها غيرهم أمنيَّة	ملك النعمة فيها من ملكُ
فتمنى معشرٌ لو بُدَّتْ	وظلام الليل مشتدُّ الحلكُ
وتمنى غيرهم لو جُعِلت	في جبين الليث أو قلب الفلكُ
وصوابُ القول لا يجهلُهُ	حاكمٌ في مسلك الحق سلكُ

إنما المرأة مِرأةٌ بها كلُّ ما تنظره منك ولك
فهي شيطانٌ إذا أفسدتها وإذ أصلحها فهي ملك
وقد جمع الأديب جرجس أفندي نحاس منتخبات من إنشاء الأديب فطبعها بكتاب
الدرر.

إلياس صالح

هو إلياس بن موسى بن سمعان صالح ولد في ٢٦ ك ١٨٣٩ في اللاذقية من أسرة وجيهة من طائفة الروم الأرثوذكس، وبعد دروسه مبادئ العلوم في وطنه تمكن بكده وذكاء طبعه وثباته من التأليف ونظم الشعر وخدم عدة سنين كترجمان القنصلية الأميركية وكعضو في محكمة الدولة التركية. وسافر إلى مصر ومدح حضرة الخديوي إسماعيل باشا سنة ١٨٧٥ بقصيدة مطلعها:

البشرُّ في قطرٍ مصرٍ فاحِ عاطرُهُ واليُمنُ قد نورت فيه أزهْرُهُ
يقول فيها:

ربُّ المكارمِ إسماعيلُ من شرفت بهِ المعالي وزادتها مفاخرُهُ
مولي عليٍّ أثيلُ المجدِ باذخُهُ شديدُ عزمٍ شديدُ الرأي باهرُهُ
منيفُ فضلٍ وريفُ العدلِ ناشرُهُ كثيرُ حلمٍ غزيرُ الجودِ زاخرُهُ
همومُ كل كئيبٍ فهو فارْجُها وكسرُ كل كسيرٍ فهو جابرُهُ
ركابُهُ السعدُ بالإقبالِ يخدمها وجيشُهُ الله أنى سارِ ناصرُهُ

كانت وفاة إلياس صالح في وطنه في ١٥ أيلول ١٨٨٥ م، وأبقى من بعده آثاراً منها نظم المزامير عني نجله رفيق أفندي بطبعه، وله تاريخ مطول لمدينة اللاذقية وطنه لم يطبع وعرب عدة تأليف تاريخية من الفرنسية وله ديوان شعر. وكان متقناً للغة التركية فعرب بعض تأليفها كال دستور الهمايوني وقوانين الدولة.

وكان المرحوم إلياس صالح تقياً متعبداً وقد نظم في مديحها:

كلُّ من في مدحِ مريمٍ قد تغنى وتغنم
من خطوب الدهر يسلم آمنأ كل المعاطب

من دعائك يا تقيّة
فهل لا يرتدُّ خائبٌ
في الخطايا ضاع عمري
ونما جهلي

إلياس صالح

اسم آخر ولد في بيروت سنة ١٨٦٩ وقيل: ١٨٧٠ وتلقى العلوم في الكلية الأميركية ونبغ في العربية إلا أن الموت لم يسمح له بخدمة الآداب زمناً طويلاً فقصفته المنية غصناً رطباً في ٢ حزيران سنة ١٨٩٥ م، وكان سافر إلى مصر فكتب في جريدة المقطم وله قصائد كثيرة، وكان سلس النظم مبتكر المعاني يقول الشعر عفواً، وكان حر الأفكار يجاري في ذلك بعض المحدثين. وله قصيدة في الحرية مزج فيها الغث بالسمين. ومن أقواله الزهدية الحسنة ما ورد له في جملة موشح:

يا إلهي من ذنوبي والخطا	مُلئ الدلو لعقد الكُرب
وفد الشيب بفؤدي وخطا	وأحاطت بي دعاوى الكرب
يا مليكي في يدي قد سقُطا	وأنا بعدُ أنا لم أئُتب
إنما في دم فادي إلا نـما	أرتجي تطهير كل الدنسِ
فهو عوني كلما الخطبُ طما	وادلهمهم وسط الخندس

ومن ظريف قوله لغز في اسمه إلياس صالح:

أفصح لنا يا صاحبي	ولك منا المننُ
ما اسم فتى تفسيره	قطع الرجاء حسنُ
وله في ذم النحو متفكهاً:	

ما ذا الذي يهمني	إن قام زيدٌ أو قعدُ
أو إن ذهبْتُ ماشياً	أو راكباً نحو البلدُ
أو كان زيدٌ مبتدأً	أو فاعلاً سدّ المسدّ

أَوْ إِنْ يَكُنْ ذَا الْأَسْمِ بَيْنِي
تَصَالِحُ الْفَعْلَانِ أَوْ
فِي النَّحْوِ لَا تَقْهَرُنِي
وَأَفْعُلُ النَّفْضِيلَ كَم
وغير هـ ذِي عَقْدُ
تَرَى بِهَا قَوَاعِدًا
مُخْتَمَمَةً جَمِيعَهَا
وقال يصف سفينة سافر عليها:

تلك السفينة بسم الله مجراها
تجري وفي قلبها النيران موقدة
سكرى تيمد بمن فيها فتسكرهم
وليس بدع إذا سارت بنا مراحا
هيفاء لكنّها بالقار قد حُضبت
سلطانة البحر إذ ترسو يحيط بها
وإن سرت نشرت أعلامها وشدا
طوراً ترى في قرار أليم غائصة
لم أنس ليلة بتنا والرفاق بها
وحولنا الماء من كل الجهات ولا

أَوْ يَكُنْ هَذَا يَدُ
تَنَازَعًا طُولَ الْأَبَدِ
إِلَّا تَفَاصِيلَ الْعَدَدِ
قَدْ شَدَّ فِيهِ وَشَرْدُ
تَبَا لَهَا تَيْكَ الْعُقْدُ
بَدُونِ مَعْنَى وَزَبْدُ
بِقَبْسِ عَلَيْهِ مَا وَرَدُ

على دموعي مسراها ومرساها
مثلي كأن هوى الأوطان أشجاها
وهما فكيف إذا ذاقوا حياها
فتلك جارية يهتز عطفهاها
كالخود ينجذب بالحناء كفاها
من القوارب جند من رعاياها
صوت البخار لها والموج حياها
وتارة فوق هام السحب تلقاها
نرى النجوم ولو شئنا مسناها
شيء سوى الماء يغشانا ويغشاها

أنطون صقال

هو أيضاً أحد رجال النهضة الأدبية التي حصلت في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولد في ٣ آذار سنة ١٨٤٢، وتوفي في الشهباء في ٨ كانون الأول سنة ١٨٨٥. أقبل على الآداب صغيراً وتعلم اللغات الشرقية والأوروبية في مدرسة عين ورقة، ثم في حلب ومالطة. وخدم في هذه الجزيرة المعارف زمناً طويلاً، ثم رافق الجنود الإنكليزية في حرب القرم بصفة ترجمان أول سنة ١٨٥٤م.

له مراسلات نشرية ومنظومات شعرية ومقالات أدبية تنوّه بفضلها ووفرة اطلاعه على دقائق اللغة. وله ديوان شعر أكثره حكم لم يطبع. وقد نشر منه شيئاً نجلاه الأديب ميخائيل أفندي صقال في كتابه السمر في سكان الزهرة والقمر وهو على شكل رواية فلسفية ضمنه رؤيا خيالية شخّص فيها والده بعد وفاته نازلاً من مقامه في الزهرة ليعلمه ما يجري في العالم الآخر، وقد ادعى فيها الكاتب بعض المدعيات الغريبة التي تبعد عن التصديق أو قل إنها تمويه وتلفيق لولا كونها من أضغاث الأحلام. ومما روى في كتابه لوالده من الشعر قصيدته العينية ومنها:

تدورُ بيّ الأسواء لم أدِرِ ماأثمّي	وما ليّ إسعافٌ بذّي الدار من عَيْنِ
ودهري قد أنفقتُ دينارَ حظّه	يطالبنّي بالأصل منه وبالعين
فيا أيها الدهر الخؤون ألا ارتدعْ	على أنني ما بعُتْكَ العَيْنَ بالعينِ
فعين الهوى دمٌ وآخِرُهُ دم	ومعظمه ليلٌ فما فيه من عينِ
لعمري هم الأعيانُ بالعينِ خُضِعَ	جُثِيّاً على عَيْنِ أذلاء للعَيْنِ
وفيتين في المكيال والعينُ شأنهم	يجودون بالأرواح فضلاً عن العين
يروون في حقل الأمانِ بذورها	بتسكاب دمع سال كالماءِ من عين

وله قوله:

كم أراعي النذل حلما
وألمين القول لطفما
جاز من جارك يا
واعتزل من خان عهدا
وهو مـ شتد الخـ صام
وهو فـ ظ في الكلام
قلبي بقطع وانصرام
واخل من سوء اتهم

سليم دي نوف

ولد في طرابلس سنة ١٨٢٨ وبعد أن أحرز جانباً من مبادئ اللغة والعلوم في وطنه تعين وكيلاً لشركة البواخر الروسية، ثم ترك الوكالة وسافر إلى أوروبا وعين التمدن العصري في إنكلترا وفرنسا. وبعد عودته إلى مسقط رأسه أكب على الدرس والمطالعة ونقل إلى العربية رواية المركيز دي فونتانج فطبعتها سنة ١٨٦٠، وبقي على ذلك مدة إلى أن انتدبته الدولة الروسية بإشارة قنصلها في بيروت إلى تدريس العربية في كلية بطرسبوج فشخص إليها مع أهله وأقام فيها إلى سنة وفاته في خريف سنة ١٩٠٢ بعد أن حصل في عاصمة الروس على عدة امتيازات نالها بفضل سعة معارفه ومصنفاته حتى نظم في جملة مستشاري الدولة.

كان يعرف لغات متعددة يكتب فيها ويتكلم بفصاحة ولا سيما الفرنسية. ومن مصنفاته بالفرنسية سيرة محمد صاحب الشريعة الإسلامية وغير ذلك. وكان ينظم في العربية، ومن شعره رثاؤه لوطنه وصديقه سليم دي بسترس السابق ذكره، فقال عند نقل رفاته إلى وطنه ليدفن في ضريح أسرته:

العيد وافي يا سليم إلى ما	هذا التنائي عن الديار إلى ما
ما حظنا فيه التهاني وإنما	أهدي إليك عن الدموع سلاما
هاجت شجوني بعد موتك كلها	واسودَّ عمري حاضراً وأماما
أقفرت قلبي والديار كلاهما	أضحى ببعذك يا سليم ظلاما
أبكيتك لا أسف الحياة فإتمها	حلمٌ تبطن جوفه أحلاما
أبكيتك لا أسفاً لفقد شبيبة	مررت كما خرق الشعاع غماما
أجل الزهور موقتٌ بصاحبها	وذاك الملائك لا تطيل مقاما
لكنني أبكي السماحة والنهي	أبكي العفاة إذا أتوك زحاما

يذري الدموع على الخدود سجاما

كنا نقبّل كفه إكراما

هذي دموعي فلا تسلني كلاما

أبكي الفقير على ضريحك واقفا

أبكي لليتيم وقوله ابن الذي

وختمها بقوله:

أعجزت شعري يا سليم فلا تلم

إبراهيم بك كرامة

هو ابن بطرس كرامة شاعر الأمير بشير الذي مر لنا ذكر ترجمته، ولد إبراهيم في دير القمر في ٩ نيسان ١٨٢٣ وجرى صغيراً على آثار والده وبرع في العربية ودخل ديوان الكتابة في لبنان، ثم سافر إلى الأستانة وتوظف في جملة عمال الدولة وامتاز هناك في العلوم الشرعية وتقلد منصب الترجمة بنظارة الخارجية مكان والده، ثم جاء مع فؤاد باشا سنة ١٨٦١ إلى سورية ترجماناً ونائب رئاسة المجلس الذي فوق العادة. ولأسباب نفى إلى جزيرة مدْي (متلين) على أثر ذلك. وتزوج بيونانية من سكانها فولد له بطرس قائم مقام زحلة سابقاً سنة ١٨٦٦. ثم عاد إبراهيم إلى الأستانة فصار عضواً في مجلس المعارف فاقترح عليه تأليف معجم عربي وتركي. ومن ظريف ما مدح به إبراهيم بك قول الشيخ ناصيف اليازجي فيه لما رحل إلى القسطنطينية ليتسلم مأموريته:

خلت الديارُ فلا كرامةَ عندها	تُرْجى ولا ابنُ كرامةٍ المُعْنفِي
هيهات أنْ ابن الكرامة حلَّ في	دار الخلافة بالمقام الأشرِف
سبحان ذي العرش المجيد فقد بدت	في شخص إبراهيم صورةً يوسفِ
أصلى بنار فراقه قلبي ولا	بردٌ هناك ولا سلاةً فتنتظي
ذاك الكريمُ وابن الكرام ومن له	الذكر الشهير ومن له اللطف الخفي
ورث الكرامة عن أبيه وجده	لكنه بتلديها لا يكتفي
شهدت له الأتراك بالفضل الذي	شهدت به الأعراب دون تكلفِ
قد نال ما هو أهل ما هو فوقه	فانظر لأيهما الهناء وانصفِ

ثم عاد إبراهيم كرامة إلى وطنه سنة ١٨٨٥ واعتزل الأشغال، وكانت وفاته في بيروت سنة ١٨٨٨. فقال يؤرخ ضريحه جناب الفيكنت فيليب دي طرازي:

مشوى غدا في حماه الآن مضطجعا
سليلاً بيت رفيع الشأن مشتهر
بعلمه علكم قد زانه عمل
بنو كرامة قد ناحوا عليه كما
مضى وأحرف تاريخ لنا رقت
من كان في قومه من أكبر العميد
في الشعر والنثر والتدبير والرشد
برأيه غرة في جبهة الأسد
عليه ناحت ديار العرب من كمد
حيت يا قبر إبراهيم للأبد (١٨٨٨).

وكان إبراهيم بك كرامة مغرباً بالأداب يتداول الرسائل مع مشاهير عصره كالشيخ
ناصر اليازجي وجبرائيل الدلال، وكان ينظم النظم الحسن وله ديوان لم يطبع. فمن قوله
بيتان في تاريخ ظهور جريدة السلام في الأستانة سنة (١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤ م):

نشرت صحيفتنا السلام ونشرها
إن ظن بالخبر الصحيح مؤرخ
ويروى له في فتاة لبست ثوباً وردياً:

وردية الخد بالوردي قد خطرت
لم يكف قامتها الهيفاء ما فعلت
قد طاب يا أهل الوفاء لديكم
يتلو حوادثه السلام عليكم
تمس تيهاً وتشي القد إعجاباً
حتى اكتست من دم الطلاب أثواباً

أسعد طراد

هو أسعد بن ميخائيل طراد من أسرة شائعة الفضل في هذه الأصقاع من نخبة شعراء سورية. ولد في بيروت سنة ١٨٣٥ وتخرج في حداثته في مدرسة أعبية الأمريكية. ثم تردد على الشيخ ناصيف اليازجي فأخذ عنه واجتمع بأفضل أساتذة العربية في عهده حتى أتقن العلوم اللغوية ونظم الشعر في شرح الشباب فطُبع عليه وكان يقوله على البديهة. خدم الدولة العلية عدة سنين بنشاط، ثم انتقل إلى مصر سنة ١٨٧٢ وتعاطى في أنحاءها التجارة إلى وفاته سنة ١٨٩١.

له شعر كثير متفرق جُمع معظمه في ديوان بعد وفاته بهمة بعض أنسبائه، فطبع سنة ١٨٩٩ في الإسكندرية. وله غير ذلك من الآثار منها مقالات أدبية نشرها في الجنان. ومن شعره الذي لم نجده في ديوانه قوله في موت بعض الكرام:

يا أرحمَ الناس قلباً عند نائبةٍ هلا رحمتَ عَويل الصارخ الوجِلِ
دارت عليك من الأقدار وأسفا كأسٌ فملت بها كالشارب الثَمِلِ
هذا الشرابُ الذي لأبدٍ منه لنا وليس تمنعُ منه كثرةُ الحيلِ
وكيف يجزَعُ أهلُ الأرض من حدثٍ جرى على أنبياء الله والرُّسلِ
وله في نعمة الله طراد المتوفى سنة ١٨٥٥ ولم يرو في ديوانه:

ركن البيت طرادٍ مال مهندا يوماً وأبكى جميع الأهل والغربا
حاز التقى والرضا والبرِّ في دعةٍ ورغبةً الخير والإحسان والأدبا
مضى إلى الله مبروراً يحق له شكر على صفحات القلب قد كُتبا
كرامةٌ كل تاريخ مجودها لنعمة الله حقُّ الشكر قد وجبا
وقال يرثيه:

لا تخش يا قلبُ إحراقاً من الألمِ أما ترى دمع عيني مُغرَقاً بدمِ
كلُّ بكى نعمة الله التي فُقدت منّا وكم في الوري بالِ على النعم

وهي قصيدة طويلة وجدناها في أحد مجاميع مكتبتنا الشرقية. ويليها أبيات ثانية ختمها

بهذا التاريخ:

لما خلا من ديارٍ كان يؤنسها فحزنه ما خلا من قلبِ عيلتهِ
وبت أنشد تاريخاً به أبدا لا أعدم الله قلباً فيض نعمتهِ

جبرائيل حبيب طراد

ويسمى أيضاً جبران أبا خير كان درس في المدرسة الوطنية في بيروت، وتمكن من نظم الشعر الجيد الذي لم يعن بجمعه. توفي في سنة ١٨٩٢ وكان مولده سنة ١٨٥٤. فمن شعره قوله يرثي إسبيريدون طراد ياور السلطان عبد العزيز المتوفى سنة ١٨٧٠:

رَكْنٌ هَوَى بَدْيَارِ إِسْلَامٍ بُولَ إِذْ رَجَّتْ لِسَقَطَتِهِ الْمَدَائِنُ وَالْقُرَى
لَمْ يَحْمِهِ السِّيفُ الصَّقِيلُ وَلَا الصَّبَا وَالْأَهْلُ وَالصَّحْبُ الْفَطَاحِلُ وَالذُّرَا
قَدْ كَانَ يَجْمَعُ فِي حِمَاهُ كِتَابَا وَالْيَوْمَ أَضْحَى فِي الْمَقَابِرِ أَفْقَرَا
مَنْ كَانَ لَا يَرْضَى الْقُصُورَ مَسَاكِنَا سَكَنَ التَّرَابُ فَبَاتَ فِيهِ مَسْفَرَا
مَنْ كَانَ غَوْتًا لِلْفَقِيرِ وَعَاضِدَا أَمْسَى أَضْرَّ مِنَ الْفَقِيرِ وَأَفْقَرَا
إِنْ غَابَ عَنِ أَبْصَارِنَا يَبْقَى لَهُ رَسْمٌ بَطْنِي الْقَلْبِ دَامَ مَصَوَّرَا
فَعَلِيهِ نَعْمَةٌ رَبِّهِ وَسَلَامُهُ وَعَلَى ثَرَاهُ الْغَيْثُ يُسْكَبُ مَمْطَرَا

ومن قوله في ذكر محامد الفقيه سليم دي بستر:

عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَحْرَى بِنَا بَأْنَ نَغْبَطُ مِنْ مِثْلِ السَّلِيمِ نَمَا سَعْدَا
حَصِيفَ قَضَى دُنْيَاهُ فِي خَوْفِ رَبِّهِ فَحَدَّثْتُ وَلَا تَطْلُبْ لِأَفْضَالِهِ حَدَا
فَكَمْ غَاثَ مَحْتَاجًا وَأَطْعَمَ جَائِعَا وَعَادَ أَخَا سُقْمٍ فَأَوْسَعَهُ رِفْدَا
وَكَمْ مِنْ أَيَادٍ جَاءَهَا وَمَكَارِمِ فَكَانَتْ بِجِيدِ الدَّهْرِ مِنْ فَضْلِهِ عَقْدَا
عَلَا طِيبُ جَدْوَاهُ عَلَى الْوَرْدِ نَفْحَةً وَذَكَرَ اسْمَهُ بِالْفَضْلِ قَدْ زَيْنَ الْمَجْدَا
جَدِيرٌ بَأَنَّ الْفَخْرَ يَشْكُو فِرَاقَهُ وَمَنْهُ رَوَاقُ الْفَخْرِ قَدْ كَانَ مَمْتَدَا

سليم بك تقلا

وكان تلك السنة ١٨٩٢ كانت مشؤومة على الآداب العربية فتوفي في أواسط تموز رجل لبناني نبغ في تحرير الجرائد خصوصاً نريد به سليم بك تقلا. ولد المذكور سنة ١٨٤٩ في كفر شيبا من قرى سواحل بيروت، وكان رومياً ملكياً كاثوليكياً فاستنشق منذ نعومة أظفاره ريح الآداب التي نفا شذاها في مسقط رأسه من الحديقة اليازجية. فدرس في صغره في مكتب قريته، ثم دخل مدرسة أعبية الأمريكية، لكن حوادث السنة ١٨٦٠ المشؤومة اضطرتته إلى أن ينزل إلى بيروت فأكمل دروسه في المدرسة الوطنية على المعلم بطرس البستاني وابنه سليم.

وكان في كل تقلباته مثالاً لأقرانه يسبقهم بذكائه ورغبته في إحراز العلوم. ولما أنشئت سنة ١٨٦٥ المدرسة البطريركية في بيروت انتدبه أصحابها إلى تدريس العربية فيها فكان رصيفاً للشيخ ناصيف اليازجي فيلقي عليه مشاكله اللغوية حتى رسخت قدمه في العلوم اللسانية وأمكنه وضع كتاب مدرسي في الصرف والنحو دعاه مدخل الطلاب. فاتخذته المدرسة دستوراً للتعليم وزادت ثقة الرؤساء به فجعلوه رأس أسانذتهم ووكيل أعمالهم.

ثم اجتذبه مصر لما رأى في ربوعها من الحرية وفي أمرائها من الأريحية والتنشيط فأمرها ورفع إلى خديويها إسماعيل باشا قصيدة رنانة مهدت له سبيل النجاح فنال الامتياز بإنشاء جريدة الأهرام سنة ١٨٧٥، وهي التي لا تزال إلى اليوم إحدى جرائد مصر اليومية الكبرى فتحيا بروح منشئها، وقد لعبت في حياته دوراً مهماً مع ما صادفته في سيرها من العوائق لاسيما سنة ١٨٨٢ وقت الحوادث العرابية إلا أن عزم محررها لم يغلب بالك العوارض، بل زاد نشاطاً وعانى أعمال الصحافة إلى وفاته فتوفي في قرية بيت مري سنة ١٨٩٢، وكان قصد لبنان تغييراً للهواء وطلباً للشفاء من ألم أصابه في القلب فلم يمهلته أجله زمناً طويلاً ونقلت جثته إلى موطنه بإكرام.

كان لسليم بك تقلا موقع عظيم في نفوس أرباب الأمر من دولته فنال منهم ومن الدول الأجنبية عدة رتب وامتيازات شرفية. وهو قد أبقى من آثار قلمه - ما خلا فصوله ومقالاته

المتعددة في الأهرام - مجموعاً فيه مقاطيع من نظمه ونثره. فمن حسن شعره قوله يصف أساطيل حربية:

تلك الأساطيل فوق الغمر سابحةً والغمرُ منها كسهلٍ وهي كالقُللِ
دانست لهيبتها الأنواء خاضعةً فحيثما قصدت حلت بلا مهلِ
خاضت عباب بحار الأرض آمنةً عصف الرياح وقصف الرمي بالكالِ
إذا شكت سفنُ الخصم العنيد ظمها نزالها أوردتها الماء للذقلِ
وإن تشامخ حصنٌ ذكَّ عن أسسٍ ولو تطاول مرفوعاً إلى زحلِ
تهابها الجنُّ ثمَّ الإنسُ من بشرٍ والنسر في الجوّ مثل الحوت في الوشلِ
هذي قوى الماء فوق الماء ناشرةً بند الهلال فصف ما تبتغي وقلِ

ولسليم بك تقلا غير ذلك مما لم يطبع كرسائل ونبد تاريخية وروايات معربة، منها رواية متريدات ورواية أيوب البار. وهذه رسالة كتبها في تهنئة: السيد السند أطل الله بقاءه. لا أدري أي الثلاثة أهنئ إياك أم الرتبة أم نفسي؟ أما أنت فتساميك وإن كنت فوق ما نلت. وأما الرتبة فبشر فيها؛ لأنها دون من سمت إليه. وأما أنا فلأني أول مخلص لك وذك فتهنتي بما أفتخر به لك. ويا حبذا لو كان لي مداد برقي ويراغ كهربائي أفيك به حقك من سروري، ولعل ما بين قلبينا يقوم هذا المقام عني فأقول:

فإن أشكك أراجع فالدليل معي وإن تشكك فراجع فالدليل معك
ومن ظريف قوله فيمن عدله على التدخين:

عدل التدخين قومٌ قد رأوا بيدي سيكارة أعشقتها
قال: دعها فهي سمٌّ ناقعٌ قلت: لا والله لا أعتقها
إن تكن سماً فإني محرقٌ شرها بالنار إذ أحرقتها
وعليه فاعدلوا أو فاعدروا فعلى الحالين لا أطلقها
إن حلالاً أو حراماً أشربها فأننا الصبُّ الذي يعشقتها

نقولا نقاش

هو نقولا بن إلياس نقاش أخو المرحوم مارون نقاش أصل العائلة من صيدا وانتقلها إلى بيروت. وكان مولد المترجم في هذه المدينة سنة ١٨٢٥ وجرى على آثار أخيه في طلب العلوم ودرس اللغات وساعده في إنشاء الروايات التمثيلية. ثم تعاطى التجارة من السنة ١٨٥٩ إلى السنة ١٨٦٨ فانتدبه الحكومة إلى خدمتها كعضو مجلس الإدارة في لواء بيروت وكمدير جمارك الدخان فانكب على مطالعة قوانين ونظامات الدولة العلية.

تخرج في العلوم الشرعية على مشايخ العلماء أخصهم الشيخ يوسف الأسير فأحرز شهادة وكلاء الدعاوى ونُصّب عضواً دائماً في محكمة بيروت التجارية واشتغل وقتئذٍ بالتأليف وعزّب عن التركية عدة كتب قانونية وأضاف إليها الشروح والفوائد حتى صارت في دوائر الحكومة المحلية بمثابة الترجمة الرسمية يرجع إليها في حل المشاكل.

ونمت شهرة المؤلف بذلك حتى وقع عليه الاختيار سنة ١٨٧٨ كمعبوث بيروت إلى الأستانة في الندوة الدستورية لولا أن ثمره الدستور لم تنضج بعد فعاد بعد مدة إلى وطنه وأنشأ سنة ١٨٨٠ جريدة المصباح الكاثوليكية فنالت بتدبيره ومقالاته شهرة واسعة طول حياته.

وقد ضعف نور ذلك المصباح بوفاة منشئه حتى انطفأ تماماً. وكان المرحوم نقولا نقاش شديد التمسك بالدين مجاهراً بإيانه، وله من الكتب الأدبية خطب في مواضيع شتى سياسية واجتماعية. وله ديوان شعر طبع في المطبعة الأدبية سنة ١٨٧٩ ضمنه كثيراً من المعاني الحسنة والأوصاف العصرية، فمن ذلك قوله من قصيدة طويلة أرّخ فيها وصول ماء نهر الكلب إلى بيروت سنة ١٨٧٥:

يا أهل بيروت بشرى	قد صَحَّحَ فينا الرجاءُ
هَذَا هُوَ الْمَاءُ جَارٍ	فَلْتُرْوِ مِنْهُ الظَّمَاءُ
مَاءٌ لَذِيذٌ شَهِيٌّ	رَدُّهُ فِيهِ الْمُنْهَاءُ

بيروت ضاهات دمشقاً
فقل لمن عيروننا
تعالوا الآن تلقوا
سابقاً لبيروت أرخ
ومن أوصافه تعديده لعجائب مصر:

وزال عنها العناء
وقللة الماء داء
ماء وفيه السناء
في ثغرنا حل ماء (١٨٧٥م).

الله أكبر هذا عصرٌ تجديدٍ
عصرٌ جديدٌ له الأنوان باسمه
ذيالك ينطق في تسبيح خالقه
هذا يطير إلى العلياً بخفته
ترى السفائن أعلاماً مدرعة
ما البيض ما السمر إن ألفت مدافعها
كنا نخاف من الأفلاك صاعقة
تجوب أخبارنا كالبرق مسرعة
أضحت قوافلنا والنار تحملها
والله ما فعل قنات البخار سوى
هي الطبيعة جل الله مبدعها
كلّ يحاول منها كشف معجزة
ومن محاسن نظمه قوله في لبنان ومقاطعاته بعد حوادث سنة ١٨٦٠:

عصرُ المعارف لا بل عصرٌ تمجيد
تنسي على أهله الغر الصناديد
وذاك يلهج في حمدٍ وتوحيد
وذاك يخرقُ الجبال الجلاميد
إن تصدم الحصن ألقى بالمقاليد
كراتها الحمر من أفواهها السود
أضحت من اليم تأتينا بتهديد
تكادُ تسبق فكراً غير مولود
تسير كالطير لا كالعيس في اليد
ضرب من السحر لكن للخير محمود
إلى الوجود بدت من عمق مفقود
فكل من جد يلقى جل مقصود

أصبحت مغتنم الرضا الشاهاني
يروى حديثاً عن بني نبهان
أضحى عزيزاً أخصب الوديان

الله درك يا حمى لبنان إذ
نشرت معارفه الجليلة إذ غدا
وبقائه ذلك العزيز مقامه

وَبِمَتْنِهِ وَبِفِرْعِهِ حَلَّ الْمَنَى
وَبشُوفِهِ يَشْفَى الْعَلِيلُ تَيْمِنَا
قَدْ عُدْتَ يَا عَرْقوبَهُ عَمَّا مَضَى
وَكَذَا الْمَنَاصِفُ أَنْصَفَتْ لِمَا صَفَتْ
وَبكسروانَ تَرَى الْأَمَانَ مَوْطِدَا
وَتَرَى الْقَوَائِدَ كَالْقَطِيعِ مَطَاوِعَا
وَجُبَيْلُهُ وَجِبَالُهُ وَسَهْوَلُهُ
وَبزَاوِيَّتِهِ قَدْ بُنِيَ نَعَمَ الْبِنَا
تَحْمَى بِسَيْفٍ بَاتِرٍ بَتْرُونُهُ
نَادَى حَسَامُ الْعَدْلِ فِيهِ هَاتِفَا
بِجَنُوبِهِ وَشَمَالِهِ تَلْقَى الْهِنَا
قَمَّ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْقَدِيمُ زَمَانُهُ
نَسَجَ الرِّبْعُ بِنَحْوِ هَامِكِ خَوْذُهُ
هَامٌ تَكَلَّلَهُ الثَّلُوجُ أَكْلَةً
وَالخِصْبُ فِي أَكْفَانِهِ وَوَسْوَطِهِ
حَتَّى الصَّخُورُ غَدَتْ رِيَاضًا أَثْمَرَتْ
وَمَنَاهِلٌ يَحْيِي الْقُلُوبَ وَرَوْدُهُهَا
هُوَ جَنَّةٌ فِي الْأَرْضِ تَحْكِي لِلسَّمَاءِ

وَالجُرْدُ أَضْحَى سَاحِلًا لِأَمَانَ
عَزْبَاهُ قُلُّ بِالخَيْرِ يَلْتَقِيَانِ
وَغَدَوْتَ مَعْرُوفًا بِصَدَقِ لِسَانِ
فِي خِدْمَةِ تَهْدَى إِلَى الْأَوْطَانِ
مَنْ سَيْفِ كَسْرَاهُ الْجَلِيلِ الشَّانِ
وَكَذَاكَ قَاطِعُهُ بِوَصْلِ دَانِ
وَوَعُورُهُ حَاكَتْ رِيَاضَ الْبَانِ
هَلْ لَا وَذَا وَعَدُّ مَنْ الرَّحْمَانِ
وَكَذَا غَدَتْ أَمْيُونُهُ بِأَمَانَ
أَلْقَى بِشَرِّي كُلَّ مَنْ عَادَانِي
وَبشَرْقِهِ وَبِغَرْبِهِ هِنَانِ
وَانظُرْ هَضَابَكَ بِهَجَّةِ الْأَكْوَانِ
كَزَبْرَجِدٍ قَدْ صَيَغَ مَعَ مَرْجَانِ
بِيضَاءِ تَكْفِي عَنِ جَلِيلِ مَعَانِي
قُلُّ جَنَّةٌ تَزْدَانُ بِالْأَفْنَانِ
مَنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ بِهَا زَوْجَانِ
وَعِيُونُهُ تَرُوي ظِمَا الظَّمَانِ
وَالخَلْقُ تَرْتَعُ فِي رِيَاضِ أَمَانَ

وله قصيدة طويلة تنيف على ١٤٠ بيتاً دعاها (التوبة) وضمها المعاني الزهدية، نشيداً نظمته لجمعية مار منصور. كانت وفاة نقولا نقاش في ٤ كانون الأول سنة ١٨٩٤ فأبّنه مصقع الخطباء ورثاه جل الشعراء فجمعت أقوالهم في كراس مخصوص.

يوسف الشلفون

كان أحد أنصار النهضة الأدبية في الفصل الثاني من القرن التاسع عشر. وهو يوسف بن فارس بن يوسف الخوري الشلفون كان جده حاكماً على ساحل لبنان من قبل الأمير بشير الشهابي الكبير. أما حفيده يوسف فكان مولده نحو سنة ١٨٤٠، درس في مكاتب بيروت مبادئ العربية واللغات الأجنبية واشتغل مدة في المطبعة السورية التي أنشأها المرحوم خليل أفندي الخوري سنة ١٨٥٧ بصفة مرتب حروف ومصحح مطبوعات.

وفي إثر حوادث سنة ١٨٦٠ استدعاه فؤاد باشا معتمد الدولة العلية لترتيب ونظارة المحررات الرسمية التي كانت تطبع في التركية والفرنسية. وبعد أن تقرر نظام جبل لبنان أنشأ على حسابه مطبعته المعروفة بالمطبعة العمومية سنة ١٨٦١، وكان يوسف الشلفون ذا همة عظيمة فانتدبه أول متصرف في لبنان المرحوم داود لتنظيم مطبعة في مركز المتصرفية فقام المندوب بهذه المهمة القيام الحسن.

ثم صرف عنايته إلى إنشاء الجرائد فنشر منها أربعاً وهي الزهرة، ثم النحلة، ثم النجاح وأخيراً التقدم، وذلك بالاشتراك مع بعض الكتبة المجيدين كالقس لويس صابونجي والخوري يوسف الدبس وأديب إسحق. ثم اشترك مع المرحوم رزق الله خضرا فجعل مطبعته في خدمة الطائفة المارونية إلى أن انفصل عنها وأنشأ المطبعة الكلية

وقد أضر بالترجم تقلبه في الأشغال وميله إلى ذوي المبادئ الحرة. وكان أحد أعضاء الجمعية العلمية السورية، وفي مطبعته نشرت أعمالها في السنتين ١٨٦٨ - ١٨٦٩. وكان حسن الكتابة وله نظم جمعه في ديوان ودعاه (أنيس الجليس) وطبع قسماً منه في مطبعته الكلية سنة ١٨٧٤. فمن نظمه قصيدة في مدح داود باشا هذه بعض أبياتها:

ضاءت بشمس سعودك الأيام وزهت بطلعة مجدك الأعوام
وسمًا بذانك سفح لبنان الذي حسدته مصر بعزوه والشام

فكأنه فلكٌ وأنت بأفقه
أقطاره بالعدل منك استأمنت
يا أيها المولى الذي عن وصفه
قلدت قوماً تحت أمرك منه
ونسخت آيات المظلم بعدما
ونصبت يا داوُد أحكاماً بها
فإنالك الذكر الجميل مخلداً

وقال مهنتاً أحد الرهبان اليسوعيين في عيدهِ فافتتح كلامه بهذه الأبيات:

المرء يُعرفُ في جميل خصاله
والشهمُ من نال العُلا في جدّه
ويشيد صرح الخير في طلب العُلا
فيرى اتقاء الله خيراً يرجى
ويميل من كل الأنام تعفُّفاً

وله قصائد في أمثال الرجال وكبار الأمراء الذين قدموا بيروت ومدح إمبراطور النمسا
وولي عهد ألمانيا وإنكلترا وسمو الخديوي إسماعيل باشا فاستحق بذلك بعض الامتيازات
الشرفية، لكنه توفي خاملاً سنة ١٨٩٥.

شاكر شقير

كاتب عرف في بلاد الشام مدة بتفنه بالكتابة ونظم الشعر تولى التدريس في عدة مدارس وطنية وساعد المرحوم بطرس البستاني في بعض فصول دائرة المعارف، وكتب في مجلة الجنان وأدار مجلة ديوان الفكاهة (١٨٨٦ - ١٨٨٩). ثم انتقل إلى مصر وأنشأ فيها مجلة الكنانة في نيسان سنة ١٨٩٥ فمات بموت محررها بعد سنتها الأولى (١٨٩٦). توفي في وطنه الشوفيات.

وللمذكور عدة مقالات وروايات وقصائد تجدها متفرقة في كثير من المجلات. وقد روينا عنه قصة ظريفة، وله كتاب (مصباح الأفكار في نظم الأشعار) طبع في بيروت سنة ١٨٧٣، و (منتخبات الأشعار) طبع سنة ١٨٧٦، وعني بتكرار ديوان أبي العلاء المعري، ومن حسن شعر شاكر قوله من رثائه في سليم دي بسترس دعاه (حقيقة الأسف) وقد تفنن فيه كثيراً:

فتلَّهُبْ وتلَّهُفْ وتأسَّفْ وتأسَّفْ وتحشُرْ وتحشُرْ
كبدٌ تذوب وأنفُسٌ تشكو العنا أدنُّ تطنُّ وأعينٌ تتدفقُ
ثم انتقل إلى بحر آخر وقافية أخرى فقال:

سليمُ الفؤادِ له طلعةٌ تحيي الشموسَ وتزدي القمرُ
وذو هيبَةٍ كأسود الشرى وأنسٍ كأنسِ الغزال الأغرُ
تخرُّ الذقونُ له سجداً تسرُّ العيونُ به إذ حضرُ
عليُّ المكانِ جليُّ البيانِ طليُّ اللسانِ مسليُّ البصرِ
نقيُّ البنانِ تقيُّ الجنانِ رقيُّ الزمانِ بقيُّ الأثرِ

ومما قاله سنة ١٨٦٩ في مدح الجمعية السورية:

وزهرة روضٍ كلما طال وقتها تزيد نمواً بالجمال مقلداً
بها افتخرت بيروت حتى لقد سمت على كل مصرٍ وهي تُشبه فرقداً

ذواتٍ بنو للخير بيتاً مشيداً
ويهدي الذي في الجهل ضللاً إلى الهدى
تتبه بها إذا أصبحت منبع الندى
يصيغُ به لفظاً لدرّ منضداً
وكل مديحٍ في سواهم تفنّداً
ونالوا المنى ما الطير في الغصن غرّداً

مؤلفة من كل صاحبٍ غيرِ
كواكب سعد يسطعُ اليوم نورهم
وقد ألبسوا بيروت حلّة سوددٍ
فكلُّ لسانٍ في ثناهم لاهجٌ
وكلُّ جنانٍ همّدهم فيه راسخٌ
فلا زال مسعاهم بذلك ناجحاً

ومن نظم شاكر قوله من قصيدة في رثاء نقولا نقاش:

يُنْسِيكَ حَسَّانَ أَوْ يَزْرِي بِسَبْحَانِ
وكل شعرٍ رشيقٍ النظم طنّانِ
بما استرقّ له أحرارَ تبيانِ
وإن جرى لا يجاري بين أقرانِ

من كان بالأمس نقّاش الصحف هدىً
من كل نثر أنيق الوصف مندمجٍ
كم حرّر اللفظ والمعنى تصوّره
إذا انبرى لا يجاري في مناظرةٍ

وختمها بقوله:

مستوفياً أجز أعمالٍ وإيمانِ
تحت الأكلّة من أسٍ وريحانِ

مضى إلى الله حيث الدارُ خالدة
لا يبرح العفو فيه فوق مضجعةٍ

أمين شميل

أسرة شميل هي فرع آخر من دوحة الآداب التي نمت في كفرشيبا. يقال: إن أصلهم من حوران فاستوطنوا كفرشيبا في مبادئ القرن التاسع عشر. وكان مولد أمين بن إبراهيم شميل في ١٤ شباط سنة ١٨٢٨، وتلقى مبادئ العلوم واللغة الإنكليزية في مدرسة الأمير كان في بيروت فامتاز بين أقرانه.

ثم سار إلى رومية في بعض شؤون طائفته فأصاب فيها نجاحاً. ثم رحل إلى إنكلترا وتعاطى فيها التجارة فانسعت أشغاله وفتح محلاً في الإسكندرية فلم يزل في تقدم ونجاح إلى أن دار دولاب الدهر فأباد ثروته. إلا أن تلك الأحوال المشؤومة لم تفلّ شباة عزمه. فصقّى أشغاله وقصد مصر سنة ١٨٧٥ ليتعاطى فن المحاماة فيبرز فيه واشتغل بالآداب وأنشأ مجلة الحقوق فكانت باكورة المجلات الشرعية.

ونشر في تلك الأثناء بعض التآليف القانونية كالمباحث القضائية ونظام الحكومة الإنكليزية والتآليف السياسية الدقيقة النظر أخصها كتابه (الوافي في المسألة الشرقية) طبعه في مطبعة الأهرام سنة ١٨٧٩، وهو كتاب ضخم في جزأين ضمنه ملخص تواريخ العرب من أول الإسلام إلى زماننا، وكان وضع قبلاً رواية سياسية دعاها (الزفاف السياسي).

وكان ضليعاً بالآداب حسن الكتابة نثراً ونظماً ويضمن تأليفه المعاني الفلسفية والاعتبارات النظرية والرموز كما تشهد له بعض مصنفاته كبستان النزاهات في فن المخلوقات الذي لم يطبع، وكالمبتكر في وصف الحياة البشرية ومقاماتها المختلفة منذ الولادة إلى الموت أنجز تأليفه في ليفربول سنة ١٨٦٧ فطبعه في المطبعة السورية في بيروت.

وكان لأمين شميل أولاد نجباء تهبوا كلهم إلا أن يد المنون اغتالت سنة ١٨٨٥ اثنين منهم في وقت واحد فتوفي أرثور في بيروت وفرديك الكبير في مصر، وكان كلاهما من أذكى التلامذة وأكملهم ديناً وأدباً وأرقاهم في سلم النجاح في الدروس فكان موتها مصاباً أليماً على

والدهما أضعف قواه وهد ركن حياته. حتى لبي دعوة ربه في أواخر سنة ١٨٩٧ في ٦ كانون الأول منها بعد وفاة أخيه أسعد ببضعة أشهر في لبنان.

ولأمين الشميل أخوان آخران ضارعاة عقلاً وذكاء أحدهما ملحم كان أيضاً عالماً وشارك أخاه في أعماله التجارية وآدابه توفي في ١٧ شباط سنة ١٨٨٥، أي سنة وفاة نجلي أمين فقال الشيخ خليل اليازجي مؤرخاً وفاته:

يا مُلحماً جرحتُ سهامُ مصابه منا القلوبَ جراحةً لا تُلحمُ
أسكرت عند البينِ آلَ شميلي بشمولِ حزنٍ ليس يرشفها الفمُ
للمجد والعليا عليك مناحةً ولكل فنٍّ في المعارفِ ماتمُ
غادرت مجدك واستويت من العُلا أرّخ لدى المجد الذي هو أعظمُ
(١٨٨٥م).

ولد ملحم في ٥ نيسان سنة ١٨٢٦ وتقلب في مناصب التعليم فالتجارة فالسياسة حتى أدركته الوفاة. ومارس الطب مدة على الطريقة الاختبارية القديمة. ومن آثاره الأدبية أرجوزة وضعها في علم الجبر والمقابلة، وله مقدمة طويلة في علم الحساب، وكان شاعراً مجيداً له عدة قصائد منها واحدة مدح فيها الخديوي إسماعيل باشا ورثى كريمته زينب هانم بمرثية افتتحها بقوله:

يوسع القلب صاحب الحزم صبرا يوم بين يجرع الصب صبرا
وحكيم من يزدري بحياة كل يوم تزداد بالطول قصرا
وفي آخر عمره دخل ملحم حكومة لبنان وخدم وطنه إلى سنة وفاته.

أما الأخ الآخر فهو الدكتور شبلي شميلي الشهير بكتابات المتوفى بعد الحرب، وكان أمين رجلاً ديناً على خلاف أخيه الدكتور ومن حسن قوله في الخالق سبحانه وتعالى:

هو المهيمن والأكوان صاغرةً تجثو لقدرتِه العلياً وترتعُدُ
هو العزيزُ هو الباقي بقوته هو الرحيمُ هو المحيي هو الصمدُ

يا مُبدع الكل هل في ذاك من أمدٍ
 أنت الكريمُ وتعطي ما تشاءُ كما
 نفختَ في منخري هذا المركَّب من
 هل نالت العُجْمُ نفساً لا تموت كما
 النفسُ من عالم الأرواح لا عرَّضُ
 فارحب بها ملكاً من فضل واهبها
 وهبتها لك تمييزاً وقد ظهرتُ
 ولأمين شمائل قصائد متفرقة لم تجمع نشرت في مجلات شتى كقصيدة (كنز المنى في
 المقتطف) ١٨٨٥، وكقصيدته (الشرعية في الجنان) ١٨٨٥، وغير ذلك مما اتخذته يد الضياع.

حنا بك أسعد الصعب

من أسرة المشايخ الموارنة أبي الصعب الشهيرين بنواحي البترون. كان أبوه سر عسكر الأمير بشير الشهابي الكبير فنشأ صغيراً على التقى وحب الآداب فاتخذه الأمير في خدمته فتعلم العلوم اللسانية وبرع في الخط العربي حتى ضرب المثل في خطه البديع. ولما سار الأمير بشير إلى مألطة اختار المترجم بصفة كاتب لأسراره فرافقه إلى تلك الجزيرة، ثم إلى الأستانة العلية وانتهز ثم الفرصة ليتعلم عدة لغات كالإيطالية والفرنسية والتركية ودرس الفنون العصرية حتى أصاب له شهرة واسعة.

ولما عاد إلى وطنه انتدبته الحكومة إلى خدمتها فخدمها في عدة مناصب جليلة مدة أربعين سنة، وكان أول من حاز لقب البك نصارى لبنان وبر الشام. توفي في أواسط سنة ١٨٩٦. ولحنا بك الصعبي رسالات وشروح لم تطبع وله شعر كثير تفنن فيه وأجاد، وقد جمعه في ديوان وفي صدره صورة ناظمه. وقد ختمه بقصائد تركية تشهد على براعته في اللغة العثمانية. وفي شعره منظومات متعددة تفيد تاريخ لبنان من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٨٩٠، فمن ذلك قوله مهنتاً دولة رستم باشا عند قدومه إلى لبنان سنة ١٨٧٣ بقصيدة هذا مطلعها:

ما بال لبنان يبدي النور أنوارا هل وجهه رستم أهدى النور أنوارا
أو تلك أطفافه الحسناء مذلمعت أزاحت الشمس والتنوير أستارا
إلى أن قال:

حييت لبنان كن بالله معتصما وكُن شكوراً بحمد الله مكثارا
ها قد أتى السر والإقبال يسعده والضرر غاب مع العنقاء قد طارا
ضاءت مشارقتنا لاحت بيارقنا طبابت حدائقنا عرفاً وأنهارا
جادت محابرنا زادت محابرنا ناغت منابرنا سجعاً وأشعارا

حَسَفْتَنَا سَنَنًا كَمَلْتَنَا سُئِنًا
مَكَّنْتَ مَجْرَسَنَا مَلَّيْتَ أَرْؤُسَنَا
لَا زَلْتَ يَا عَلَمٌ تَجْثُولُكَ الْأَمَمُ
فَوَلَّتْنَا مَنَنًا شَيَّدْتَ أَمْصَارًا
خَوَّلْتَ أَنْفُسَنَا بِالْخَلْدِ أَخْدَارًا
سَيْفٌ كَذَا قَلَمٌ مَلَكْتَ أَحْرَارًا
وله من قصيدة يوبخ فيها الخاطيء ويستدعيه إلى التوبة.

أَلَا أَرَفَقُ بِنَفْسٍ إِنَّ كُلَّ نَفَائِسٍ
أَأَنْتِ عَدُوُّ النَّفْسِ أَمْ أَنْتِ خَدْنَهَا
أَرَاكَ بِلَا الْإِشْفَاقِ تَبْغِي عَذَابَهَا
فَلَوْ شَامَتِ الْأَعْدَاءُ مَا أَنْتِ فَاعِلٌ
أَتَجْهَلُ مَا لِلنَّفْسِ مِنْ هَوْلِ مَوْقِفٍ
وَفِيهِ لِإِعْلَانِ الْخَفَايَا مَظَاهِرُ
مَصَاحِفُهَا مَفْتُوحَةٌ إِذْ تُرَى بِهَا
فَلَذْرُهَا وَلَا تَعْبَأُ بِظُلِّ عِبْوَرُهُ
لَدِيهَا بِنَدِي الدُّنْيَا أَحْسُ الْخَسِيْسَةِ
فَمَنْ شَيْمَةُ الْأَخْوَانِ صَوْنُ الْخَدِينَةِ
وَتَرْمَقُهَا شِزْرًا بَعَيْنٍ غَضُوبَةٍ
لَرَقَّتْ لَهَا رُحْمًا وَأَيَّةَ رَقَّةٍ
أَمَامَ الْعَلِيِّ الدِّيَانِ فِي كُلِّ رَهْبَةٍ
عَلَى مَشْهَدِ الْأَبْصَارِ مِنْ كُلِّ حَذَقَةٍ
ذَنْبٌ وَلَمْ يُتْرَكْ بِهَا قَدْرُ ذَرَّةٍ
يَكُونُ كَطَرْفِ الْعَيْنِ فِي كُلِّ سُرْعَةٍ

الشيخ نجيب حداد

ولد في بيروت في ٢٥ شباط سنة ١٨٦٧ ورحل صغيراً إلى الإسكندرية فتلقى في مدارسها العلوم. ولما حدثت الثورة العرابية عاد إلى بيروت فأتم بها دروسه في المدرسة البطريركية وكان رضع صغيراً أفالويق الأدب في قرابة الشيخ اليازجي وأمه كريمة الشيخ ناصيف فعاش مدة في معية أخواله الكرام.

ولما سكنت الأمور في القطر المصري كَرَّ راجعاً إليه وعكف على الكتابة في عدّة جرائد أنشأها وكان رئيس تحريرها أو أحد كتبتها الأولين كلسان العرب وأنيس الجليس والسلام. إلا أن الأسقام لم تنزل تتنابه حتى هصرت غصن حياته رطباً قبل بلوغه الكهولة فمات في مصر في ٩ شباط سنة ١٨٩٩.

وكان نجيب الحداد متضلماً بالكتابة يجمع في إنشائه بين متانة العبارة وسهولتها. وله المقالات السياسية الحسنة. واشتهر بإنشاء الروايات أو تعريبها. وقد لقي بعضها إقبالاً ونجاحاً كرواية السيد للشاعر كرنيل الفرنسي من تعريبه، ورواية البخيل، ورواية المهدي، ورواية الرجاء بعد اليأس، ورواية أثارت العرب. وكان شعره أجود من نثره حذاً فيه حذو الشعراء العصريين. من ذلك قصيدته في ذم القسار، ومن شعره الطيب في وصف السكك الحديدية وقطراتها:

تَحَلَّ عن التشبيب بالبيضِ والسُّمر	ودَع عنك تشبيه المحاسن بالبدر
وعُجِبَ بي إلى طُرق الحديدِ ووصفها الـ	جديد ودَع ما مرَّ من قِدم الدهرِ
ففيها يروقُ الوصف وهو حقائق	وفيها يحقُّ النعت لا مذهبُ الشعرِ
وعنها يصحُّ القول إن قيل بارقٌ	يشقُّ الفلا لا عن جواد ولا مُهر
فطيرٌ بلا جُنجح وطود بلا بقا	وبرقٌ بلا جَوٍّ وهادٍ بلا فكرِ

بلى هي طيرٌ والبخار جناحهُ
وبرقٌ ولكنَّ الدخانَ سحابهُ
يسير فما يدري لسرعة سيره
وللريح حويله حفيفٌ كأنه
إذا سار ثارت فوقه راية من الد
تمزقها الأرياح حنقاً كأنها
لعمرك ما هذا بهادي البلاد بل

وطود إذا شبهت بالطود ما يسري
وهادٍ له لبٌ توقد عن جمرِ
أنجري لديه الأرض أم فوقها يجري
حفيفٌ جناح الصقر حنَّ إلى الوكر
خان لتنبى أنه ملك القفرِ
تحاول في تمزيقها الأخذ بالثارِ
هو القائد الهادي إلى العزِّ والنصرِ

وأحسن من ذلك قصيدته الغراء التي قالها في احتراق سوق الشفقة في باريس سنة ١٨٩٧،
حيث مات قوم من كرامهم لاسيما النساء الشريفات فماتوا في تلك السوق التي أنشئوها
لمساعدة الفقراء والبائسين بعد أن اتقدت أسلاك ألتها الكهربائية وامتد إليهم لهيب النار:

سوقٌ برُّ تباعُ فيها اللهي بيـ
زيّتها بيض الأيادي وأيدي
أنفسٌ تبتغي السماء فما أمسى
أدركت ما تروم من جنّة
من رأى قبلها جحيماً يؤدي
أو رأى محسناً يهودُ على
أتري كان ذاك مطهرَ من ما
أم هو الدهر لا يزلُ مسيئاً
يا ربوعاً كانت معاهد إحسا
وديباراً كانت منازل إينا
وكراماً كانوا مناهل جودِ
أمراءُ نادى الندى فأطاعو

عاً ويُشرى الثواب فيها شراء
البيض من محسنٍ ومن حسناء
من إلا وقد بلغن السماء
الخلد وكن كأن الطريق صلاء
لنعيم أبناءه الشهداء
الناس فيلقي نار الحريق جزاء
توا فيمحو عن النفوس الخطاء
لكريمٍ ومكرماً من أساء
نِ وحسن فأصبحت قفراء
سٍ فأضحت بلاقعاً وخلاء
لفقيرٍ فأصبحتوا فقراء
ه أميراً لهم ولّبوا زداء

البرّ ثوبٌ يزيدهن بهاء
فة والمجد والندى والإخاء
ورجال بهاتباري النساء
ها فتزداد بالجميل سناء
—ن إلا كوالحاً سوداء
رسم جسمٍ وأعظماً جرداء
برار حتماً ومن يردُّ القضاء
حى وعزّى الباكين والتُّعساء

وحسانٌ قد جُذُن برّاً كأن
ساحة تُنبِت المكارم والبراً
فنساءً بهاتباري رجالات
أوجهٌ يشرق السّنا من محيا
رحن يزهرين بالبياض فما أمسى
رتماً لم تعدع النار إلا
نقمة صبّها القضاء على الأ
رحم الله من قضى وشفى الجر

سليمان الصولة

هو سليمان بن إبراهيم الصولة الرومي الملكي الكاثوليكي. كان مولده في دمشق سنة ١٨١٤ وفيها قضى أول سني حياته ولما ترعرع انتقل مع والديه إلى مصر ونشأ فيها وتلقن العلوم في مدارسها وكان يتردد على أساتذة الأزهر فأخذ عنهم العلوم العربية ونظم الشعر، وقد أخبر عن نفسه أنه في أيام الشباب كان يعارض قصائد أبي فراس الحمداني ويخمس قصائد الحلي ويشطر منظومات المتنبي.

وقد ألف كتاباً سماه حصن الوجود في عقائد اليهود وتآليف أخرى راحت حرقاً أو غرقاً في حوادث سنة ١٨٦٠. وتقلد سليمان الصولة المناصب في الدواوين المصرية وصحب إبراهيم باشا لما جاء لفتح الشام، ثم استقر بعد ذلك في دمشق وتقدم في خدمة الدولة العليّة، وتقرب من الأمير عبد القادر الجزائري وبفضله نجا من الموت في فتنه سنة ١٨٦٠ المشؤومة.

ولما كانت سنة ١٨٨٤ عاد إلى مصر وفيها أقام إلى وفاته في ١٤ أيار سنة ١٨٩٩ عن ٨٥ سنة. وله ديوان واسع في ٣٨٢ صفحة طبعه في مصر سنة ١٨٩٤. شعره رائع منسجم ومواضيعه مبتكرة أقرب إلى المنظومات العصريّة. ومن شعره ما قاله ارتجالاً فمدح يوحنا بك البحري، وكان الشاعر في الرابعة عشرة من سنه فأحب البحري أن يسمع نظمه:

أمرت لك الأمر المطاع بأن ترى فرائد شعري وهي أغزر من شعري
فوا خجلي من فقد درّ أصوغه لديك وكلّ الدرّ بعض حصي البحر
ومن مدحه قصيدة طويلة قالها في فقيد القطر المصري الوزير بطرس باشا غالي منها:

رجلٌ وحسبك إنّه الرجل الذي نجت البلادُ به من الإقلالِ
أحيا الندى وأمات بالكمد العدى ونفى الصدى بسماحه الهطالِ
تبدو الغيوبُ لدى لواظ حذقه غرراً مجردةً من الإشكالِ

وتناولت منه المجالس حكمةً
 ونظر العزيزُ بهِ فطانةً يوسفٍ
 وأمدّه بالرتبة العظمى التي
 فأفاد مجد القبط مجداً ثانياً
 والناسُ حول ندى يمينه أرّخت
 وله عدة مرات حسنة قالها في إبراهيم المتوفى سنة ١٨٨٣ وابنته السيدة ليلى. فمما قاله في
 ليلى:

يا ليلةً غادرت ليلى بلا نفس
 لولاك لم يدجُ نور الشمس في بصري
 ولا جفا الراحُ راحي والكرى بصري
 أين التي كنتُ إن غابت أقولُ لها
 ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم
 قالوا: نسيتَ بها إبراهيم قلت لهم
 ولا رستُ بين أرباب العلا قدمي
 وغادرتني أقاسي حرَّ أنفاسي
 ولا تبطن حَوفَ اللحد نبراسي
 وصار دمعي سُلافي والجوى كاسي
 ما قاله شاعرٌ من آل عباس:
 إذا نظرتُ ولم ألقاكِ في الناسِ
 لا عشتُ إن كنت يا ناسُ له ناسِ
 إن كان غيرهما في خاطري رأسي

عبد اللطيف الصيرفي

هو شاعر مصري معاصر لسامي البارودي كاد يجاريه في سنتي مولده ووفاته. ولد في الإسكندرية سنة (١٢٥٧هـ) (١٨٤١م) وتوفي سنة (١٣٢٢هـ) (١٩٠٤م) تعلم في المدارس الأهلية حتى أتقن اللغة العربية والحساب والأنغام وبرع بالخط فدخل في دواوين التحريرات وخدم حكومة وطنه زمناً طويلاً، ثم اشتغل بفرن المحاماة إلى سنة وفاته. صنف ديواناً نشره بعد وفاته ابنه عبد العزيز وهو مجلد واسع في ٢٢٠ صفحة طبع سنة (١٣٣٥هـ) (١٩٠٨م) وشعره سهل وسط لا يخلو من بعض الرقة والتفنن، وكذلك نشره له منه فصول ومراسلات ومداعبات منسجعة.

وهذا مثال من شعره قاله يهجو أحد العمال في دمنهور:

كانت دمنهورٌ لنا	مهّد المحاسن والظرائف
لاسيماً رقت	بمديرها ربّ اللطائف
خيري اللائق أحمد	مُحيي المفاخر والمعارف
وسعت لنادي فضله	أهل الفضائل والعوارف
فاستأنست نفسي بهم	وظللت ألتقط الطرائف
وأقول قد سعدت دمن	هورٌ وراقت كل طائف
لكن بها كلبٌ عقور	قد بدت منه المخاوف
لا زال يعطف كاسرا	فيسيء جالسها وواقف
حتى غدت موبوءة	بوجوده والكلل واجف
فمن الذي يأتي لها	ما دام فيها الكلب عاطف
ألا وبستور لهُ	في كل آونة مساعف

ولربما لم يُجِدْهُ
فَاللَّهُ يَخْفِي رَسْمَهُ
لَأَكُونَ أَوَّلَ آمِنٍ
تَطْبِئُهُ وَالسَّاءُ نَاقِفُ
مِنْهَا فَتَأْخُذُ الْمُتَأَلِّفُ
وَأَكُونَ آخِرَ مَنْ يَجَازِفُ

عائشة التيمورية

هي إحدى النساء المسلمات التي تفردت في الآداب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، فتوفيت في صفر من سنة (١٣٢٠هـ) أيار (١٩٠٢م) وكان مولدها في القاهرة سنة (١٢٥٦هـ) (١٨٤٠م) ووالدها إسماعيل باشا تيمور وأمها جركسية. أحبت منذ صغرها العلم والآدب وبعد أن اقترنت بالزواج، ثم تاملت انصرفت إلى الآداب وبرعت بنظم الشعر في اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية.

وقد طبع ديوانها العربي المسمى (حلية الطراز)، فأثنى عليه الأدباء طيب الثناء وشفعته بكتاب (نتائج الأحوال) فأقبل عليه العلماء أيضاً وأطروا صاحبه. ومن قرّظ كتاب (حلية الطراز) السيدة وردة كريمة الشيخ ناصيف اليازجي فقالت:

مصر تزهبو باللؤلؤ المنظوم	حبذا حلية الطراز أتت من
سي وكنز المنطوق والمفهوم	حلية المعقول لا حلية الوش
المجد والفخر فرع أصل كريم	أنشأته كريمة من ذوات
ها فعاشت آثار علم قديم	قد أعاد الزمان عائشة في
جيد ذا العصر زينت بالعلوم	هي فخر النساء بل وردة في
مابدا الصبح بعد ليل بهم	فأدام المولى لها كل عز

وقالت في تقريب (نتائج الأحوال):

هذا الكتاب الذي هام الفؤاد به
يا ليتني قلم في كف كاتبه
ودونك أمثلة من شعر عائشة تيمور قالت في الفخر:

وبعضمتي أسمو على أتراي	بيد العفاف أصون عز حجابي
نقادة قد كملت آدائي	وبفكرة وقيادة وقريحة

وجعلتُ من نَقْشِ المدادِ خطابي
سَدْلُ الخمارِ بِلَمَّتِي ونقابي
صعبَ السباقِ مطامحُ الرِّكَّابِ
في حُسْنِ ما أَسْمَى لِحَيْرِ مآبِ

سَحَرًا وأكوابُ الدموعِ تدورُ
وغدَّتْ بقلبي جُذوةٌ وسميرُ
نارٌ لها بين الضلوعِ زفيرُ
لو غاب عني ساءني التأخيرُ
كيف التصبُّرُ والبعادُ دهورُ
برياضِ خُلْدِ زَيْتَتِهَا الحُورُ
لا عيشَ إلا عيشُ المبرورُ
ما غرَّدتْ فوقَ الغصونِ طيورُ

ولعائشة تيمور قصائد مختلفة في الأوصاف والأخلاق والغزل والمديح وإنما أخذت في كل ذلك أخذ كتبه زمانها فلم تعالج المواضيع المبتكرة. وكذلك نشرها في (نتائج الأحوال) لا يخلو من التصنع في نظم سجعاته. هذا فضلاً عما يحتويه من التخيلات والأفاصيص المصنوعة التي قصدت بها ترويح الأفكار وتلهية الأحداث.

فجعلتُ مرآتي جبينَ دفاترِ
ما عاقني خجلي عن العلياء ولا
عن طيِّ مضمارِ الرهانِ إذا اشتكتُ
بل صولتي في راحتِي وتفرُّسي
ومما قالته ترثي ابتها وكان موتها في رمضان:

طافت بشهر الصوم كاسات الردى
ومضى الذي أهوى وجرَّعني الأسى
ناهيك ما فعلتُ بهاءِ حشاشتي
إني ألفتُ الحزنَ حتى أنني
قد كنتُ لا أرضى التباعُدَ برهةً
أبكيك حتى نلتقي في جنَّةِ
هذا النعيمِ به الأجبَّةُ تلتقي
والله لا أسلو التلاوةَ والدُّعا

السيد إبراهيم الطباطبائي

من مشاهير أدباء العراق قضى نحبه سنة (١٣١٩هـ) (١٩٠١م) في النجف وفيها كان مولده سنة (١٢٤٨هـ) (١٨٣٢م) كان إمام النهضة اللغوية في وطنه بين صدور الشيعة. وله ديوان شعر طبع في صيداء تلوح فيه الأساليب البدوية القديمة، وكان مغرى بغريب اللغة وترى ذلك في معظم أشعاره. وقسم كبير من قصائده في الغزليات. ومن حسن قوله أبيات ذكر فيها الأحباب وأيام الأنس:

أخي هل راجع ليلٍ فينظمننا
بشطٍ دجلة نطم العقيد إخواننا
أحباننا إن تهن فيكم وسائلنا
فحسبنا كل شيء بعدكم هانا
إن فرق الدهر ما بيني وبينكم
فقد صحبتكم دهرًا وأزمانا
تركت في النجف الأعلى لصحبتكم
صحبًا وأهلًا وأوطانًا وجيرانا
عوضتموني عن أهلي وعن وطني
بالأهل أهلًا وبالأوطان أوطاننا
ومن حكمه:

ما كل من صحب الإخوان جرَّ بهم
لا يُعرف الخل إلا بالتجاريب
وقال في محاسن الشعر:
للشعر حُسنانٍ لا تُعدوهُما جهةٌ
حسنٌ بمعنى وحسنٌ بالأساليب

مصطفى كامل

كانت وفاته في سنة الدستور التركي قبل الإعلان به بأشهر في ٨ شباط ١٩٠٨ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ولد في القاهرة في ١٤ آب ١٨٧٤، ودرس على أساتذتها في المدارس الابتدائية والتجهيزية والحقوقية، ثم نال في فرنسا في جامعة طولوز شهادة الحقوق. ولما رجع إلى وطنه بعد الاحتلال الإنكليزي ساءت حالته واجتمع بمن رآهم على فكرته ولم يلبث أن تصدر بينهم بما ظهر عليه من الذكاء والنجابة والإقدام، فأصبح خطيب الوطنيين وزعيمهم لا يأخذه في تحرير وطنه والدفاع عن حقوقه ملل من سنة ١٨٩٣ إلى حين وفاته، وقد تشكل بهمته الحزب الوطني فأصبح رئيسها تناط بها الآمال وتمتزه له الجوارح. هذا فضلاً عن شهرته في فن المحاماة.

سيرته وأعماله من خطب وأحاديث ورسائل سياسية وعمرانية تدل على عبقريته ووجه الصادق نحو الوطن. وكان أول مرة يحرر في الصحف المصرية، ومن أول تصانيفه رواية فتح الأندلس على عهد طارق الفتى إليه أنظار أهل وطنه. وهو في إنشائه نثراً ونظماً لم يقصد تنميق العبارة وتحليتها بالسجع والمحسنات النافلة، بل كان جل قصده أن يكون لكلامه وقع في القلوب ليحملها إلى ما يراه من صوالح الوطن بعبارة سلسة سالمة من التعقيد وفساد التركيب. وهذا نشيد كان من بواكير قلمه.

هَلُمُّوا يَا بَنِي الْأَوْطَانِ طَرًّا
هَلُمُّوا كِي نَوْفِي الْقَطْرِ حَقًّا
هَلُمُّوا أَدْرِكُوا الْعِلْيَاءَ حَتَّى
هَلُمُّوا وَاتْرِكُوا الشَّحْنَاءَ مِنْكُمْ
أَلَيْسَ يَشِينُنَا تَرْكُ الْمَعَالِي
لِنُتْرَجِعَ مَجْدَنَا وَنُعَزِّمَ مِصْرًا
نَسِينَاهُ فِضَاعَ بِيْذَاكَ قَدْرًا
تَنَالُ بِلَادُنَا عِزًّا وَفَخْرًا
وَكُونُوا أَوْفِيَاءَ فَبِذَاكَ أَحْرَى
تُبَاعُ بِغَيْرِ وَا دِينَا وَتُشْرَى

ونحنُ رجالُها وبها لديها
فعارٌ أن نعيش بغير مجدٍ
وعارٌ أن يكون لنا وجودٌ
فقوموا واطلبوا للنيل عزا
وسيروا نحو هذا القصد حتى
تنادوا أجمعين بعزم مصرا
من الإسعاد والخيرات أدرى
ونُبصر بالسما شمساً وبدرا
ويحظى غيرنا فوزاً ونصرا
ولا تَبَقُوا بذلَّ كي يُسرى

ودونك مثلاً من نثره في تربية الإناث وفي التهذيب والتربية الدينية: (يجدر بي أن ألفت أنظاركم عموماً إلى أمرين خطيرين: أولهما تربية البنت لازمة وضرورية؛ لأنها ذات الشأن الأول في تربية الأطفال متى صارت أمّاً ورئيسة عائلتها وهي التي عليها الجزء الأعظم من أعمال هذا الوجود).

وثانيهما أن تعليم البنين والبنات العلوم والفنون لا يفيد وحده، بل يجب قبل كل شيء تربية الروح حتى يصير الطفل متى شبَّ رجلاً شجاعاً ممتلئاً بالوطنية الحققة قائماً بالمبادئ الجنسية.

وتصير الطفلة متى شبت امرأة رشيدة مدبرة تعلم أبناءها محبة البلاد وتغرس في قلوبهم وجوب التفاني في خدمة الأمة وفي إعلاء شأن الوطن العزيز. فتكون بذلك المدارس منبع حياة الأمة ومصدر وجود جديد... ويجب قبل كل شيء أن تكون التربية الدينية أساس التعليم والتهذيب. فالدين عاصم من الدنيا رادع عن الخطايا معلّم للفضائل محبب الكمالات. وإذا بحثنا بحثاً مدققاً عن سبب تأخر المسلمين في سائر البلاد لوجدنا الأسباب كلها مجتمعة في سبب واحد وهو أننا ابتعدنا عن الدين وقصرنا في اتباع أوامره واجتناب نواهيه...

الشيخ علي أبو يوسف الأزهري

وأسفت الصحافة المصرية في السنة ١٩١٣ على فقد أحد أربابها الممتازين الأستاذ الشيخ علي أبي يوسف الأزهري. ولد سنة ١٨٦٣ ودرس اللغة والفقہ في الجامع الأزهر، ثم أحس بميل للأدب فتمرن عليها ونظم الشعر، فنشر ديوانه (نسمة السحر). وفي سنة ١٨٨٥ أنشأ مجلة علمية أدبية سماها الآداب، ثم عدل بعد مدة منها إلى جريدة المؤيد السياسية حررها سنين طويلة وأكسبها بقلمه شهرة واسعة ونفوذاً عظيماً حتى عد كمؤسس الصحافة الإسلامية في القطر المصري لدى كبار الدولة مقاماً معتبراً بعد تذليله كل العقبات التي صادفها في سبيله. ومن ظريف شعره وصفه للربيع:

أنحُ نحو الرياضِ عند مياهِ
وأقتطفُ زهرَ وَرْدٍ خد بطلح
وانظر الماءَ إذ يسيل بلطفِ
يلثمُ السوقُ من غصونِ قدودِ
وله في الفخر:

يُشير لُدُرُوة العليَا بناني
ولي همُّهمُ تهمُّمٌ إلى الشريَا
ولي نفسٌ تعافُ الضيمَ وردا
ولي عند الحوادثِ سيفُ صبرِ
ولي عهد الشبيبة عَفُّ نفسِ
أقارن بالعلأ أملي ولكن
وكم أشكو زماني لليالي
ويمنعني الوصولَ لهأ زماني
وحظُّ بالثرى مرخي العنان
وتأففُ شيمَةُ تُزري بشأني
يذيب فرندُهُ الحدَّ الياني
تعفُّ عن الخنا في كل آن
يغارُ بي الزمانُ على قراني
وكم أشكو الليالي للزمانِ

بشارة الشدياق

كان ابن أخي أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ونشر في جريدة عمه فصولاً شائقة. وكان المذكور عريقاً في دينه له في جريدة البشير مقالات دينية وأدبية. ومن آثاره ديوان شعر مخطوط جمعه سنة ١٨٨٨. وفي ١٦ آب من سنة ١٩٠٦ فقد الأدب أحد الشعراء الوطنيين سليل عائلة الشدياق بشارة، ومن نظمه قال في وصف الحسود:

إِنَّ الْحَسُودَ مَدَى الْأَيَّامِ يَمُوتُ مَنْ
وَكُلَّ دَاءٍ لَهُ طَبٌّ يَصِحُّ بِهِ
دَاءٌ خَبِيثٌ تُرَى مَاذَا يُؤْمَلُهُ
فَبُئْسَ حَاسِدٌ تَوَفِيقٍ بِلَا أَمَلٍ
نَالَ السَّعَادَةَ حَتَّى مَنَّتْهُي الْأَبَدِ
أَمَّا الْحَسُودُ فَلَا يَشْفَى مِنَ الْحَسَدِ
ذَاكَ اللَّئِيمُ سِوَى الْأَكْدَارِ وَالْكَمَدِ
يَمُوتُ مِنْ جَهْلِهِ بِالذَّلِّ وَالْحَقْدِ
وَمِنْ قَوْلِهِ فِي رِثَاءِ الْمَطْرَانِ طُوبِيَا عُونَ رَيْسِ أَسَاقِفَةِ بِيْرُوتِ:

قَدْ كَانَ طُوبِيَا ذَا بَرٍّ وَذَا عَمَلٍ
كَمْ بَاتَ يَرْعَى خِرَافًا ظَلَّ يَرشُدْهَا
نَعَمْ وَقَدْ كَانَ عَوْنًا لِلْأَنَامِ وَمَنْ
فَهُوَ لِعَمْرِي الَّذِي كَانَتْ شَمَائِلُهُ
بَكْتُهُ بِيْرُوتِ حَزْنًا وَالدَّمُوعِ عَلَى
قَدَمَاتِ فِي جَمْعَةِ الْأَلَامِ وَاسْفِي
ضَاقَتْ بِنَا الْأَرْضِ مِنْ غَمٍّ وَمَنْ كَدَرَ
هِيَهَاتُ يُطْفِئُ لَهِيْبًا أَوْ يَحْوُلُ بِكَأِ
سَامٍ وَفَضْلٍ لَهُ فِي النَّاسِ مَشْهُودِ
إِلَى حَقِيقَةِ إِيْمَانٍ وَتَسْجِيدِ
قَدْ أَمَّهُ قَدْ نَالَ مِنْ فَضْلٍ وَتَأْيِيدِ
الْغُرَّاءُ شَائِعَةٌ فِي السَّهْلِ وَالْبِيْدِ
فَقْدَانِهِ عَنَدَمٌ مِنْ قَلْبِ صَيْخُودِ
بِفَقْدِهِ قَدْ حُرْمْنَا بِهَجَّةِ الْعِيْدِ
وَمِنْ مُصَابٍ وَمِنْ نَحْبٍ وَتَنْهِيْدِ
مَا دَامَ أَمَاقُنَا قَرَحَى بِتَشْدِيْدِ

سليم الشدياق

كان مولده في عالية سنة ١٨٢٦ ودرس في مدرسة أعبية فنيغ في الرياضة وفي سنة ١٩٠٦ وقعت وفاته في سان ريمو. أخذ سليم الآداب عن أبيه ثم صار يساعده في تحرير الجوائب في الأستانة، له فيها عدة مقالات. وعني بنشر بعض تأليفه ١٨٦٧. ونشر سنة ١٨٧٣ كتابه العروسة البديعة في علم الطبيعة. وكان يحسن الكتابة ويجيد الإنشاء دون تكلف. وله شعر رائق تفنن فيه، منه حكيمي ومنه هزلي. ومن أرجوزته التي نظم بها أمثال سليمان الحكيم نظماً سهلاً قريب المأخذ دونك مثلاً منه:

مخافةُ القديرِ رأسُ الحكمةِ فمن حواها حازَ كلَّ نعمةِ
بالحكمةِ الجهَّالُ تستهينُ لكن بها الحكيمُ يستعينُ
يا ابنِ إذا أغراكَ أهلُ الشرِّ للسيرِ في طريقيهم لا تجرِ
ومنها وصف الحكمة عن لسانها:

لي الرأيُّ لي الشُّورى أنا الفهمُ الذكي
بي تملك الملووك والولاءُ
قد كنتُ منذ البدءُ فُنيَّةَ العلي
وبي القوى ولي قديمُ المسلكِ
وفي القضاء تعبدُ القضاءُ
مُسيحتُ في القديم منذ الأزلِ

إلياس جرجس طراد

في ٧ حزيران ١٩١٣ أصيب آل طراد بفقد أحد أعيانهم إلياس جرجس طراد الذي ولد في بيروت سنة ١٨٥٩ ودرس في المدرسة الوطنية البستانية، ثم تعاطى التعليم والمحاماة وصار عضواً في محكمتي البداية والاستئناف ودخل الجمعية العلمية السورية، وساعد الجمعيات الخيرية وخطب في النوادي الوطنية. وله آثار كتابية حسنة كتعريب عدة روايات تمثيلية وفصول عديدة في القوانين والنظامات وفي السياسة وال عمران نشرها في صحف الأستانة وسورية ومصر وصنف ترجماناً في اللغتين الإنكليزية والعربية.

له أرجوزتان في الفرائض والجزاء. وقد جمع مآثره الأديب جرجي نقولا باز في مجلد واسع قدّم عليه ترجمة حياته وضمّنه كثيراً من شعره الطيب. فمن لطيف أقواله ما وصف به غضب النساء:

دونه كـلُّ عناءٍ وألمٍ	غضبُ المرأة صعبٌ سادتي
خطأً قالت لها الناسُ: نَعَمْ	كُلُّ ما قالتُهُ صدقاً كان أم
فَهِيَ الأمرُ فيهم والحكَم	لم يَعُدْ أمرٌ ولا حُكْمٌ لهم
أنت خالفتَ شعوباً وأمَم	قُل لمن خالف آراءً لها
أَسْهَمًا ترميكَ عن قوسِ النَّقَم	عُدْ وإلا صوّبتَ الحاظها

وقال في ملامة الجهال وطعنهم في العقلاء:

لا يجلبُ الغمَّ لأهلِ النظرِ	إنَّ مقالِ الطعنِ من جاهلٍ
بها سوى الأشجارِ ذاتِ الثمرِ	كذلك الأجرار لا يُرتمى

وقال بمعناه:

أصاب كأسَ الذهبِ	إذا رأينا حجراً
وقدرها لم يذهبِ	فلا يزيد قدره

الشيخ أمين الحدّاد

وفي ذات شهر آب من العام ١٩١٢ توفي أديب آخر (الشيخ أمين الحدّاد) شقيق الشيخ نجيب الحدّاد. ولد الشيخ أمين في بيروت سنة ١٨٧٠ وهو ابن سليمان الحداد وحنة ابنة الشيخ العلامة ناصيف اليازجي فتشأ في مهده الأدب وجرى على مثال أسرته في العربية، وسار إلى مصر وحرر مع أخيه الشيخ نجيب جريدة لسان العرب اليوميّة، ثم تولى إنشاء مجلات وجرائد غيرها كأنيس الجليس والسلام والجامعة العثمانية والبصير إلى أن أصيب بداء الكبد فعاد إلى بيروت يطلب الشفاء فتقلت عليه وطأة الداء حتى ذهبت بحياته.

وللشيخ أمين مقالات أدبية في الضياء ومجلات أخرى. وكان شاعراً مجيداً فجمع شعره وطبع في الإسكندريّة. ومن ظريف قوله في خزان أسوان:

وما أنتَ خزانُ المياهِ وَطَمِيها وإبليزها بل خازن الدرِّ والتبرِ
تدفقت بالخيرات من كل جانبٍ وجمعت أقطار المنافع في قطرِ
وقال يقابل بين أمانة الكلب وغدر كثيرين من الناس:

نرى الكلب ما إن عضّ أذن نظيره ونحن نَهَشنا بعضنا نظراء
ويا عجباً للكلب زاد موَدّة على حين زاد العالمون جَفاء
أقام مع الإنسان منذ نُشُوئه يرافقه أنى مضى وتناءى
تعلم منا كل شيء مطاوعاً سوى الغدر يعصيه تُقى وإباء
إذا ما رأنا خائنين وفي وإن رأنا نزيدُ الغدرَ زادَ ولاء

الشيخ نجيب الحداد

أما (الشيخ نجيب) فإنه أصاب بثره وشعره فخراً بلغ به مبلغ الأدباء اليازجيين. ولد في بيروت سنة ١٨٦٧ وهاجر إلى مصر مع أهله سنة ١٨٧٣، فتعلم هناك في مدرسة الفريير ثم عاد إلى بيروت فتخرج على خاليه الشيخين إبراهيم و خليل اليازجي وجرى على آثارهما. وأخذ ينظم الشعر مع حدائه سنة، ثم استدعي إلى الإسكندرية فكتب في جريدة الأهرام المقالات المستحسنة مع عدة روايات تمثيلية أحرز بها سمعة واسعة. ثم أنشأ جريدة لسان العرب اليومية وحوّلها بعد مدة إلى مجلة.

وقد امتاز بين أدباء زمانه بالتعريب وتأليف الروايات. وشعره من أفضل ما نظمه الشعراء العصريون. وقد روي له سابقاً قصيدته في القمار وفي حريق سوق الشفقة في باريس سنة ١٨٩٧. وقد طبع ديوانه مرتين في بعدا سنة ١٩٠٦، ثم في الإسكندرية بعد وفاته في سنة ١٨٩٩. دونك مثلاً من نظمه قال وقد اقترحت عليه الحكومة المصرية نظم أبيات تكتب على محطة القاهرة:

يا حُسنَ عصرٍ بعبّاسِ العُلا ابتسما	حتى الحديدُ غدا تُغرأ له وفما
طرائقُ في ضواحي القطر تُبلغنا	أقصى البلاد ولم تُنقل بها قدما
مصرُ كصفحةٍ قرطاسٍ بثرُبتها	غدا القطار عليها الخطُّ والقلم
أرضُ بها كان من خصبِ النيل منتشرا	حتى أتاها قطارُ النار فانتظما
لنا غنى عن قطار السُّحب منسجما	ولا غنى عن قطار النار مضطما
يجري بها الرزق في جسم البلاد كما	يجري دمٌ في عروق الجسم منتظما
محطة هي قلبٌ والخطوطُ بدت	مثل الشرايين فيها والقطارُ دما
مع السلامة يا من سار مرتحلا	عنا وأهلاً وسهلاً بالذي قدما

نقولا رزق الله

ولد نقولا رزق في بيروت سنة ١٨٦٩ وتوفي في القاهرة في نيسان ١٩١٥، ومن مناعي أرباب القلم في أيام الحرب الشاعر المفلق (نقولا رزق الله) تخرج في الآداب بالوطن وهاجر إلى مصر واشتهر بالكتابة فأنشأ مجلة الروايات الجديدة ونقل إلى العربية كثيراً من الروايات الفرنسية وعني بنشرها. وكان يعد بين كبار شعراء العصر وهو غزير المادة وكثير التفنن في شعره يزين نظمه بالألفاظ الحكمية والمعاني البليغة. وقد استحسنا له قوله في الشعراء الذين يفسدون شعرهم بالغايات الدنيئة قال:

ليت شعري متى أرى شعراء	الشرق يوماً بفضلهم أغنياء
ورثوا من تقدّمهم فنالوا	شرّاً إرث مدّلاً وشقاء
بين هجوٍ كالسبِّ أو هو أذنى	ومديحٍ تُعده استجداء
عودوا الذلّ فالكبيرُ كبيرٌ	فيهم حين يسأل الكبراء
ليس كالمالٍ للقرائح سمٌّ	حين يلهو ببيعاً بها وشراء
إنما الشعرُ للنفوسِ غذاءٌ	أفسدوه فصيرّوه هُذناء
يتبعُ الشعرُ أهله فامتهانها	وابتذالاً أو عزةً وإبساء

ومن حسن أقواله لما أعلن بالدستور العثماني:

يا أيها الناس حيّوا ذلك العلماً	وسبّحوا مانح الحريّة الأئماً
وقبلوا البنديقات التي فضّلت	أقلامنا بعد ما كانت لها خدما
وظاهروا عُصبة الأحرار إنهم	أتوا بما أعجز الأبطال والهَمما

ومنها:

وَأَدْعُوا مَنْ بَعَثَ الدُّسْتُورَ مِنْ جَدَثٍ
فَقَدْ حُرِّمْنَاهُ ظُلْمًا وَانْقَضَى زَمَانُ
وَالْيَوْمَ جَرَّدَ سَيْفَ الْحَقِّ صَاحِبُهُ
تَعَانَقَ الشَّيْخُ وَالْقَسِيسُ وَاصْطَحَبَا
تَعَانَقَا فِي هَمَى الدُّسْتُورِ وَاتَّحَدَا
وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَهُ يَصِفُ الْأَوَانِسَ الْمُحْتَشِمَاتِ:

وَفَرِيدَةٍ لَوْلَا الْخِيَامَا
تَمَضَى لِحَاجَتِهَا وَلَا
لَا سَمْعَ تَلْقِيهِ إِلَى
هِيَ وَاللَّوَاتِي مَثَلُهَا
أَوْلَاءِ رَبِّاتِ الْفَضَا
وَأَرْدَفٍ يَحْذِرُ الْمُتَهْتِكَاتِ:

يَا مَنْ تَلِيْقُ بِهَا الْكِرَا
صُّوْنِي جَمَالًا طَالِمَا
لَا كَانَ حُسْنٌ فِيكَ لَمْ
مَةُ حَازِرِي ذَاكَ الصَّغَارَا
أَوْلَاكِ تِيهًا وَافْتِخَارَا
يَكُنِ الْعَفَافُ لَهُ شِعَارَا

ولد نقولا رزق في بيروت سنة ١٨٦٩ وتوفي في القاهرة في نيسان ١٩١٥.

الشيخ إبراهيم الحوراني

وفي عام ١٩١٦ في ٢ شباط وقعت وفاة الشيخ إبراهيم الحوراني، وكان مولده في حلب سنة ١٨٤٤، ثم تنقل في مدن الشام كحمص ودمشق إلى أن استوطن بيروت فعلم في مدارسها بينها المدرسة البطريركية. ثم أنيطت به إدارة مجلة النشرة الأسبوعية وتولى تصحيح منشورات المطبعة الأميركية. وقد ألف أو ترجم ما يبلغ ثلاثين كتاباً منها كتابه (الحق اليقين في الرد على بطل دروين). وكان إبراهيم الحوراني يجيد الإنشاء نثراً ويحسن النظم شعراً وذلك دون تكلف. وقد خلف ديواناً شعرياً يشهد له بطول الباع في النظم، دونك أبياتاً قالها في الزهد بالدنيا:

يا غافلين تنبّهوا أذف السرى	وحدت مطي رحيلها الركبأن
وحيأ إلى دار البقاء فليس في	دار الفناء لعاقلي أوطان
غبرأؤها سوق الوغى وسماؤها	فلك النحوس نجومه الأحزان
لا يسلم الجبار في حوماتها	والمشتری في أفقها كيوان
حكّت العباد بها الهشيم وأصليت	نار المصائب فالحيأة دخان

جرجي الكنديرجي

و توفي بعيداً عن الوطن أحد أدباء حلب (جرجي الكنديرجي) مات في فرنسا سنة ١٩١٨ بعد أن كان نزع مع أسرته عن الشهباء فراراً من ظلم الأتراك سنة ١٨٩٨. وقد عني أخوه بجمع ونشر نخبة من ديوانه، روت عنه مجلة المسرة الغراء بعض مقاطيعه المعربة عن جودة قريحته. منها هذه الأبيات التي قالها إذ زار الأهرام ورأى ما فيها من التصاوير الهيروغليفية وعين بإزائها أبا الهول فقال يذكر تلك الآثار المشيدة بتسخير الألوف من العبيد:

والبدرُ يسطعُ في الفضاء السامي	إني وقفْتُ بساحةِ الأهرامِ
منهيباً لجلالةِ الأجسامِ	وأجلتُ طَرْفي حولها متنقبا
عما حوت من أعظمِ الأجسامِ	مستطلعاً أسرارها متسائلاً
متمثلاً متحرراً قدامي	فبدالي التاريخُ في صفحاته
يستأفهم فرعونُ كالأنعامِ	ورأيتُ خلقاً لا يُعدُّ عديدهم
حُنِّي الظهورُ لشدةِ الآلامِ	صُفِرَ الوجوهُ شعورهم مغبرةٌ
قَمِ الرؤوسِ لمنبثِ الأقدامِ	تعلو القروحُ جلودهم وتسيل من
في جررٍ أثقالٍ ونقلِ رُكामِ	من قَرعِ أسواطٍ وشدِّ سلاسلِ
وللعنةِ المظلومِ للظلامِ	كلُّ يئنُّ مردداً لشكايه
مرصوصةٌ والرملُ دمعُ الرامي	فكأتمَّ الأحجارُ أكبادُ الوري
شهدتْ لنا بشراسةِ الحكامِ	وكأتمَّ الأهرامُ شبهً نواجذِ
الهولِ الصموتِ الكشفَ عن إيهامي	فدهشتُ ثمَّ سألتُ محتشماً أبا
حَرَصتُ عليهِ جوانحُ الأيامِ	وهو الأمينُ أكملُ سرِّ غامضِ

يجمي خبايا العاديات كحارسٍ
فتبسّم الصنمُ القديم تعطفًا
إن كنت تحسبُ ما رأيتَ حقيقةً
هذي الشواهدُ شخّصتُ فيما مضى
لو عادتِ الأسلافُ يوماً بينكم

يقظانَ يَجْبها بسِترِ ظلامِ
وأجابني من بعد ردِّ سلامي
أخطأتَ فهو مُحَصَّلُ الأوهامِ
أثرَ الحجى ومآثر الأعلامِ
لبكت على الأخلاق والأفهامِ

عبد الباقي العمري الفاروقي

(هو أديب العراق عبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي الموصلية، ولد في الموصل سنة (١٢٠٤هـ) (١٧٨٩م) انتهت إليه رئاسة الشعر والأدب في وطنه. تغدّى منذ صغره لبان العلم. وانتدبتهُ الحكومة السنيّة وهو ابن عشرين إلى منصب كتخدا ووكيل الوالي فراق القاسم باشا وعلي باشا إلى بغداد وقام بأعباء رتبته أتمّ قيام، وكذلك سار بالعساكر الشاهانية إلى قبيلتي الزكرت والشمرت في النجف فقصّ جناح الفتنة بينها بحسن درايتها وعاد إلى بغداد مقروناً باليمن والإسعاد ونال الحظوة من الدولة العلية.

ثمّ إلى الكتابة والآداب فشاع نثره الرائق وشعره الفائق فألف التآليف التي أحرز بها قصب السبق من مضمار أدباء العراق وفاز بين فصحاءهم بالقدح المعلى. وكانت وفاته سنة (١٢٧٨هـ) (١٨٦١م) قيل: إنه أرّخ نفسه في عام مماته بيت كتب على قبره:

بلسان يوجّد الله أرّخ ذاق كأس المنون عبد الباقي
أما تأليفه فكألفها ناطقة بفضله وتوقّد فهمه منها ديوان أهلة الأفكار في مغاني الابتكار
وكتاب نزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر وكتاب الباقيات الصالحات وكتاب نزهة الدنيا
أودعه تراجم بعض رجال الموصل في القرن الثاني عشر والثالث عشر، وله ديوان شعر يسمّى
بالترياق الفاروقي من شعره تنويهاً بعلوّ مقامه في الآداب، قال يؤرّخ جلوس السلطان عبد
العزیز وأجاد:

للتلغراف الفضل إذ جاءنا يقول بشاركم بلفظٍ وجيز
قد أحرزت ملّتكم أرّخوا هزاً بظلل الله عبد العزیز
وقال في التشبيه:

كأن ضوء البدر في دجلة حين يشرق

والمـوجُ في أثناءه
قراضةٌ من ذهب
منه العُبابُ يخفُّ
طففا عليها الزئبقُ

وقال في فتح الدولة العلية لحصن سيوستبول مع الدولتين الفرنسية والإنكليزية:

أقول لمدول المنصورِ عكرها
لما اتفقتم على صدق المحبة في
بسطوة دعت الأطوادَ راجفةً
مدافعُ غطتِ الدنيا غمائمها
رعدٌ وبرقٌ وغيمٌ من سدىً ولظىً
أقلهم فرّاً لِمَا فرَّ أكثرهم
والسيفُ غنى على هاماتهم طرباً
غادرتُم البر بحرّاً يستفيض دماً
سبوسبتول التي أعيت معاقلها
(١٢٧١هـ)

وله مشطراً أبياتاً منسوبة لأبي نصر الفارابي الفيلسوف الشهير:

كمَلْ حقيقتك التي لم تكمل
وابغ لنفسك ما ترقبها به
أتكملُ الفاني وتترك باقياً
فهو الذي لا ينبغي لك تركه
فالجسمُ للنفس النفسية آله
ولكم عليها من حقوقٍ للعلا
يفنى وتبقى دائماً في غبطةٍ
وعن ارتكاب النقص كُن في معزلٍ
(والجسم دعه في الحضيض الأسفل)
تكميلُهُ أولى بحقِّ الأكمَلِ
(هملاً وأنت بأمره لم تحفلِ)
تقضي المرامَ بها إذا لم تكسلِ
(ما لم تحصلها به لم تحصلِ)
إن فارقته ودولته لم تنقلِ

وسعادة أبدية لا تنقضي (أو شقوة وندامة لا تنجلي)
(أعطيت جسمك خادماً فخدمته)
وجعلت من هو فوقه من دونه
(شركٌ كثيفٌ أنتَ في حبلاته)
منه وأنت به بأية حياة
(من يستطيع بلوغ أعلى منزل)
ويرى الثرى تحت أخمص رجله
ولعبد الباقي الفاروقي مع أدباء زمانه مراسلات لطيفة فمدحوه ومدهم بقصائد لا تحصى
لا يسعنا ذكرها وكثير منها يتضمن الطرف المستطرفة، ونكتفي بذكر بعض أبيات قالها في
تقريظ مقامات مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي أولها:

غُرَّرَ أم دُرَّرَ مكنوننةً في عُباب البحر بين الصَّدَفَيْنِ
إلى أن قال:

قد أتنني تتقاضى دَيْنَهَا فوفت للمجد عني كل دَيْنُ
بمزايها العقول ارتسمت فمحت عن عين عقلي كل غَيْنُ
وتجألت صور العلم بها فجلت عن كل قلب كل رَيْنُ
وعلى الإحسان والحسن معا طُبعت والطبع مشغوفٌ بدَيْنُ
رحت من راحة معناها ومن روح مبناه حليفُ النَّشَاتَيْنِ
يال سفرٍ لسفرت أفاظها بين أفقية سفور النيرَيْنِ
ياله قاموس فضلٍ قد طوى مجمع البحرين بين الدفتَيْنِ
وكان مدحه سنة (١٢٦٤ هـ) (١٨٤٨ م) بقصيدة بائية يقول فيها:

أبلى النوى جسدي النحيفَ كأنني قلمٌ بدا بيدي نصيف الكاتبِ
حبرٌ حلا في حبره قرطاسه كالتبر لما لاح فوق ترائبِ

فسطوره وطروسه في حسنها حاكت سماء زينت بكواكب
وختمها بقوله:

لوقمت طول الدهر أنشد مدحه بين الأنام فلم أقم بالواجب
وبمدحه العمري أب مؤرخا ترتيب مدحي في نصيف الكاتب
فقال الشيخ ناصيف يجيبه بقصيدة من البحر والقافية:

أحسنت في قول وفعلٍ بارعا وكلاهما للنفس أكبر جاذب
أنت الذي نال الكمال موقفا من رازق من شاء غير محاسب
فإذا نظمت فأنت أبلغ شاعرٍ وإذا نثرت فأنت أفصح خاطب
وإذا نظرت فعن شهابٍ ثاقبٍ وإذا فكرت فعن حسامٍ قاضبٍ
هذا رسولٌ لي إليك وليتني كنت الرسول لها بمعرض نائب
ومن أقوال الفاروقي وصفه للتغراف:

خطّ التغراف حروف جرّ يجيء بها من الغور البعيد
ويلفظها بغير فمٍ ولكن بالسنة حدادٍ من حديدٍ

هذا، وقد أشرنا سابقاً إلى قصيدته الخالية التي عارض بها خالية بطرس كرامة تجدها في ديوانه (ص ٢٤٧ - ٢٤٣) من الطبعة الجديدة فدارت بسببها المراسلات بين الشعارين. وقد هنا بطرس كرامة برتبته الكتخداوية بقصيدة مطولة يقول فيها:

الشاعر الفرد الذي أهدى لنا دُرر البحور نُظْمُنَ في الأوراقِ
دُرٌّ بجيدك أم حباك قلائدا من شعره العمريُّ عبد الباقي
جمع الفصاحة بالبلاغة مثلما قرن الحجا بمحاسن الأخلاق

الباب السابع

دراسة موسعة

لحياة البارودي وشعره

محمود سامي البارودي

١٢٥٥ - ١٣٢٢ هـ / ١٨٣٨ - ١٩٠٤ م

- أ -

استفاضة

أحد أركان النهضة الأدبية في أواخر القرن السابق وغرة القرن الحالي. كان من مولدي الجركس وكان أبوه حسن بك من أمراء المدفعية في الجيش المصري. ولد ابنه محمود في القاهرة سنة (١٢٥٦ هـ) (١٨٤٠ م) ثم تخرج في المدارس الحربية في مصر وتلقن فيها مبادئ العلوم فأحرز منها قسماً حسناً وإنما تغلب عليه الأدب وأغرم بالشعر العربي وأتقن اللغتين التركية والفارسية وتقلب في المناصب العسكرية وحارب مع الأتراك في الحرب الروسية سنة ١٨٧٧. وكانت مصر أنفذت لمساعدة الدولة العثمانية نجدة كانت فرقته من جملتها فكوفي لحسن بلائه برتبة اللواء وتعين سنة ١٨٧٩ م مديراً للجهة الشرقية. ثم تولى نظارة الحربية ثم الأوقاف ثم المعارف.

وكان له يد في الثورة العراقية فنفي إلى سيلان، ثم عفي عنه وعاد إلى وطنه وانقطع فيه إلى الآداب إلى سنة وفاته وكف بصره في أواخر حياته. وهو أحد أمراء الشعر العربي الحديث يعد شعره من الطبقة الأولى مع القليل من معاصريه من شعراء مصر وشعره يجمع بين السهولة والمتانة.

ومن آثاره مجموع نفيس دعاه مختارات البارودي في أربعة أجزاء ضمنه أطيب قصائد الشعراء قسمها إلى ستة أبواب واسعة. ودونك مثلاً من شعره قال يرثي زوجته المتوفاة وهو في المنفى:

وردَ البريدُ بنير ما أَمَلْتُه	تَعَسَ البريدُ وشاءَ وجهُ الحادي
فسقطتُ مغشياً عليَّ كأنما	نهشتُ صميمَ القلبِ حيَّه وادي
ويلمه رُزءٌ إيطار نعيه	بالقَلْبِ شُعلة مارجٍ وقَّادٍ

ومنها:

أسليلة القمـزِين أيُّ فجيعة
اعززُ عليَّ بأن أراكِ رهينةً
أو أن تبيني عن قـرارة منزلٍ
لو كان هذا الدهرُ يقبلُ فديةً
قد كدتُ أقضي حـسرةً لو لم أكنُ
فعليكِ من قلبي التحيّةُ كلِّها
وقال يصف حالته في منفاه إلى سيلان وهي سرنديب القدماء:

لم يبقَ لي أربُّ في الدهرِ أطلبُهُ
وأيـن أدركُ ما أبغيه من وطرٍ
لا في سرنديب لي إلفٌ أـجاذبه
أبيتُ منفرداً في رأس شاهقةٍ
إذا تـلّقتُ لم أبصر سوى صُورٍ
تـهـفويـ الریح أحياناً ويلحفني
فلو تراني وبُردي بالندي لـشقُّ
لا يستطيعُ انطلاقاً من غيابته
إلا مصاحبٌ حرٌّ صادقٍ الحالِ
والصدقُ في الدهرِ أعياءٌ كلُّ محتالِ
فصلَ الحديدِ ولا خلُّ فيرعى لي
مثلَ القطامي فوق المربأ العـالي
في الدهن يرسمها نقاشٌ من مالي
بـرْدُ الطلال بـبُرْدٍ منه أسـمالي
لـخـلـتني فرحٌ طيرٍ بين أدغالٍ
كأنما هو معقولٌ لعقالٍ

أجمع النقاد والباحثون في الشعر العربي الحديث على أن البارودي هو رائد الشعر وباعثه في عصر النهضة، بعد أن استولى عليه الرقاد فترة طويلة، وقد اتضح لنا من الاطلاع على بعض نماذج من الشعر أوائل عصر النهضة، أنه كان مثقلاً بالزخرف والصنعة - إلا في القليل النادر - وكان يدور في نطاق أغراض ضيقة، كالتهنئة والتعزية أو تأريخ حادثة أو مدح أو عتاب أو غير ذلك مما وجد عند الشعراء النظاميين، وظل الشعر كذلك حتى أتيج له من انتشله من رقدته وارتفع به من وهدة التقليد والضعف إلى مرتبة التجديد والقوة.

- ب -

عصر البارودي

حين رأى البارودي النور عام ١٨٣٨ كانت مصر آنذاك قد خرجت من الاستعمار الفرنسي، ومن حملة نابليون وقد فتحت عينيها على الحضارة الجديدة التي حمل لواءها محمد علي، الذي استطاع بحنكته ودهائه أن يتسلم عرش مصر بعد ما جاء من ألبانيا جندياً صغيراً في الجيش الذي خلص مصر من الاستعمار الفرنسي، واستطاع فيما بعد أن يتابع النهضة عن طريق البعثات إلى فرنسا، كما رأينا في البعثة التي أشرف عليها الطهطاوي، واستطاع كذلك أن يبعث النهضة التعليمية بإنشاء المدارس والمعاهد، كمدرسة الألسن ودار العلوم ومدرسة الطب والهندسة وغيرها، ولكنه لم يكن يستهدف من وراء ذلك تحقيق أحلامه ومطامحه الشخصية، لذلك ركز الأدب وخاصة في عصره ركوداً واضحاً فلم يكن سوى صوراً لفظية، مغطاة بأثواب من المحسنات البديعية أو قصائد معجمية.

أما في عصر إسماعيل فقد طبعت دواوين الشعر القديم فتلفقتها أيدي الأدباء والشعراء، فتعرفوا على نماذج شعرية غير ما كانوا يعرفون من قبل، وعرفوا الشعر العباسي الذي يعكس عصره بصفاء ونقاء، فكان هذا كله مدعاة لانصرافهم عن الصور البديعية السقيمة. اتسع نطاق الاتصال بالغرب، وبالثقافات المختلفة عن طريق البعثات، وعن طريق المهاجرين إلى مصر من لبنانيين وسوريين كانوا قد اطلعوا على الثقافة الغربية. وفي هذا العصر بدأ العمل بحفر قناة السويس منذ عام ١٨٥٩ م، وأعطى امتيازها لشركة فرنسية، ولما علمت إنكلترا هذا النبأ استعدت الدولة العثمانية على المشروع، زاعمة أنه يؤدي إلى احتلال فرنسا لمصر في النهاية.

وكان (فردينان دولبيسيس) قد ضمن عقد الشركة شروطاً فادحة وقبل بها الخديوي سعيد، ولكنها كانت كارثة كبرى على مصر، وزاد الخديوي على ذلك بأن منح الشركة حق إنشاء ترعة للمياه العذبة ويتفرع منها فرعان إلى السويس وبور سعيد كما سمح لها بانتزاع

الأراضي الممتدة إلى كيلومترين على طول القناة لسكنى أفرادها دون إلزامها بدفع أية رسوم، إلى غير ذلك من التسهيل والمزايا حتى أضحت فرنسا كأنها دولة ضمن دولة، وهذا كله كان سبباً في مطامع إنكلترا التي استعدت الدولة العثمانية لكي تسيطر على مصر.

وصحاح المصريون وتنبهوا لهذه الكارثة وأصروا على الخديوي إسماعيل - بعد وفاة سعيد - أن يعمل على تخفيف شروط امتياز هذه الشركة وكان لمصر من الأسهم ما يقرب نصفها، فلما ساءت اقتصادياتها أيام إسماعيل باع هذه الأسهم لإنكلترا بمبلغ زهيد، وهكذا خسر القناة كلها فمهّد بهذا لتسلل الإنكليز واحتلالهم مصر فيما بعد.

وبدأت الصحف تنقد سياسة إسماعيل الخرقاء وتنادي بشعار (مصر للمصريين)، ولكنه كان يصم أذنيه عن كل صرخة وطنية، فيغير نظام الحكم ويرد الأمر إلى مجلس نظار (وزراء) فيه ناظران أحدهما فرنسي والآخر إنكليزي، مما جعل الشعب يغلي حقداً عليه لتعاونه معهما، فاستقال وشكّل الوزارة بعده ابنه توفيق، فأطلق أيدي الأجانب، وجعلها سلطة واسعة فازداد الشعب غيظاً وثار ضباط الجيش ولكن توفيق تمادى في غيئه حتى تم الاحتلال الإنكليزي.

وكان جمال الدين الأفغاني آنذاك قد هبط مصر وأخذ يبيث أفكاره الإصلاحية في صفوف الشعب بمعونة تلميذه الشيخ محمد عبده، وحاول أن يثني الخديوي توفيق عن جوره دون جدوى، وهذا مما أدى إلى نفيه وإقالة تلميذه من وظيفته ظناً منه أنه بذلك يطفىء الشعلة الوطنية، ثم عهد إلى (مصطفى رياض) بتشكيل مجلس نظار جديد، فأشرك معه (علي مبارك) ناظراً للأشغال، والبارودي ناظراً للأوقاف، وكان لهذين فضل إسناد تحرير جريدة (الوقائع المصرية) إلى الشيخ محمد عبده مع سعد زغلول وغيره من تلاميذه الذين دعوا فيها إلى الإصلاح، وإلى تأليف حكومة جديدة شورية، وألف أبناء مصر جمعية سرية سموها (الحزب الوطني) أخذت تقاوم الحكومة وتنتقدها لتفريطها بحقوق المواطنين.

وهكذا ثار الشعب وضباط بقيادة (أحمد عرابي) فقررت الحكومة محاكمة الضباط الثائرين، لكن رفاقهم حشدوا جندهم واقترحوا معتقلهم وأطلقوا سراهم مما أدى إلى إسناد وزارتي الحربية والبحرية إلى البارودي، الذي كان موثقاً من قبل عرابي وزملائه، فزاد رواتب الضباط

وألف لجنة لإصلاح القوانين العسكرية، ووضع يده بيد الوطنيين، مما أحفظ عليه الخديوي فأخرجه من الوزارة.

وكثر التفاف الشعب حول عرابي، حتى كان عام ١٨٨٨ حيث اقتحم وأعوانه ميدان قصر عابدين مطالبين توفيقاً بالإصلاحات، وإعادة الحياة النيابية، فألف هذا مجلس نظار جديد (وزارة) برئاسة (محمد شريف) اشترك فيه البارودي ناظراً للحربية والبحرية وأنشئ مجلس نيابي وانتُخب أعضاؤه وأخذ يمارس سلطته.

ولكن إنكلترا وفرنسا خشيتا على نفوذهما حين رأتا النظام الدستوري بدأ يستقر في مصر، فلجأتا إلى الدس بين الخديوي ومجلس النظار حتى تم للإنكليز احتلال بور سعيد والإسماعيلية والسويس، ثم القاهرة بعد احتدام الحرب بينهم وبين المصريين، واعتقلوا زعماء الثورة العرابية، ثم حاكموهم فحكم على عرابي والبارودي وغيرهما بالنفي المؤبد وعلى آخرين بالنفي لمدد مختلفة، كما حكم على الشيخ محمد عبده بالنفي إلى سورية لمدة ثلاث سنوات. وألغت إنكلترا الدستور، ومجلس النواب، وجردت الشعب من جيشه الوطني، وأنشأت بدلاً عنه جيشاً هزياً يقوم عليه ضباط بريطانيون، وهكذا تمت السيطرة على البلاد، ولكن الشعب المصري ظل يقاوم الاحتلال البريطاني تارة عن طريق المقالات التي يحررها الأفغاني ومحمد عبده في (العروة الوثقى) بباريس، وتارة أخرى عن طريق بعض الحركات الوطنية كحركة (مصطفى كامل) وغيرهما مما هو معروف في تاريخ مصر.

- ج -

عصر البارودي الفكري والأدبي

كان عصر البارودي بداية للتفتح الفكري على الحضارة الغربية وبدأ التطور الأدبي بالنمو، ولكن ببطء شديد، وإذا كان النمو أسرع من الشعر في هذه الناحية، غير أنه كان أيضاً، ما يزال محافظاً فيه على السجع والبديع، ثم لأن أسلوبه أثر ترجمتنا لبعض الآداب الغربية، وبدأ بعض الأدباء يكتبون القصة والرواية، إلى جانب المقالات المتنوعة في مضامينها السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية الخالصة.

أما الشعر فقد كان ما يزال مثقلاً بالزخرف والصنعة مع تفاهة في المعاني، وإسفاف في النظم، ولم يكتب له النهوض إلا على أيدي البارودي الذي رد إليه ديباجته المشرقة ورونقه وبهاء حين عاد به إلى أزهى العصور الأدبية.

وقد كان لكتاب (الوسيلة الأدبية) لحسين المرصفي أثراً واضحاً في النهضة الشعرية، إذ يعد وثيقة مهمة في تعريف الناشئين على قواعد اللغة العربية النحو والبلاغة والعروض وذلك من خلال نماذج راقية اختارها من الأساليب القديمة لشعراء العصور الماضية، الجاهلي والإسلامي والعباسي، وكانت نماذجه هذه مختارة من الطرائف البديعة، وكثيراً ما كان ينشدها أمام تلاميذه بنبرة تدل على الإعجاب كما أشاد في كتابه بالبارودي وشعره، وأنشد بعضاً من قصائده وخاصة تلك التي يعارض فيها الشعراء العباسيين.

وبذلك لفت الأنظار إلى طريق البارودي التي أعجب بها الناشئة من الشعراء آنذاك، ولاسيما شوقي وحافظ ومطران الذين حملوا راية الشعر بعد البارودي، إذ حافظوا على رصانة الأسلوب، وأصالة النظم مع محاولتهم التجديد في المضمون والصياغة.

حياة البارودي

١ - من مولده حتى تخرجه في المدرسة الحربية:

ولد محمود سامي البارودي عام ١٨٣٨ في القاهرة، وكانت أسرته شركسية تنتمي إلى حكام مصر الماليك، وكان أحد أجداده ملتزماً أيام العثمانيين لبلده (إيتاي البارود) وهي إحدى بلاد محافظة البحيرة، ومن هنا جاء لقبه (البارودي) وكان يعتز بنسبه إلى الماليك الشراكس ويقول:

أنا من معشر كرام على الدهر — أفرادوه عزة وصلاحاً
عمروا الأرض مدة ثم زالوا — مثلما زالت القرون اجتياحاً
ويقول مفتخراً بهم مرة أخرى:

نماني إلى العلياء فرع تأثلت — أرومته في المجد وافترّ سعده
وكان أبوه حسن حسني ضابطاً في الجيش المصري وما زال يترقى حتى صار أميراً
للمدفعية، ثم عين مديراً لمديرية (دنقلة) في السودان، ولكنه ما لبث أن توفي حين بلغ ابنه
محمود سامي السابعة من عمره، وقد أشار البارودي إلى ذلك فيما بعد حين رثى أباه فقال عنه:

مضى وخلفني في سن سابعة — لا يهرب الخصم إراقي وإرعادي
وقد حز اليتيم في نفسه على الرغم من أنه فتح عينيه على أسرته التي كانت تعتر بما تستشعره
من بأس ومكانة. وقد كلفته أمه - وكانت شركسية كأبيه - وربته خير تربية، إذ كانت
كالأسر المسورة آنذاك تحضر له المعلمين ليلقنوه القرآن والفقهاء إلى جانب شيء من الشعر
والتاريخ والحساب، ويبدو أن خاله كان ينظم الشعر، إذ أشار إلى ذلك بقوله:

أنا في الشعر عريق — لم أرثه عن كلالته
كان إبراهيم خالي — فيه مشهور المقالته

وكان وهو في منزله يقرأ الشعر فيحفظه مرة وينشده مرة أخرى، ويستمر في الاطلاع على الشعراء القدماء، حتى التحق وهو في الثانية عشرة بالمدرسة الحربية، ثم تخرج فيها ضابطاً كأبيه وكانت التركية لغة التعليم في هذه المدرسة إضافة إلى لغة التحدث، إذ كان التلاميذ ملزمين بها، يعاقبون إن تحدثوا بغيرها، ولكن البارودي ظل على اتصال بالعربية وبالشعر العربي، وشغف بشعراء الحماسة وما بثوه في قصائدهم من أحاسيس تدل على علو الهممة والطموح إلى المعالي، ثم تخرج في المدرسة الحربية عام ١٨٥٤ م، أوائل عهد الخديوي سعيد وكانت حركة الطباعة آنذاك نشطة إذ طبعت بعض الدواوين فأتيح للبارودي أن يعكف على قراءتها وقراءة ما لم يطبع، وظل أكثر ما يستهويه شعر الحماسة والبطولة فكان يردده ويتغنى به حتى سرى في حنايا عقله وخالط وجدانه، ثم أخذ يتدفق على لسانه فتوة وفخراً بنفسه وأمجاد أسرته وأسلافه على الرغم من أنه لم يتعلم العروض ولا النحو، وقد قال عنه صديقه ومرشده (حسين المرصفي) في الوسيلة الأدبية: " لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله. ويشير المرصفي - فيما يتعلق بشعر البارودي - إلى ثلاثة أمور:

أولها - السليقة الشعرية: التي أحس بها حين بلغ سن التعقل ثم تكونت وصقلت بكثرة سماعه واستظهاره.

وثانيها - ثقافته النحوية: التي لم يتعلمها من كتب النحو واللغة، بل ثقفاً كذلك بكثرة السماع والحفظ لفحول الشعراء حتى تمكن من النظم.

وثالثها - محاولته نظم الشعر: عن طريق معارضة مشاهير الشعراء القدماء الفحول وتقليدهم.

وقد حالفه التوفيق في ذلك حتى جعل أستاذه ومرشده يعترف له ويستشهد في كتابه بقصائد عديدة من شعره، ولا ريب أن هذا الاعتراف من علامة في عصره يدل دلالة واضحة على تمكن البارودي من الشعر سليقة وطبعاً.

٢ - حياته في الأستانة:

حين تخرج البارودي في المدرسة الحربية برتبة باش جاويش، كان في السادسة عشرة من عمره، وكان يتطلع إلى تحقيق طموحه الحماسي وعبقريته الحربية، لكن الجيش المصري كان مشلول الحركة آنذاك في عهد الخديوي عباس الأول. إذ كان هذا من المعوقين للنهضة فسرح معظم ضباط الجيش، ثم جاء عهد الخديوي سعيد فلم يكن أحسن حالاً، ولما رأى البارودي أنه مغلول الأيدي ولا مجال لدخوله ميادين القتال، وألجئ هو وأمثاله من الضباط إلى عيش الدعة والحمول، عمد إلى إشباع ميله الحماسي الحربي بالمداومة على قراءة الشعر الحماسي والبطولي.

ووصف المعارك ثم قرر أن يترك الجيش فغادر مصر وسافر إلى الأستانة حيث التحق بوزارة الخارجية، وأتيح له هناك أن يعمق ثقافته باللغة التركية، حتى جرى أدبائها في نظمهم ونثرهم، وحاول كذلك أن يتعلم الفارسية، حتى أتقنها، وفي أثناء مقامه هناك وفي عام ١٨٦٣ م على وجه التحديد، قدم إسماعيل إلى الأستانة ليرفع إلى السلطان العثماني آيات الشكر لتنصيبه والياً على مصر، فرأى البارودي ما لم يره في غيره من النجابة والطموح فألحقه بحاشيته وعاد معه إلى مصر.

ولعل خير ما يمثل شعره في هذه الفترة قصيدته التي يستعير وزنها وقافيتها فقط من الشريف الرضي التي مطلعها:

لغير العلامني القلى والتجنب ولولا العلاما كنت في الحب أرغب
وتتضمن قصيدة البارودي أغراض الفخر ووصف الطرد (الصيد) والحرب ومنها قوله:
سواي بتحنان الأغاريد يطرب وغيري باللذات يلهو ويعجب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخوهم إذا ما ترجحت به سورة نحو العلامراح يدأب
نفى النوم من عينيه نفسُ أبية لها بين أطراف الأسننة مطلب
وبحر من الهيجاء خضت عبابه ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
توسطته والخيل بالخيل تلتقي ويبقى الظبا في الهام تبدو وتغرب

وقد كثر الفخر في هذه الفترة خاصة فنراه يفخر بأجداده وبنفسه حتى في القصيدة التي رثى بها أباه وهو في العشرين من عمره، إذ يقول عنه مشيراً إلى تيممه في السابق معزياً نفسه:

مضى وخلفني في سن سابعة لا يهرب الخصم إراقي وإرعادي
فإن أكن عشت فرداً بين أصرتي فهذا أنا اليوم فرد بين أندادي
وعاد إلى مصر وهو في الرابعة والعشرين من عمره ليبدأ صفحة جديدة من حياته.

٣ - حياته من عودته إلى مصر حتى نفيه:

عزم الخديوي إسماعيل على النهوض بمصر وبدأ بتأسيس جيش قوي فرقى البارودي أثر عودته من الأستانة إلى رتبة بكباشي (مقدم) وعينه قائداً لفرقتين من فرق الفرسان، فابتسمت له الحياة، ثم أوفده إلى فرنسا مع زمرة من الضباط ليشهدوا مناورات الجيش الفرنسي كما سافر إلى لندن ليشهد أعمالاً عسكرية أخرى زادته خبرة ومعرفة، ولما عاد رقي ثانية إلى رتبة قائم مقام (عقيد) في فرسان الحرس، ثم رقي إلى رتبة أمير لاي (عميد) ليتسلم قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص.

وهكذا ابتسم الحظ له ثانية فراح ينشد القصائد الحماسية الملتهبة بعد أن استشعر معاني الفروسية حقيقة لا خيالاً، فضلاً عما كان ينعم به من رغد العيش، وهذا ما جعله يفرغ للشعر حيناً، وينصرف إلى اللهو واللذات حيناً آخر. وكان شعره في هذه الفترة موزعاً بين الفخر بشيمه ونبل أصدقائه وبين التغني بجمال الطبيعة والمحجوبة التي يسميها تارة ليلي وتارة أخرى لمياء وتارة ظبية.

في هذه الأثناء شبت الثورة على الدولة العثمانية في جزيرة (كريت) وكان إسماعيل يريد مجاملة الخليفة العثماني، لذلك أرسل إليه كتيبة تعاون قواته في قمع الثورة وكان البارودي رئيساً لها، فأبلى في الحرب بلاء حسناً، ومضى يتغنى في شعره بالحنين إلى مصر، وبروضة المقياس - موضع سكناه - كما وصف الجزيرة والمعركة التي خاضها هناك فنظم في وصفها قصيدة مطلعها:

أخذ الكرى بمعاقد الأجنان وهفا السرى بأعنة الفرسان

ويقول فيها عن المحاربين ونهاية المعركة:

ملؤوا الفضاء فما يبين لناظر
غير التماح البيض والخرصان
فالبر أكدر والسماء مريضة
والبحر أشكل والرماح دواني
وضموا السلاح إلى الصباح وأقبلوا
يتكلمون بألسن النيران
حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت
عيناى بين ربا وبين مجان
فإذا الجبال أسننة وإذا
الوهاد أعنة والماء أحمر قان
وعاد البارودي إثر هذه المعركة بعدما أخذت الثورة مرفوع الرأس، فمنحه السلطان
العثماني وساماً من الدرجة الرابعة، وعينه إسماعيل (ياوراً) في معيته بدلاً من إعادته إلى الجيش،
ثم اتخذه أميناً لسره، وظل في معيته اثنتي عشرة سنة كان خلالها يتغنى بمصر واصفاً مناظرها
وآثارها، معرباً عن تعلقه بها.

وفي عام ١٨٧٨ م أعلنت روسيا الحرب على تركيا وأرسل إسماعيل جيشاً لمعونته فسافر
البارودي معه، واشترك في الحرب، ولما كان البارودي قد أبلى فيها بلاء حسناً فقد كافأه الخليفة
بوسامين وبرتبة (أمير اللواء) وإن كانت الهزيمة قد حاقت بالعثمانيين، واضطروا إلى عقد
معاهدة (سان ستيفانو). وقد وصف شاعرنا المعارك هذه والناس وصور حينه إلى وطنه في
قصيدة مطلعها:

هو البين حتى لا سلام ولا رد ولا نظرة يقضي فيها حقه الوجد
كما وصف الروس وبلادهم في قصيدة أخرى - وقد أتى عليه عيد الفطر وهو هناك -
فقال:

بلاد بها ما بالجحيم وإنما مكان اللظى ثلج بها وجليد
تجمعت البلغار والروم بينها وزاحمها التتار فهي حشود
إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم هديرأ تكاد الأرض منه تميّد
وعاد البارودي من حرب البلقان وهو في الأربعين من عمره فعين مديراً للشرقية فمحافظةً
للعاصمة، لكن الحظ بدأ يجافيه ويعبس في وجهه، إذ تخلّى إسماعيل عن العرش بعد تدخل

الدول الأجنبية في شؤون مصر، ثم توالى الأحداث كثيرة مكنت الاستعمارين الفرنسي والإنكليزي من السيطرة على مصر فثار الشعب ونادى بالحكم النيابي، وتولى توفيق الحكم، فازدادت الأحوال سوءاً وتكرر لإصلاحات (الأفغاني وعبد) بعد أن كان مقتنعاً بها.

وكان البارودي مقرباً إلى توفيق فعينه مديراً للأوقاف، ولما ثار ضباط الجيش على وزير الحربية (عثمان رفقي) واستقال، أسند الخديوي الوزارة إلى البارودي، وكان محبوباً لدى الشعب إذ كان إلى جانبه دائماً، فدس عليه (رياض باشا - رئيس الوزراء - عند توفيق فاضطره إلى الاستقالة، واعتزل السياسة لكنه ما لبث أن كلف بتأليف وزارة بعد أن رأى الخديوي توفيق أن حركة الضباط تشتد وتكبر وكان (أحمد عرابي) وزيراً للحربية في هذه الوزارة، ولكن ازداد تدخل الاستعمارين من جديد واجتاح أسطولها الإسكندرية وأجبروا الوزارة على الاستقالة فحاول البارودي عندئذ أن ينصح (عرابي) وأعوانه بالعدول عن الثورة، ومحاربة الاستعمار قائلاً:

نصحت قومي وقلت الحرب مفاجئة وربما تاح أمر غير مطنون
فخالفوني وشبوها مكابرة وكان أولى بقومي لو أطاعوني
وأخفقت الثورة ونفي عرابي وأعوانه وفي مقدمتهم البارودي إلى جزيرة سرنديب (سيلان)
جنوب الهند، وهي التي تعرف اليوم بسيريلانكا.

٤ - البارودي في المنفى وحتى وفاته:

لما حكم على البارودي بالنفي أقام ورفاقه في كولومبو - وهي من ثغور سيلان - سبعة أعوام، ولكن الخلاف دب بينهم وكان كل واحد منهم يلقي تبعة النفي على زملائه الآخرين، وما كان هذا ليروق البارودي ولا كان من خلاله ففارقهم إلى مدينة كندي حيث قضى عشرة أعوام فيها، وتعلم خلالها اللغة الإنكليزية وعلم بعض أهلها الدين الإسلامي واللغة العربية. وقد بدا شاعرنا في هذه الفترة حزيناً كئيباً فلا خل يؤنس وحشته ولا صديق يبشبه شكواه وآلامه فكان الشعر عزاء الوحيد يسلي به نفسه ويسري عنها الهموم، ومنذ اللحظات الأولى لفراق وطنه أخذ يصور ساعات وداعه حين كانت الدموع تنهمر من عينيه فيقول:

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
 مدامعنا فوق الترائب كالمزن
 أهدت بصبري أن يعود فعزني
 وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن
 وما هي إلا خطوة ثم أقلعت
 بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن
 وما كنت جربت النوى قبل هذه
 فلما دهنتني كدت أقضي من الحزن
 ولولا بنيات وشيب عواطل
 لما قرعت نفسي على فائت سني
 وأكثر شعره في هذه الفترة، كان في التعبير عن شوقه وحنينه إلى وطنه فكان كما قال عنه
 (محمد حسين هيكل): " يراجع الحنين إلى الوطن فيشكو النوى ويصور الوطن أروع صورة
 في أروع عبارة، ويثور على الحنين وعلى الوطن فيلعن مصر ويهجو ناسها ويجز الأسي في نفسه
 فيتوجع، ويثور في عروقه دم المالك فيعود إلى الفخر وتبلغه الأنباء بوفاة الأهل والأصدقاء
 فيرضى ويبكي ويسلم أمره إلى الله... ويشعر بذهاب الشباب وبالأجل المكتوب في الغربة
 والنأي عن الإخوان والأهل فيستسلم للقضاء ". ولكنه مع هذا كله بقي على اعتداد بذاته
 وإحساسه بعلو همته فقال:

همتي همة الملووك ونفسي
 نفس حر ترى المذلة كفرا
 ولعل من أروع قصائده في الحنين إلى الوطن هذه القصيدة القافية التي منها قوله:
 هل من طبيب لداء الحب أوراقي
 يشفي عليلاً أحاحزن وإبراق
 قد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقا
 حتى جرى البين فاستولى على الباقي
 أما من رثاهم من أصدقائه وهو في المنفى فمنهم (أحمد فارس الشدياق، وعبد الله فكري،
 وحسين المرصفي) وقد بكى هذين الأخيرين في قصيدة واحدة كما بكى فيها وطنه وشبابه
 الذي غدا الآن بعده أشلاء همة في ثياب، إذ كف بصره وضعف سمعه واصطلحت عليه
 العلل والأسقام فكانت هذه القصيدة أصدق ما نظمه في أصدقائه ونفسه معاً يقول فيها:

أغلق الشيب جدي وكساني
 خلعة منه رثة الجلباب
 وولّى شعر حاجبي على عيني
 حتى أطل كالهـدـاب

لا أرى الشيء حين يسنح إلا
وإذا ما دعيت حرت كأني
لم تدع صولة الحوادث مني
فجعتني بوالدي وأهلي
أين مني حسين بل أين
مضيا غير ذكرى وبقاء الذ
كخيال كأني في ضباب
أسمع الصوت من وراء حجاب
غير أشلاء هممة في ثياب
ثم أنحت تكرر في أترابي
(عبد الله) رب الكمال والآداب
كر فخر يدوم للأعقاب

وكان حزنه أشد وأقوى حين فجعه الدهر بموت زوجته وابنته وابنه فرثاهم جميعاً، ثم عاوده المرض فقرر الأطباء وجوب عودته إلى الوطن ليعالج في المناخ الذي نشأ فيه فعاد إلى مصر عام ١٩٠٥ م، ولم تكدماه تطآن أرض القاهرة حتى أنشد قصيدته البديعة التي مطلعها:

أبابل رأيت العين أم هذه مصر فلإني أرى فيها عيوناً هي السحر
وقد لزم بيته وصرف وقته وجهده في تنقيح ديوانه وإعداده للطبع كما عكف على ترتيب
مختاراته الشعرية التي جمع فيها قصائد اختارها لثلاثين شاعراً بدأهم ببشار، وختمهم بابن
عينين الدمشقي.

وفي الخامس عشر من كانون الأول ١٩٠٤ م أسلم البارودي الروح إلى بارئها فرثاه كثير
من الشعراء وجمع الشاعر خليل مطران مراثيهم في كتاب خاص، وهكذا انطوت صفحة حياة
هذا الشاعر المجيد، رائد الشعر العربي الحديث.

مكوناته البيئية والثقافية

من ثنانيا الكلام على عصر البارودي وبيئته وحياته نستطيع أن نعرف المكونات البيئية والثقافية التي أثرت في شخصيته وأخلاقه، ولعل في مقدمتها:

١ - تلك الأسرة العريقة التي كان يعتز بها أيما اعتزاز والتي وجهته نحو الفخر بحسبه ونسبه حتى لا تكاد تخلو قصيدة من هذا الفخر.

٢ - يلي هذا النشأة العسكرية التي زادت من اعتزازه، وخاصة لأن والده كان ضابطاً في الجيش فنشأ طموحاً إلى المجد، ذا هممة عالية وعزيمة شجاعة كما نشأ واسع الآمال كثير الاعتداد بنفسه وبشخصيته، حتى لقد قال في أبياته التي يرثي بها والده مشيراً فيها إلى هذا الاعتزاز والاعتداد:

فإن أكن عشت فرداً بين أسرتي فهذا أنا اليوم فرد بين أندادي
وإن شعوره هذا بتفوقه على أقرانه هو الذي سما به إلى تسلم مناصب عديدة كبيرة من
نظارة الأوقاف إلى نظارة الحربية والبحرية، حتى رئاسة الوزارة، وهو الذي أدى به إلى النفي،
ويشعره إلى الخلود وقد قال:

ومن تكن العلياء هممة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب
إذا أنما لم أعط المكارم حقها فلا عزني خال ولا ضمني أب
وكان معروفاً بين أصدقائه بالصرامة في القول والشجاعة في الرأي والحرب، كان لا
يسكت على قبيح إذ يعد ذلك نفاقاً ويقول:

أنالاً أقر على القبيح مهانة إن القرار على القبيح نفاق
أما اتجاهه نحو الشعر فهو أثر من آثار ثقافته من ناحية، ومن نشأته العسكرية من ناحية
أخرى، فهو وإن أعد ليكون رجلاً عسكرياً - لكن نفسه الطموح أبت عليه أن يستسلم لدعة

العيش بعد تخرجه في المدرسة الحربية - كما فعل أقرانه من الضباط الذين عوقوا عن الحركة، فانصرف إلى كتب الأولين يعب منها ما استطاع، ترفده في ذلك موهبة أصيلة ورغبة في الاطلاع حتى لانت له قيثاره الشعر.

٣ - فإذا أضفنا إلى ذلك معرفته التركية والفارسية وإتقانه لهما إتقاناً مكنّه من النظم فيهما، ثم تعلمه الإنكليزية في منفاه، أدركنا أية عقلية متفتحة كانت تحلي هذا الشاعر وتوجهه، حتى مكنته من الشعر والخلود.

شعر البارودي القديم والجديد

إن الشعر في عصر البارودي كان مجرد قول معاد مكرور مثقل بالزخارف والصنعة متأثر بشعر المتأخرين في عصور الدول المتتابعة كما كانت معانيه مطروقة متداولة، أما البارودي فقد لفت الأنظار لأنه:

- ١ - سما بشعره إلى مرتبة الشعراء الفحول في العصور الماضية ولاسيما العصر العباسي.
- ٢ - ولأنه كان ينزع في شعره إلى تصوير الواقع دون الإغراب في الخيال ودون الاعتماد على المحسنات البديعية، مع بساطة في التعبير وسلاسة في الأداء وقوة في السبك.
- ٣ - ولأن شخصيته تبدو واضحة من خلال شعره ولو حاكى القدماء وعارضهم، إذ كان شعره مرآة صافية تعكس ذاته ومشاعره. يقول: (وبعد فإن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بالألوان نوراً يتصل خيطه بأسئلة اللسان فينفث بألوان من الحكمة ينبجج بها الحالك، ويهتدي بدليلها السالك وخير الكلام ما اتلفت ألفاظه واثلفت معانيه، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سلبياً من وصمة التكلف بريئاً من عشوة التعسف، غنياً عن مراجعة الفكرة، فهذه صفة الشعر الجيد فمن أتاه الله منه حظاً، وكان كريم الشمائل طاهر النفس فقد ملك أعنة القلوب ونال مودة النفوس، ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس وتدريب الأفهام، وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية، وقد كنت في ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة، ألهج به لهج الحمام بهديله وأنس به أنس العديل بعديله لكما قلت:

تكلمت كالماضين قبلما جرت به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدني بالإساءة غافل فلا بد لابن الأيك أن يترنما

وفي هذا النص من المقدمة يصف شاعرنا الشعر، ثم يوضح صفة الجيد منه وأثره في نفسه كما يبين كيف بدأ النظم بعدما أنس من نفسه ولوعاً به.

أما الشعر في رأيه، فهو ومضة خيالية تلمع في الفكر، ثم تربي أشعتها إلى القلب فتفيض أنوارها على طرف اللسان، وكأنه يريد بذلك أن يقول: إن الشعر لا يحتاج إلى إعمال الفكر ولا إلى الصناعة، بل يفيض على الشاعر فيضاً يسيل مع الطبع، ولذلك قال هو عن شعره:

أقول بطبع لست أحتاج بعده إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر
إذا جاش طبعي فاض بالدر منطقي ولا عجب فالدر ينشأ في البحر
مع أنه لا بد للشعر - في مرحلة من مراحلها - من الصنعة حتى يصبح سوياً، والذين ينظمون الشعر يعترفون بهذا.

أما الشعر الجيد - في رأيه - فهو ما كانت ألفاظه مؤتلفة ومعانيه ظاهرة متألقة فضلاً عن سهولة الفهم والبعد عن التكلف وقرب المأخذ.

وأما وظيفته فهي - كما قال - تهذيب النفوس والعقول ولفت الأذهان إلى مكارم الأخلاق. وهذه الوظيفة تجعل الشاعر ملتزماً بالتوجيه والإرشاد مع أن كثير من الشعراء إنما ينظمون - في غالب الأحيان - للتعبير عن ذواتهم - بعد مرورهم بتجربة شعورية، وهذا ما نراه في شعر البارودي الذاتي نفسه، الذي كان يصف فيه مجالس أنسه وطربه أو بصور الطبيعة من حوله، أو الحروب التي اشترك فيها، أو غير ذلك مما يوجد في ديوانه فأية وظيفة يمكن أن يستهدفها الشاعر لتهذيب النفوس إلا ما يكون من تأثيره الفني في نفس القارئ.

نظم البارودي في أغراض عديدة مثل الفخر والغزل والوصف ووصف الطبيعة ومجالس اللهو والمعارك والحماسة، ثم الشعر الوطني والحنين إلى الوطن، والرتاء والزهد والمدائح النبوية.

ويأتي الفخر في مقدمة هذه الأغراض، إذ يبش في كثير من قصائده يدفعه إلى اعتزازه بفروسية آبائه وفروسيته وقراءته في كتب الحماسة، ثم انتظامه في المدرسة الحربية وسلك الجيش فيما بعد ولعل خير ما نستشهد به على هذا الفخر رائيته التي يقول فيها:

وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت لسلطانة البدو والمغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر

إذا استل منهم سيد غرب سيفه
لهم عمد مرفوعة ومعامل
ونار لها في كل شرق ومغرب
وخيل يعم الخافقين صهيلها
معودة قطع الفيافي كأنها
وإذا كان البارودي رائد التجديد في العصر الحديث، فإن المدقق في شعره يرى أثر القدماء
واضحاً فيه.

- ز -

القديم في شعره

حاكى البارودي القدماء وعارضهم، وحاول أن يروض الشعر باستعارة بعض الأوزان والقوافي منهم وخاصة من شعراء العصر العباسي، وقد بلغ تأثره بالقدماء حداً جعله يستعير بعض ألفاظهم وتعابيرهم من مثل (العقيق - وادي الغضا - ذي سلم - ريح الصبا) وغيرها، وقد يستعير شطراً بكامله يضمنه منظومته، ونجد هذا خاصة في معارضاته ومنها قصيدته التي عارض فيها (عنتر بن شداد) في معلقته إذ قال:

كم غادر الشعراء من متردم ولرب تالٍ بذشأٍ ومقدم
ومنها أيضاً قصيدته التي عارض فيها المتنبي والتي مطلعها:

رضيت من الدنيا بما لا أوده وأي امرئ يقوى على الدهر زنده
فإذا تذكرنا أن مطلع قصيدة المتنبي هو:

أود من الأيام ما لا أوده وأشكو إليها بيننا وهي جنده
أدر كنا من أين أخذ الشطر الثاني لأحد أبيات هذه القصيدة حين قال:

وما أبت بالحرمان إلا لأنني أود من الأيام ما لا توده
وعارض كذلك قصيدة (أبي فراس الحمداني) التي مطلعها:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمر؟
فنظم على غرارها قصيدة مطلعها:

طربت وعادني المخيلة والسكر وأصبحت لا يلوي بشيمتي الزجر
وعارض الشريف الرضي في قصيدته:

لغير العلامني القلا والتجنب ولولا العلاما كنت في الحب أرغب
فقال في مطلع قصيدته:

سواي بتحنان الأغاريد يطرب وغيري باللذات يلهو ويعجب
وعارض قصيدة البوصيري (البردة) في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومطلعها:
أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلته بدم
فقال في معارضته لها:

يا رائد البرق يمم دارة العلم واحد الغمام إلى حي بندي سلم
وهناك معارضات كثيرة أخرى مبثوثة في ديوانه ويمتاز فيها كلها بأنه لا يقلدها تقليداً
عشوائياً، بل تظل شخصيته واضحة فيها، ولكن محفوظاته الكثيرة تفتقر إلى ذهنه عند النظم
فتجعله يتأثر بها.

ولا يقتصر القديم في شعره على المعارضات والترويض وهذه العبارة الأخيرة كثيراً ما يقدم
بها قصائده فيقول: (وقال يروض الشعر أو يروض القول) بل يشمل الموضوعات والمعاني،
والصور والتشابه والاستعارات التي كانت في الشعر القديم، إذ حاول أن يبيث فيها الحياة
ويبعثها من جديد، فإذا كان الشعراء القدماء قد وقفوا على الأطلال وحيوا الرسوم وتحذثوا
عن مظاهر البداوة من رياح وضياء وبروق وغيوم وكثبان رملية ورعيان، فقد تمثل شاعرنا
هذه المعاني القديمة كلها في قصيدته التي يقول فيها:

ألا حي من أسماء رسم المنازل وإن هي لم ترجع بياناً لسائل
خلاء تعفتها الرواس والتقت عليها أهاضيب الغيوم الخوافل
فلأياً عرفت الدار بعد ترسم أراني بهما كان بالأمس شاغلي
غدت وهي مرعى للظباء وطالما غنت وهي مأوى للحسان العقائل
وقد سرت في معارضاته فيه عروق من أبي نواس في خمرياته، ومن البحري في نسيبه ومن
أبي تمام في تصويره ومن أبي العتاهية في زهدياته، ومن ابن الرومي في هجائه ومن المتنبي في
شكواه من الزمان وحديثه عن الأخلاق والطباع، ومن المعري في نقده للحكام والساسة، ومن
أبي فراس والشريف الرضي في فخرهما المشتعل، وتلك مختارته شاهدة على اتصاله العميق
بالقدماء.

وهو في أغراضه الشعرية المتعددة يحاول بعث المعاني والصور القديمة بعثاً لا يقف عند حدود التقليد، بل يتجاوز هذا كله فيرد الشعر إلى أساليبه المشرقة وشبابه الناضر، مع ربط ذلك كله بعصره وقومه وشخصيته، وهكذا نراه يصل الماضي بالحاضر، والقديم بالجديد ولا أدل على هذا من قصيدته التي وصف بها القطار - وهو موضوع جديد - ولكنه أضفى عليه ما كان يضيفه القدماء على الفرس والناقة معاً من أوصاف، فراح يصور أنواع سيره البطيء والسريع تصويراً فيه الكثير من عبارات القدماء، وطرائق تعبيرهم فقال:

ولقد علت سرارة أدهم لو جرى في شأوه برق أو تعثر أو كبا
يطوي المدى طي السجل ويهتدي في كل مهمة يضل بها القطا
يجري على عجل فلا يشكو الوجى مد النهار ولا يمل من السرى
لا الوخذ منه ولا الرسيم ولا يرى يمشي العرضنة أو يسير الهيدبي
وهكذا يتضح لنا أن في شعر البارودي الكثير من عناصر الشعر العربي القديم، سواء كان ذلك في الأوزان والقوافي، أم في العبارات والألفاظ أم في الصور والأخيلة، ولكنه في كل ذلك بدا واضح الشخصية، قوي النظم مسيطراً على الأسلوب الفني الأصيل.

- ح -

الجديد في شعره

نقصد بالجديد في شعر البارودي النواحي التالية مما أضافه في الشعر القديم:

أ - ما أبدعه من أغراض لم تكن معروفة عند الشعراء القدماء الذين حاكاهم.

ب - ما كانت شخصيته وذاتيته فيه قوية بارزة وما فك قيود التقليد عنه من الشعر.

ج - ما يتصل بالعصر الحديث مما يشرك الشعب فيه، ويستنهضه به ليشأ من خصومه.

وقد ظل يحاول أن يتمثل الشعر العربي القديم ليعيد للشعر في عصره الحيوية والإشراق فاتكأ على وسائل التعبير القديمة ليعبر عن ذاته وعصره وقومه، وهكذا انطلق من مبدأ المحاكاة وترويض الشعر إلى التجديد، وصقل قريحته بالأدبين التركي والفارسي حين عاش في الأستانة فترجم بعض مقطوعات عن الفارسية، كما تركت هاتان اللغتان معاً آثاراً في شعره منها المبالغة، كما يقول مثال على ذلك ما قاله في وصف انهيار دموعه إذ يقول:

وما زاد ماء النيل إلا لأنني وقفت به أبكي فراق الحباب
أو قوله في فخره ببأس قومه:

إذا استل منهم سيد غرب سيفه تفرعت الأفلاك والتفت الدهر
أبدع البارودي في أغراض شعرية متنوعة هي:

١ - وصف الآثار المصرية والطبيعة المصرية والحياة المصرية: في كثير من قصائده يتحدث البارودي عن روضة المقياس وعن النيل وعن آثار الفراعنة، وأشهرها تلك القصيدة التي يصف فيها الأهرامات وأبا الهول، ويبرز فيها معاني العظمة الدالة على عبقرية الأسلاف وما تجلى فيها من إتقان التصوير وروعة الفن ومنها قوله:

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
بناء ان رداً صولة الدهر عنها ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر

أقاما على رغم الخطوب ليشهدا لبانيهما بين البرية بالفخر
فكم أمم في الدهر بادت وأعصر خلّت وهما أعجوبة العين والفكر
وبينهما " بلهيب " في زي رابض أكب على الكفين منه إلى الصدر
يقلب نحو الشرق نظرة وامتنق كأنه له شوقاً إلى مطلع الفجر

٢ - الوصف: من الأغراض الشعرية القديمة فالبحثري وصف قصر المتوكل وبركته وإيوان كسرى وغيره، لكن جدة الوصف عند البارودي في أنه أفرد لآثار مصر وطبيعتها وحياتها قصائد خاصة ولم يأت وصفها في مقدمة غرض من الأغراض ولا في ثناياه وكان مفتوناً بطبيعة بلاده يرى في كل جهة منها آية من آيات الجمال وما أكثر القصائد التي تطالعنا في ديوانه عن وصف الطبيعة، فهو يصفها في جميع أحوالها، فيقدم منها صوراً متعددة الألوان والأشكال إنه يصف مثلاً الطبيعة ضمن مجالس الأُنس فيقول:

شاق سمعي الغناء في رونق الفجر سر وسجع الطيور في العذبات
هو يوم تعطرت طرفاه بشمال مسبوكة النفحات
باسم الزهر عاطر النشرها مي القطر واني الصبا عليل المهاة
مسرح للعيون يمتد فيه نفس الريح بين ماضي وآت
ويصف النيل في قصيدة أخرى، فيستعير من القدماء تشبيهاً لهم واستعاراتهم ليفرغها على أوصافه كما يتأثر بالعرب فيلتزم فيها ما لا يلزم.

يقول متشوقاً إلى النيل حين كان في (كندي):

حبذا النيل حين يجري فييدي رونق السيف واهتزاز الفرند
تثنى الغصون في حافتيه كالعدارى يسحبن وشي الفرند
قلدتها يد الغمام عقودا هي أبهى من كل عقد وبند
كيف لا تهتف الحمام عليه وهي تسقى بها سلافة قند

٣ - تصوير المعارك والحروب: التي خاضها والتي تتم في معظمها عن تجربة نفسية حماسية، وقد رأينا بعضها حين تحدثنا عن مرحلة حياته التي قضاها بعد رجوعه من الأستانة وما نظمه في وصف حرب جزيرة كريت، والحرب الروسية العثمانية.

ولعل أهم ما يميز شعره الوصفي هذا، هو التصوير الواقعي (في بساطة وسلاسة وقوة دون الاعتماد على المحسنات البديعية ودون الإغراب في الخيال)، فضلاً عن ظاهرة واضحة هي اعتماده في التصوير على حاسة النظر أكثر من الحواس الأخرى فلو عدنا إلى وصف الحروب والمعارك لوجدنا هذه الظاهرة تتجلى بوضوح في قصيدته البائية التي عارض فيها الشريف الرضي والتي منها قوله:

وبحر من الهيجاء خضت عبابه ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
توسطته والخيل بالخيل تلتقي وبيض الطبا في الهام تبدو وتغرب
كما تتجلى هذه الظاهرة في قصيدته الثانية التي وصف فيها حرب جزيرة كريت ومنها قوله
عن المحاربين:

ملؤوا الفضاء فما يبين لناظر غير التماع البيض والخرصان
فالبر أكدر والسماء مريضة والبحر أشكل والرماح دواني
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمون بألسن النيران
حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت عيناى بين ربا وبين مجان
فإذا الجبال أسنة وإذا الرماح أعنة والماء أحمر قان
وهذه الظاهرة التي أشار إليها (محمد حسين هيكل) في مقدمة ديوان البارودي ليست وقفاً على الوصف، بل تبرز كذلك في أغراضه التي قلّد فيها القدماء وفي حنينه إلى وطنه وفي الغزل وغيره.

٤ - الشعر السياسي الوطني وحنينه إلى الوطن: تفاعل مع أحداث العصر، وشارك في الثورة العربية وتسلم مناصب عديدة، ثم كان نصيبه النفي الذي أبدع فيه شعر الحنين إلى

الوطن. يبدو أنه كان متمرداً على الظلم والاستبداد، متعطشاً إلى الحرية ولعل لنشأته وللوراثة
أثراً في ذلك، وهو الذي قال:

لا عيب فيّ سوى حريّة ملكت أعتّني عن قبول الذلّ بالمال
تبعث خطة آبائي فسرت بها على وتيرة آداب وآسال
وهو في بعض قصائده يستنهض قومه إبان الثورة العربية وقبل أن يتراجع وينصح رفاقه
بالعدول عنها، ويصمم بالعجز والضعف ويتحمس ويندفع ليحسبهم فيقول:

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة وفي الدهر طرق جمّة ومنافع
أصبراً على مس الهوان وأنتم عديد الحصا إني إليّ راجع
وكيف ترون الذل دار إقامة وذلك فضل الله في الأرض واسع
أرى أروساً قد أئعت لحصادها فأين ولا أين السيوف القواطع
فكونوا حصيداً خامدين أو افزعوا إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع
ويزداد الشاعر حماسة واندفاعاً ويرى أن ينبّه قومه إلى الخطر المحيط بهم وبوطنهم
ويحملهم مسؤولية دفع الظلم ومحاربة الظالمين، فيقول قصيدة يعارض فيها المتنبي:

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سبط عليه فإذا أضاع مجده
وأقتل داء رؤية العين ظالماً يسيء ويتلى في المحافل حمده
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه كذي جرب يلتذ بالحك جلده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش بها بطلاً يحمي الحقيقة شده

٥ - حنينه إلى الوطن: وهو أثر من آثار نفيه إلى سرنديب (سيلان) فقد زادت الغربة تعلقاً
بوطنه وحباً له فنظم قصائد كثيرة في هذا الغرض تتشابه معانيها، إذ يجيي فيها ذكرياته
السعيدة ويصف حاله وما آل إليه من حزن لبعده عن الوطن والأهل والأصحاب، ثم
يستسلم لليأس حيناً وللقضاء والقدر في غالب الأحيان، ولعل أروع قصائده في الحنين إلى
الوطن تلك التي يقول فيها:

هل من طيب لداء الحب أو راق
قد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقا
حزن براني وأشواق رعت كبدي
لا في سرنديب لي خل ألوذ به
أبيت أرعى نجوم الليل مرتفقا
ثم يقول متشوقاً إلى روضة النيل وهي مقر سكناه:

يا روضة النيل لا مسّتك بائقة
ولا برحت من الأوراق في حلل
أصبوا إليها على بعد ويعجبني
وهو في هذه الأبيات والتي قبلها يصور شوقه وحاله الحزينة ويأسه من العودة، ثم يرسل
تحياته إلى وطنه الذي خلف فيه ذكريات عزيزة عليه ويصبر نفسه على فراق وطنه وأحبته، وفي
نهايتها يستسلم لحكم الله وقضائه، وقد تجلت عواطفه ومشاعره مبثوثة في معظم الأبيات. مثل
هذا الحنين كان يعاود البارودي فيحس به حين يشارك في الحروب بعيداً عن وطنه لكن
الأسباب التي أدت به إلى النفي، هي التي زادت حنينه مرارة وأسى.

أما أغراض شعره الأخرى ومنها المدح ومدح النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، ثم الفخر
والهجاء والرثاء والحكمة والغزل والزهد فتصدر معظم معانيه فيها عن بواعث نفسه، وصدق
مشاعره وخلاصة تجاربه، وقد استطاع إجمالاً أن يفك قيود الشعر التي أثقلتته ويحرره من
الأغلال التي خنقته، وكانت محاكاته الأقدمين جديدة ومعارضته إياهم جديدة ورياضته
القول على مثاهم جديدة.

وإذا كان البارودي لم يعرف وحدة الغرض في القصيدة الواحدة فقد كان ينتقل من الغزل
إلى المدح إلى الفخر إلى الحماسة إلى الحكمة، كما كان يفعل البحري وأبو تمام والمتنبي وغيرهم
من كبار الشعراء، فذلك لأن رسالته لم تكن تجديد الشعر العربي في حياته المتدفقة الفيضة، بل
كانت بعث الشعر العربي من مرقدته وتمزيق الأكفان التي احتوته مئات السنين.

- ط -

منزلته في عصره وأثره في حركة الشعر

كان الشعر في عصر البارودي مكبلاً بقيود الزخرف والصنعة متردياً في هوة عميقة من الضعف وكان أكثر الشعراء يرددون ما قاله الأقدمون ترديداً ببغائياً أقرب ما يكون إلى اللغو والنظم، وظلت كذلك حال الشعر في البلاد العربية الأخرى حتى أتى له البارودي الذي انتشله من حال الضعف هذه ليسير به في مدارج القوة فإذا شخصيته تنمو وتبرز حتى تصبح واضحة للعيان لا في مصر وحدها، بل في البلاد العربية كلها، وكان ذلك عن طريق ما بثّه في الشعر من روح جديدة ودم جديد وأسلوب ناصع ظرف، فأضحى شعره مهوى أئدة الناس في عصره وتلمذ عليه كثير من الشعراء كشوقي وحافظ ومطران في مصر، والرصافي في العراق ومحمد البزم وخير الدين الزركلي وخليل مردم بك في الشام، حتى ليتمكن أن نسمي هؤلاء الذين ينتمون إلى مدرسته: شعراء النهضة والبعث الشعري أو شعراء (الكلاسيكية الجديدة) إذا صح التعبير.

وكان لكل من هؤلاء نصيب كبير أو صغير من التأثير به مع شيء التحوير والتبديل، وسنرى أن أقواهم وأعمقهم به تأثراً (حافظ إبراهيم) إذ عكف هو أيضاً على الشعر القديم يقرؤه ويحفظ الكثير منه حتى استوى لديه هذا الفن وإن لم يبلغ شأو البارودي في جودة الأسلوب، لكنه برز في الشعر الاجتماعي والسياسي الوطني، وكان لسان الشعب المتحدث باسمه في كل ما يعرض من أحداث كما أن شوقي تمثل طريقته وتأثر بأسلوبه فأخذ يقلده ويسير على خطاه في معارضته الأقدمين، حتى تمكن من أن يسير بالشعر خطوة جديدة حين أبدع المسرحية الشعرية التي لم يسبق إليها.

أما خليل مطران، فهو - وإن أسهم في تجديد الشعر العربي من جانب آخر حين تغنى بالحرية في قالب قصصي درامي، وأبدع في تصوير جوانب إنسانية - لكنه هو أيضاً كان يسير على خطة البارودي في أسلوب الصياغة إذ جمع بين المعاني الجديدة والأسلوب القديم.

ولو أمعنا النظر في شعرنا بعد البارودي لوجدنا أثره ما يزال ساري المفعول حتى عند شعراء المتأخرين قليلاً الذين دعوا إلى التجديد أمثال العقاد والمازني وعبد الرحمن شكري؛ لأن فك البارودي لقيود الشعر وزحزحته عن الصنعة والزخرف وجعله معبراً عن المشاعر الذاتية بأمانة وصدق مهد السبيل لهؤلاء وأولئك للسير بالشعر شوطاً أبعد في التجديد. وقد أخذت عليه بعض الباحثين زلات لغوية وقع فيها مثل استعماله كلمة (همامة نفس) بدلاً من (الهمة) ومثل تأنيث الفعل في قوله يصف الطبيعة:

سهو يوم تعطرت طرفاه بشمال مسكيه النفحات
كما أخذوا عليه أنه يسيء الانتقال من غرض إلى غرض، أو أن بعض قصائده يضم أبياتاً قوية وأخرى ضعيفة، وأنه قد يغرب في استعمال بعض الألفاظ العامية أحياناً، ولكن هذا كله لا يقدرح بشاعريته الفذة، ولا يقلل من منزلته الشعرية إذ لم يخل من ذلك أحد من الشعراء القدماء حتى المتنبي.

ومن المآخذ عليه أخيراً ما أشار إليه بعض الدارسين من سرقات شعرية كقوله مثلاً:

علي طلاب العزم من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر
وهو في لفظه ومعناه صورة عن قول أبي فراس الحمداني:

علي طلاب العزم من مستقره ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب
وهذا وغيره لا يلام البارودي عليه ولا يحط من قيمته؛ لأن روحه كانت متصلة بالشعراء القدماء، ولأنه كان لا ينكر تأثره بهم، بل كان يقدم هذه القصائد على أنها معارضة لقصيدة قديمة معروفة عند فحول القدماء، فكان رواتهم يعدونها من نوادر الخواطر ووقع الحافر على الحافر.

وهكذا نرى أن منزلة البارودي في الشعر العربي الحديث كانت سامقة عالية، إذ امتاز بوضوح الشخصية وصدق في التجربة وروعة في التصوير والتعبير حتى عُدَّ بحق حامل لواء التجديد في الشعر العربي الحديث.

الباب الثامن
النثر الفني
في العصر العثماني

الباب الثامن

الفصل الأول

أنواع النشر في هذا العصر

أولاً - الاهتمام بالنشر

ازدادت قيمة النشر على مر العصور، وكر الدهور، وأصبح يحتل مكانة كبيرة بين القول، وأشكال الخطاب، وقد تعلق بهذا اللون من أشكال الخطاب الأدبي معظم كتاب العربية في كل العصور، ومنهم الأدباء العرب في العصر العثماني حيث باشروه وسعوا إلى إجادته من خلال معايير الإجادة وكتبوا في معظم فنونه كالرسائل الديوانية والذاتية، والأدبية، والإجازات، والتقريظ، والمقامات الأدبية، و المواعظ، والأدعية التقوية، والخطب المتنوعة وعبروا عن الرسائل التأليفية الطويلة والرسائل التي تتضمن موضوعات الشعر، وترك لنا أدباء العصر العثماني قطعاً نثرية كثيرة متشابهة في (المضمون والأسلوب) يمكن لنا بعد دراستها أن نكتشف فيها حقيقة هذا النشر وصورته الواضحة التمثل في هذا العصر بكل تفاصيله، ومقارنته بالعصور السابقة من حيث الفنون والموضوعات الأسلوب وطرائق التعبير.

ثانياً - النشر الديواني

المستقرى لنصوص النشر الديواني، والباحث في هذا الفن يكتشف أن اتخاذ الدولة العثمانية للغة التركية لغة رسمية للدولة، قلل من عدد نصوص النشر الديواني؛ لأن مخاطبات الدولة كانت باللغة التركية، و ضعفت النشر العربي وقلت نصوصه حتى كاد يتلاشى، لولا أن الدولة العثمانية كانت حاضرتها تصدر بعض الرسائل الموجهة لحكام الأقاليم العربية بلغة العرب، لولا أن بعض الولاة العرب كانوا يصدرون رسائلهم باللغة العربية، وقد سعى كتاب النشر الديواني في مرحلة الحكم العثماني إلى تحقيق خصائص الكتابة الأدبية المعهودة في هذا الفن على اعتبار أن خصائص الكتابة النثرية في عهد المماليك والدول المتتابعة كانوا يؤكدون على خصوصية هذا النشر وبالأخص النشر الديواني، ولكن الأمر في العهود المتأخرة أخرج

النصوص الديوانية عن مفهومها الفني الأدبي، لأنه لم تضع ضمن عناصرها شيئاً من الطريقة الأدبية لكتابة الدواوين تنكّب كاتبو النثر الديواني طرائق النثر العلمي المتسم بالدقة في أداء المعاني والوضوح في معانيها.

ثالثاً - النثر الأدبي

١ - الإجازات:

الإجازة: هي شهادة علمية (في الأدب) يقدمها الأدباء للمتأديبين الذين يدرسون الأدب على أيديهم حين يحققون شوط الأديب الصاعد، وهذه الإجازات يكتبها الأدباء المعلمون بلغة بليغة تدلل على مقدرتهم الأدبية وإبداعاتهم الفنية، وإذا كانت الإجازات في الأصل ليست من الفنون الكتابية الأدبية، فإن كتابة عصر الدول المتتابعة والعصر العثماني قد أدخلها في الفنون الأدبية بسبب اتباع طرائق الأدب في كتابتها (فصاحة - بلاغة - إبداع) فهم يسعون إلى إنشاء هذه الإجازات بكل ما يستطيعون من بلاغة القول وفنون التعبير ليدلوا على قدرتها ومكانتها وبلاغتها في الأدب.

وقد مال كتاب الإجازات في العصر العثماني إلى:

- ١ - التوقيع في تقسيم الجمل.
- ٢ - تقطيع الجمل تقطيعاً فنياً.
- ٣ - استخدام السجع في نهايات الجمل.
- ٤ - استعارة عبارات تداولها أهل الأدب وتحاوروها.
- ٥ - استخدام الطريقة العلمية التي تزيد الأسلوب الأدبي وضوحاً.
- ٦ - إضفاء ظلال عاطفية على النص المكتوب.
- ٧ - منح النص فخامة تليق بمكانة صاحب الإجازة.
- ٨ - الإجادة في وصف الأثر في نفس المعلم.
- ٩ - الإطراء على صاحب الأثر.
- ١٠ - اتخاذ الإجازة مناسبة للإبداع.

١١ - ميل الأدباء إلى المبالغة في التعبير.

١٢ - فقدان النصوص المكتوبة للإقناع.

٢ - التقاريف:

التقريف: إنشاء نص صغير تعليقاً على نص آخر غالباً هو الإجازة، وهو في الأصل ليس فناً أدبياً، لكن أدباء عصر الدول المتتابعة عصر المهاليك أدخلوه في فنون الكتابة الأدبية، وكذلك أدباء العصر العثماني من خلال اتباعهم طرائق الأدب في كتابة هذا الفن. فتقريف الإجازة أو النص الأدبي طريقة لإبداع نص آخر يتأق كتابه في الكتابة فيه من خلال إنشاء بلاغة جديدة وتعبير مشرق لإظهار قدرتهم البلاغية ومكانتهم في العلم والأدب، وقد مال كتاب التقاريف في العصر العثماني في تقاريفهم إلى:

١ - التوقيع في تقسيم الجمل المقرظة.

٢ - تقطيع الجمل المقرظة.

٣ - استخدام السجع في نهاية الجمل المقرظة.

٤ - استعارة عبارات متحاورة لأهل الأدب في التقريف.

٥ - استخدام الطريقة العلمية في البلاغة الأدبية.

٦ - توضيح المعاني المقصودة.

٧ - إضفاء ظلال عاطفية على المعاني.

٨ - منح النص فخامة فنية.

٩ - إبراز مكانة صاحب الإجازة.

١٠ - الإجازة في وصف الإجازة في نفس المعلم.

١١ - الإطراء على صاحب الإجازة.

١٢ - استخدام التقريف مناسبة للإبداع.

١٣ - الميل إلى المبالغة.

الباب الثامن

الفصل الثاني

رسائل التأليف

١ - الرسالة:

ظاهرة من الظواهر الحياتية تكتب بأسلوب أدبي متميز تعبر عن ضرب من المشاركة في الحياة الاجتماعية والحياة العامة من خلال الكتابة الأدبية.

تتفاوت جودة هذه الرسائل التأليفية بتفاوت ثقافة الكتاب، وتباين بتباين مواهبهم؛ لأنها نوع من الكتابة ذات غرض نفعي وأسلوب أدبي غاية الكتاب منها الجمع بين التأثير العقلي والتأثير العاطفي والقدرة على الإبداع، ومن ميزات الرسائل التأليفية:

أ - اتخاذ الأديب الموضوع مناسبة للكتابة الأدبية.

ب - افتقار العلاقة في هذه الرسائل إلى الحيوية النابضة بالإبداع.

ج - العلاقة بين أسلوب النص وموضوعه فاترة.

د - العلاقة بين النص ومناسبته والدوافع إليه فاترة.

وقد استمر أدباء العصر العثماني في استخدام قالب الرسائل في مكاتبتهم العامة والخاصة والأدبية، وكثرت الرسائل في هذا العصر وتنوعت واختلفت أشكالها من حيث الطول والقصر والبلاغة والإسهاب.

٢ - أقسام الرسائل:

تقسم الرسائل في هذا العصر إلى:

أ - الرسائل الأدبية:

وقد كثر هذا النوع من الرسائل عند كتاب العصر العثماني بسبب:

١ - ضيق دائرة التفاعل بين الأدباء وسواهم.

٢ - افتقار الأدباء إلى قضايا كبيرة تثير اهتمامهم وتتحرك مشاعرهم للكتابة. لذلك استغرق أدباء هذا العصر في رصد علاقتهم ببعضهم في رسائل يتبادلونها في مناسبات مختلفة.

- خصائص الرسائل الأدبية:

اتخذت الرسائل الأدبية طريقة واحدة في أسلوبها ومنهجاً واحداً في بنائها، وشكلاً واحداً في أداؤها، فكانت:

- ١ - لا تقف على خصوصية الكاتب.
- ٢ - لا تحمل اتجاهات متباينة عند كاتبها.
- ٣ - تلاشي الحدود الفاصلة بين الكتاب.
- ٤ - بدت الرسائل باهتة في معظمها.
- ٥ - التوافق على صورة واحدة للرسائل.
- ٦ - عدم الخروج عن خطة هذه الرسائل.
- ٧ - إعادة النظر في الرسالة.
- ٨ - الحرص على إظهار الثقافة فيها.
- ٩ - الحرص على إظهار القدرة في استخدام المحسنات البديعية.
- ١٠ - الابتعاد عن الاسترسال والتلقائية.
- ١١ - افتقارها للحرارة والصدق الفني.

وكذلك كتب الأدباء رسائل ضمنوها أغراض الشعر، واستخدموها استخدام القصيدة، ومن هنا فإن ذلك يدل على أن أدباء العصر العثماني عانوا من ضعف في دواعي الإبداع الأدبي مما جعلهم يشغلون أنفسهم في كتابة الرسائل سواء أكانت ذاتية أو وصفية.

ب - الرسائل الذاتية:

تراسل أدباء العصر العثماني مع أمثالهم في كل ما تعرض لهم من مشاكل وعلاقات وتبدلات في الحياة والزمن وشغلوا أنفسهم في:

- ١ - المراسلة عند الافتراق.
- ٢ - المراسلة عند طلب الحاجات.
- ٣ - المراسلة عند التهنتة بسرور.
- ٤ - المراسلة عند التعزية والمواساة بحزن.
- ٥ - المراسلة عند الدعوات للمجالس.
- ٦ - المراسلة عند العتاب واللوم والتقريع والاعتذار.

ج - الرسائل المتضمنة أغراض الشعر:

كثر هذا النوع من الرسائل في هذا العصر؛ لأنه يتيح للأدباء فرصة في:

- ١ - التعبير بشكل أكبر عن مكنونات نفوسهم.
- ٢ - إظهار ثقافتهم الحياتية.
- ٣ - إظهار قدرتهم الفنية.
- ٤ - إظهار براعتهم في الكتابة الأدبية.
- ٥ - بناء الصفة الفنية المنتشرة في عصرهم بعيداً عن قيد الوزن والقافية.
- ٦ - جعلوا هذا النوع من الرسائل شكلاً تعبيرياً عن كل ما يخطر في بالهم.
- ٧ - ضمنوا رسائلهم كل الموضوعات التي كانت حكرراً على الشعر (مدح - هجاء - غزل - رثاء - وصف - ألغاز).
- ٨ - اتبعوا طرائق الشعر في التعبير.
- ٩ - وفروا ميزات أسلوب الشعر فيها.
- ١٠ - مالوا إلى التقطيع في الجمل.
- ١١ - مالوا إلى الموازنة في الجمل.

- ١٢ - أمّنوا الإيقاع الموسيقي للرسالة.
- ١٣ - أغرقوا في الخيال (تشبيه - استعارة - كناية).
- ١٤ - حاولوا نشر القصائد السابقة لهم.
- ١٥ - دخل الأدباء مع بعضهم في منافسات شديدة.
- ١٦ - حرص الأدباء في رسائلهم على اكتساب إعجاب مراسليهم واعترافهم ببراعتهم.
- ١٧ - محاولة تحقيق الصورة المثلّي للكتابة الأدبية.
- ١٨ - محاولة تحقيق الصيغة البديعية.
- ١٩ - استخدام المكونات التراثية لفن الكتابة.

د - الرسائل الوصفية:

انتشرت رسائل الوصف عند أدباء العصر العثماني وغلب الوصف على الرسائل باختلاف موضوعاتها فظهرت براعة الأدباء وقدرتهم التعبيرية والفنية وأفرغ الأدباء شحنات إبداعهم في هذا الفن وملؤوا الفراغ الذي شعروا به بسبب ضيق دائرة التلقي وانصراف الناس عن الأدب.

الباب الثامن

الفصل الثالث

فن الخطابة

أ - توضيح:

الخطابة فن قديم حديث استخدام من قبل الأدباء لأغراض اجتماعية وسياسية ودينية في عصر صدر الإسلام والعهد الراشدي والأموي؛ لأن معظم الخطباء في هذه العصور كانوا من ذوي البلاغة والفصاحة، ولكنها في العصور اللاحقة بدأت بالتراجع لأسباب عدة، وهي في عصر الانحدار والدول المتتابعة أضحى فناً ادبياً تحضر له ويكتب ويستنظره الخطباء، وكذلك في العصر العثماني.

ب - أنواع الخطب في هذا العصر:

تنوعت الخطابة في العصر العثماني وتلونت بحسب المعاش في ذلك العصر وإن نما بعضها واطمحل الآخر، ومهد هذه الأنواع:

أولاً - الخطابة الدينية بأشكالها المختلفة:

(خطب الجمعة - الأعياد - المناسبات الدينية) والتي كانت ترتجل أحياناً فوق المنابر مع وضوح في ضعف قدرة الخطباء على الارتجال مما دعا الكثير منهم إلى كتابة خطبة وحفظها مسبقاً، ثم تلاوتها على المنبر، وقد تجد الخطيب يقرأ خطبة مكتوبة على الورق حتى أن بعض الخطباء حفظ هذه الخطب في دواوين خاصة بعدد أسابيع السنة حيث تتناول كل خطبة الموضوع المناسب والموافق للجمعة المخطوب فيها.

ثانياً - وقد تميزت الخطابة في هذا العصر العثماني:

أ - جمود الخطابة عند شكل محدد وثابت.

ب - عدم اللجوء إلى الارتجال في الغالب.

- ج - عدم الحديث عن مشاكل العصر .
د - خوف الخطباء من الزلزل في خطبهم .
هـ - متابعة سابقهم في خطبهم .
و - توفير عناء البحث عن خطب جديدة الموضوع .
ثالثاً - خطة الخطبة الدينية في هذا العصر:
اتبعت الخطبة في هذا العصر المنهج التالي:

- ١ - مقدمة: حمد الله تعالى .
- ٢ - الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ٣ - عرض موضوع الخطبة .
- ٤ - الدعاء في الختام .

رابعاً - سلوك الخطبة الفني:

سلكت الخطبة في هذا العصر السلوك التالي:

- ١ - استخدام الأسلوب المصطنع في تأدية الخطبة .
- ٢ - استخدام الجمل القصيرة المصطنعة .
- ٣ - توظيف السجع في نهاية الجمل .
- ٤ - البساطة والوضوح في معاني الخطبة .
- ٥ - عدم الإسهاب في استخدام فنون البديع .

ج - خطب الكتب:

وهي المقدمات التي يكتبها مؤلفو الكتب في بداية كتبهم التي توضح:

أ - دوافع وضع الكتاب .

ب - طريقة بناء الكتاب .

ج - غاية الكتاب .

وقد أتبع الخطباء في مقدمات كتبهم طريقة ترغّب في قراءة هذه الكتب من خلال:

أ - استخدام مختلف فنون القول.

ب - إثبات علوّ باعهم في العلم والأدب.

ج - الاهتمام بصيغة هذه المقدمات.

فالقارئ أول ما يستقبل من الكتاب مقدمته، ومن واجب صاحب الكتاب أن يشد القارئ

لهذا الكتاب ليغريه بقراءته، من هنا اختلفت أساليب الكتاب في خطب كتبهم ومقدماتها:

أ - إطالة بعض خطب المقدمة بحسب شخصية المؤلف.

ب - إيجاز بعض خطب المقدمة بحسب شخصية المؤلف.

ج - تنوع أسلوب الأدباء.

د - الميل إلى الجزالة والفخامة.

د - تراجع الخطابة في هذا العصر

تراجعت الخطابة في العصر العثماني تراجعاً كبيراً لأسباب عدة:

١ - بعد الخطباء عن الارتجال.

٢ - ضعف السليقة اللغوية.

٣ - كون الحاكم (ال خليفة - الوالي) ليس من العرب.

٤ - وضعها في قوالب جاهزة.

٥ - الانكفاء عن إبداع الخطب.

٦ - تدني أسلوب أداء الخطبة.

الباب الثامن

الفصل الرابع

فن المقامة

أولاً - المقامة:

فن أدبي خالص وشكل من أشكال الأدب الخالص التي وضعت أصلاً في العصر العباسي لأغراض أدبية فارتقت وتنوعت في عصرها، ولكنها تراجعت في عصر الانحدار والعصر العثماني عما كانت عليه من مكانة عالية، وإن كان أدباء العصر العثماني قد كتبوا مقامات كثيرة ومتنوعة حافظ بعضها على الشكل القديم للمقامة (أسلوباً وهدفاً) وترك البعض الآخر نهج المقامة القديمة ولم يحقق منها إلا اسمها وأسلوبها فاستخدمت بقلب جديد:

١ - فقد استخدمت المقامة شكل الرسالة.

٢ - وصفت للانتقاد الساخر.

٣ - استخدمت في غرض الوصف كثيراً.

٤ - عبرت عن أغراض الشعر.

٥ - امتطت السمة القصصية.

٦ - التركيز على الفكاهة فيها.

ثانياً - ولقد تنوعت المقامات التي كتبها أدباء عصر الانحدار بين:

أ - المقامات التقليدية:

تابعت الهمذاني والحريري في نهجها وأسلوبها وموضوعها فوفرت عناصر المقامة الحقيقية: الراوي.

١ - بطل المقامة.

٢ - حكاية المقامة.

٣- الفكاهة في المقامة.

٤- العنصر التعليمي.

وقد ضمّن أدباء العصر العثماني مقاماتهم التقليدية صور عصرهم ومشكلاته سالكين في هذه المقامات السلوك التالي:

أ - اصطناع ضروب البديع.

ب - الإفادة من التراث في التعبير.

ج - تحميل المقامات إيجاءات مختلفة.

د - تحميل المقامات إشارات رمزية.

ب - المقامات الخيالية:

وهي نوع من المقامات يروي رحلة خيالية تخلو من عناصر المقامة حيث طفق الكتاب يكتبون ما يثير خيالهم، وما يخطر ببالهم طارحين أفكارهم بحرية متصرفين بكتاباتهم على النحو الذي يشاؤون ويقوم أسلوب هذه المقامة على:

١- الاعتماد على التراث.

٢- استخدام فنون الصنعة البديعية.

٣- المزوجة بين التراث والصنعة.

وربما يلجأ الأديب إلى الرحلات الخيالية ليقدم رأياً يعجز عن عرضه مباشرة أو يعجز عن التصريح به والدارس لمقامات العهد العثماني الخيالية يكتشف أنها كانت تقليداً لا أكثر يعبر عن خلو أذهان الأدباء من قضايا مهمة، وهم في اصطناعهم لهذه المقامات الخيالية إنما يريدون إثبات مهارتهم الأدبية

ج - مقامة المفاخرة:

وهي نوع من المقامات تحوي نصوصه مفاخرة بين متناظرين، وقد كانت سابقاً تسمى رسالة.

د - المقامة الوعظية:

وهي نوع من المقامات تحمل في معانيها صفة الوعظ من خلال قصة خيالية يسوقها الأديب لإيجاد عبرة من العبر أو حكمة من الحكم؛ لأن الوعظ المباشر قد يكون منفراً عند الكثير من الناس.

هـ - المقامة الوصفية:

وهي نوع من المقامات غايتها إثبات القدرة في فن الوصف، وهي أقرب إلى الرسائل منها إلى المقامات؛ لأنها لا تحقق من عناصر المقامة شيئاً اللهم إلا الاسم، وقد تميزت هذه المقامات بـ:

١ - اعتماد عناصر الوصف المعروفة شعراً ونثراً.

٢ - إثبات قدرة الأديب في الوصف.

٣ - إظهار الموهبة الوصفية للأديب.

ثالثاً: موضوعات المقامات:

تنوعت موضوعات المقامات في العصر العثماني وتصدرت متحدثة في مختلف النواحي:

١ - مقامات الوصف.

٢ - مقامات الرثاء.

٣ مقامات الغزل.

وهكذا فقد كتب أدباء العصر العثماني الكثير من المقامات التي لا علاقة لفن المقامة فيها إلا اسماً، وربما أرادوا أن يطوِّروا هذا الفن فلم يستطيعوا أو جانبوا الصواب فاستحالت نصوصهم إلى موضوعات باهتة تلاشت الحدود الفاصلة بينها وبين النصوص الثرية الأخرى.

الباب الثامن

الفصل الخامس

الأمثال والحكم

حاول الأدباء في العصر العثماني إطلاق أقوال مختصرة على سبيل المثل والحكمة مستخدمين الفنون البديعية الجديدة تحت مسمى (إرسال المثل) بعد أن كانت تجري عند القدماء عفو الخاطر دون تكلف أو تصنع ويأتي إعجاب أدباء العصر العثماني بهذا اللون من الحكم والأمثال من خلال ما خلفه ابن عطاء الله السكندري من حكم وأمثال وفلسفة وتصوف، وتأتي هذه الأمثال والحكم في هذا العصر من خلال تأمل الأدباء في حوادث الحياة، ومن خلال تجارب ذاتية وحصيلة ثقافية واطّلاع على علوم متنوعة، وتتميز هذه الأمثال والحكم بـ:

- ١ - يتألف كل فصل منها من عبارة مسجوعة.
- ٢ - يغلب على هذه العبارة جمل الشرط وجزاؤه.
- ٣ - تقترب العبارة في تقطيعها من الشعر.
- ٤ - تقلد هذه العبارة الأبيات المفردة المصرفة.
- ٥ - يغلب على هذه الجمل التوازن والقافية.
- ٦ - تحمل هذه العبارات التعبير الشعري.
- ٧ - يمكن وضع هذه العبارات في صورة الشعر.
- ٨ - الاعتماد على الصنعة البديعية خاصةً الجناس بأنواعه.
- ٩ - حوت هذه الجمل ألفاظاً من البيئة.
- ١٠ - تتوجه هذه الجمل للمجتمع نصحاً.
- ١١ - تعالج هذه العبارات الخلل الاجتماعي.
- ١٢ - مال الأدباء في هذه الجمل إلى المباشرة في طرح آرائهم.

١٣ - استخدام التكشيف الموحى في هذه العبارة.

١٤ - إظهار القدرة الراقية على الإبداع.

وقد استخدم أدباء العصر العثماني هذا النوع من الأمثال والحكم في:

١ - الهروب من قيود الفنون الأخرى.

٢ - الهروب من قيود الصفة المعقدة.

٣ - مجازة الشعراء في هذا اللون البديعي.

٤ - منافسة الشعراء في أشعارهم.

وما هذا التوجه عند الأدباء لهذا النوع إلا لأسباب متعددة:

١ - سهولة انتشار المثل والحكمة بين الناس.

٢ - سهولة التمثل بهذه الحكم والأمثال في أحاديث الناس.

٣ - سهولة حفظها عند العامة من الناس.

٤ - سهولة ترديدها بين الناس.

٥ - ظهور الأدباء بمظهر الحكمة.

٦ - هذا النوع يضع الأدباء بين كبراء العظماء.

الباب الثامن

الفصل السادس

النثر الفني الديني

اتجه الناس في هذا العصر إلى التدين والتعلق بالله تعالى بسبب معاناتهم السياسية والاقتصادية والحياتية، فعبّر الأدباء عن هذه المعاناة بنثر ديني كثرت نصوصه وفنونه، وقد جاء هذا النثر امتداداً لنثر ديني في عصر الانحدار والعصور السابقة فكثرت المدح النبوي والإشادة بآل البيت والأدعية والابتهالات، والصلوات التي أرادها أهل العصر تعبيراً عن معاناتهم، وقد تنوع النثر الديني حاملاً قضايا جديدة هي:

١ - المولد النبوي.

٢ - الأدعية.

٣ - الأذكار.

أولاً - المولد النبوي:

جمعت الموالد النبوية في العصر العثماني بين مدح النبي صلى الله عليه وسلم والتأريخ لحياته فكتب شعراً ونثراً، وقد يجمع بين الشعر والنثر، وقد تنوعت الموالد النبوية في طبيعتها وتوجهها:

١ - موالد تعتمد على التدقيق في الأخبار والأحاديث وفق منهج علم الحديث.

٢ - موالد أطلق واضعوها العنان لمخيلاتهم فعرضوا فيها الروايات الغيبية الغريبة واتسعوا في الأوصاف والمعجزات حتى خرجوا عن حد المعقول والمقبول شرعاً.

وكثرت الموالد النبوية في هذا العصر، وكان لكل طريقة صوفية مولدها ولكل بلد مولده الشائع فيه، وقد اتسمت هذه الموالد بـ:

١ - الاعتداد على التراث.

- ٢ - اصطناع فنون البديع .
- ٣ - اعتماد التقطيع في الجمل .
- ٤ - اعتماد التقسيم في الجمل .
- ٥ - اتخاذ السجع مذهباً .
- ٦ - توليفه للإنشاد بدل القراءة .

وهكذا اقتربت الموالد من عامة الناس وصارت من الأدب الشعبي

ثانياً - الابتهالات:

وهي نوع من الأقوال وصفت في الدواوين جامعة تمكّن المبتهل من العودة إليها حين يشاء أو أن يحفظ منها ما يشاء، وهي نوع من الدعاء يتوجه بها العبد إلى خالقه طلباً للخير ودفعاً للشر، وقد ركزت الفرق الصوفية على الأدعية كثيراً وكان لكل فرقة ابتهالاتها وأدعيتها الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها، كما أن خطباء المساجد وأئمتها ركزوا على هذه الأدعية والابتهالات يرددونها في صلواتهم من خلال مشروعاتها في السنة النبوية المطهرة الصحيحة، وقد تميزت هذه الابتهالات بأنها:

أ- موقعة.

ب- موزونة.

ثالثاً - الأدعية:

الدعاء هو حديث العبد إلى ربه بخشوع وصدق وحلاوة إيمان وحرارة توجه وخطاب، وقد انتشر الدعاء منذ عصر صدر الإسلام وبقي مستمراً حتى يومنا هذا، وقد استخدمه المتصوفون في العصر العثماني نظراً لإقبال الناس عليه فعرضوا عقائدهم ومشاعرهم من خلاله، مما جعل الدعاء يخرج عندهم من شفافته حيث تحول إلى نصوص أدبية مثقلة بالأفكار والعقائد؛ أما الأدباء فقد وصفوا أدعيتهم ضمن خطة تتمثل بـ:

١- فقرات قصيرة.

٢- جمل متلاحقة متوازنة مسجعة.

- ٣- حملوا الجمل طاقة إيقاعية تزيد من التأثير في المتلقي.
- ٤- تحميل الجمل الدعائية طاقات معنوية.
- ٥- تحميل الجمل الدعائية طاقات شعورية روحية.
- ٦- إيجاز الجمل بحيث يسهل ترديدها وحفظها.
- ٧- استخدام هذه الجمل في مجالس الذكر.
- ٨- استخدام هذه الجمل في الاحتفالات الدينية.

الباب التاسع
أعلام النثر الفني
في العصر العثماني

جمال الدين الأفغاني

وهو السيد جمال الدين الأفغاني الأصل مولود أسعد آباد سنة (١٢٥٤هـ) (١٨٣٨م) درس في كابل، ثم في الهند على علمائها ثم سافر إلى مصر وإلى الأستانة حيث قدّر رجال الدولة قدره وجعلوه أحد أعضاء مجلس المعارف فاجتهد في توسيع نطاقها. لكن أولي الأمر تخوفوا من حرية أفكاره فأجؤوه إلى هجر العاصمة والالتجاء إلى وادي النيل سنة ١٨٧١ فحل في القاهرة ضيفاً كريماً وانصب على العلوم العصرية حتى بلغ منها مبلغاً عظيماً.

وعرف بفيلسوف الشرق، فالتف حوله كل طالبي الترقّي والتحرر فكان يبعث فيهم بلهجته وخطبه وكتاباته روح محاربة الاستبداد فنفي إلى بلاده سنة ١٨٧٩ م فاحتل حيدر آباد وسكن في كلكتا في زمن الثورة العراقية. ثم سافر إلى أوروبا. وأنشأ في باريس مجلته العروة الوثقى مع صديقه الشيخ محمد عبده المصري ساعياً إلى توحيد كلمة المسلمين. ثم تنقل في البلاد الأوروبية إلى أن استقدمه ناصر الدين شاه إلى طهران وجعله وزير الحربية، فلم تطل مدته في تلك الوزارة فسافر إلى روسيا ورحل إلى باريس وشاهد معرضها سنة ١٨٨٩ م، وعاد إلى إيران بإغراء الشاه فغني بإصلاح أمورها.

خاف أرباب الدولة من تطرفه فأبعد مريضاً إلى حدود تركيا وسكن مدينة البصرة مدة إلى أن استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة سنة ١٨٩٢ وأسكنه في بعض قصورها فبقي فيها مكرماً إلى سنة وفاته بداء السرطان في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ م؛ أما آثاره الكتابية فهي مفرّقة في صحف زمانه. نشر منها الشيخ محمد عبده رسالته في نفي مذهب الدهريين، وقد أثنى عليها مراراً ونقلت عنها فصول شائعة في مناصبة هذا المذهب وبيان الشرور الناتجة عنه وفي تأييم زعمائه الكفرة كفولتير وروسو.

الشيخ محمد عبده

يعد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده صنوان في النهضة الأدبية التي حدثت في الشرق الإسلامي ولد الشيخ محمد عبده في أواخر سنة (١٢٦٧هـ) (١٨٥٣م) في شننيرا من مديرية الغربية في مصر ودرس مبادئ العلوم الدينية والفقهية في طنطا، ثم في الأزهر لكنه لم يجد في شيوخها وأساتذتها ما يأنس به عقله حتى قدم إلى مصر جمال الدين الأفغاني سنة (١٢٨٨هـ) (١٨٧٥م) فحضر دروسه مع بعض أدياء القاهرة وشغف بتعليمه وأخذ عنه المنطق والفلسفة وارتوى من روحه حتى قام مكانه بعد أن أبعده الأفغاني وعهد إليه التدريس في المدارس الأميرية فازدحم الطلاب لاستماعه، وحرر في الوقائع المصرية مقالات أثرت في مواطنه كان يدعوهم فيها إلى الإصلاح.

وفي تلك الأثناء وقعت حوادث عرابي باشا وحوكم هو بسببها وحكم عليه بالنفي. فجاء سورية وأقام فيها ست سنوات، شرح مقامات بديع الزمان وأحكم تفسير تلك الطرف اللغوية التي راجت رواجاً عظيماً فتكرر طبعها.

ثم سافر الشيخ عبده إلى باريس وفيها اجتمع بأستاذة الأفغاني فنشرا (العروة الوثقى) التي مع قصر زمانها أصابت بين المسلمين شهرة كبيرة. وكان الشيخ مدة إقامته في عاصمة فرنسا وقف على تمدن الغرب ورقية وحمود الشرق وخوله لاسيما بعد أن درس اللغة الفرنسية وأطلع على كنوزها الأدبية. فكان يتلهب غيرة لإصلاح أمور وطنه. ثم أجازوا له بالرجوع إلى مصر فقدرت الحكومة قدره فتعين مستشاراً في محكمة الاستئناف وعضواً في مجلس إدارة الأزهر. وأسند إليه أخيراً رئاسة الإفتاء في الديار المصرية سنة (١٣١٧هـ) (١٨٩٩م) فقام بواجبات منصبه أحسن قيام إلى سنة وفاته سنة (١٣٢٣هـ) (١٩٠٥م) وهو لا يزال يدعو إلى إصلاح الدين وذويه. وقد ألف كتباً عديدة أكثرها دينية كتفسير القرآن والرسالة في التوحيد. وبعضها منطقية وأدبية واجتماعية، ومما له كتابه الإسلام والنصرانية.

أبو الثناء شهاب الدين محمود أفندي الألوسي

ولد في بغداد في ١٤ شعبان سنة (١٢١٧هـ) (١٨٠٢م) وهناك توفي في ٥ ذي القعدة سنة (١٢٧٠هـ) (١٨٥٤م) كلف بالعلوم منذ حداثة سنه وبذل النفس والنفيس في إحراز جواهرها حتى أن رغبته في طلب المعارف شغلته عن حطام الدنيا وأنسته هناء العيش وملاذ الحياة، وبزر بالعلوم الدينية فصار إماماً في التفسير والإفتاء، وكان مع ذلك كاتباً بليغاً وخطيباً مصقفاً وفي (١٢٦٢هـ) (١٨٤٥م) سافر برفقة عبدي باشا المشير إلى الموصل ثم إلى ماردين فديار بكر فأرزوم فسيواس فالأستانة العلية، واجتمع حيث دخل بإعلام العلماء وأئمة الأدباء وكانوا يتهافتون إليه ليقتبسوا من أنواره ويغرقوا من بحاره. ثم عاد إلى وطنه معززاً ومدحاً بكل لسان مشمولاً بألطف الحضرة العلية السلطانية.

وكان جلالة السلطان عبد المجيد منحه الوسام المرصع العالي الشأن. فلما عاد إلى وطنه سنة ١٢٦٩ انقطع إلى التأليف. وفصل أخبار رحلته في عدة مصنفات منها كتابه (رحلة الشمول في الذهاب إلى إسمبول) طبع في بغداد سنة ١٢٩١ وأتبعه بكتاب (نشوة المدام في العود إلى بلاد السلام) ثم كتاب (غرائب الاغتراب في الذهاب والإقامة والإياب) ويدعى أيضاً بـ (نزهة الألباب) ضمه تراجم الرجال والأبحاث العلمية التي جرت بينه وبين حضرة السيد أحمد عارف حكمت بك شيخ الإسلام.

كان السيد محمود سريع الخاطر ونسيج وحده في قوة التحرير وسهولة الكتابة ومسارة القلم قيل: إنه كان لا يقصر تأليفه في اليوم والليلة عن أقل من ورقتين كبيرتين. وقد ألف كتباً عديدة في التفسير والفقه والمنطق والأدب واللغة كـ (شرح السلم) في المنطق. وكتاب (كشف الطرة عن الغرة) وهو شرح على (درة الغواص) للحريري.

ومن تأليفه (رسالة في الإنسان). وله (حاشية على شرح قطر الندى) لابن هشام ألفها وعمره لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة. وكتاب (المقامات) طبعه في كربلاء وكتاب (التبيان في مسائل إيران) وكتب أخرى غيرها. وكان له شعر قليل إلا أنه غاية في الرقة يذكر العراق في غربته:

أهيمُ بآثار العراقِ وذكره
وألثم إخفاقاً وطنَ ترابهُ
وأسهر أرعى في الدياتي كواكبا
وأنشقُ ريح الشرق عند هبوبها
وقال في وصف بغداد وفراقه لها:

أرضُ إذا مرّت بها ربحُ الصبا
لا تسمعنَ حديثَ أرضٍ بعدها
فارتها لا عن رضا هجرتها
لكنها ضاقت عليّ برحبها
ومن حسن قوله وصفه لشاعر سهل الألفاظ بعيد المعاني:

تتخيراً الشعراء إن سمعوا به
فكأنه في قربه من فهمهم
شجرٌ بدا للعين حسنُ نباته
وقال مستغفراً وقد افتتح به كتاب مقاماته:

أنا مذنبٌ أنا مجرمٌ أنا خاطئ
قابلتهنّ ثلاثهٌ بثلاثهٍ
هو غافرٌ هو راحمٌ هو عافي
وستغلبن أوصافه أوصافي

وكانت وفاة الشهاب الألويسي في السنة التي ذكرناها فرثاه قوم من الفضلاء كما مدحوه في حياته، وقد جمعت تلك المدائح في كتاب (حديقة الورود في مدائح أبي الثناء شهاب الدين محمود). وكان أولاده أغصاناً نضرة في تلك الدوحة الباسقة، سنذكرهم في وقتهم. واشتهر في زمانه أخواه عبد الرحمن وعبد الحميد فعرف عبد الرحمن بفصاحة لسانه وخطابه في الخطابة والوعظ، وكان يدرس العلوم الدينية في أكبر جوامع الكرخ إلى وفاته سنة (١٢٨٤هـ) (١٨٦٧م) وعمره نحو ثلاث وستين سنة.

عبد الحميد الألوسي

كان مكفوف البصر ولم تصده تلك العاهة عن طلب العلوم فأخذها عن أخيه السيد محمود الذي أجازته في المعقول منها والمنقول والفروع والأصول، فجعل يدرس في مدرسة بغداد المعروفة بالنجيبية ويتقاطر لاستماعه الناس حتى عليّة القوم، وفي مقدمتهم علي رضا باشا والي بغداد وله بعض مصنفات نثرية بليغة وقصائد غراء، منها قصيدة في مدح أحد مشايخه العظام أولها:

تنوح حمامات اللوح وأنوح وأكتم سري في الهوى وتبوح
وتعجم إن رامت أداء مرامها ولي منطقت فيما أروم فصيح
لها مقلّة عند التنائي قربة ولي مدمع يوم الفراق سفوح
إلى أن قال مادحاً:

فتى كلّه عفو ولفظ وعفة وعن زلة الشاني الحسود صفوح
حليم وهل كالحلم في المرء زينة سموح وذو الشأن الجليل سموح
وفارس فضل لا يجازيه عارف وأنى يجاري العاديات جموح
يفوح بأفواه العدا نشر فضله كما فاح نشراً في المجامر شيخ
لقد عطّر الأرجاء منك الفضائل فوصفك مسك في الأنام يفوح

ومن نثره قوله يصف الأولياء: لقد فاز قوم عاملوا الله بالإخلاص والصدق، وعاملوا الناس بخفض الجناح وحفظ الوداد مع اللين والرفق، تحملوا من أجله ألم الأذى والمشاق، فأزالوا بأنوار شهود جماله عن بصائرهم حجب العوائق الإنسانية، وتحملوا إذا أذاقهم الورى مر المرء والشقاق، فأماط بعذوبة أنسه ووصاله عن رقابهم ريق العلائق النفسانية، أعرضوا عن الدنيا وأعرضوا في طلب الأخرى حيث علموا بأن الأولى والأخرى السعي في تقديم

الباقية على الفانية. فأنحلوا الأجسام بالصيام والقيام، لما أن حلاهم شرب صافي المدام...
فرضوا على نفوسهم القناعة والصبر، ورضوا عن هذه الدنيا بالقليل النزر. وراضوا زكي
أنفسهم عن النفس جواهرها وأعراضها، ترفعوا عن الشكوى وتمسكوا بعرى التقوى؛ لأنها
الركن الأوفى والسبب الأقوى، فانجابت عن قلوبهم غمائم آلامها وأمراضها.
وكانت ولادة السيد عبد الحميد سنة (١٢٣٢هـ) (١٨١٧م) وطالت حياته ولم نقف على
سنة وفاته.

تواصل أعمالها بنشاط.

الشيخ أبو البركات عبد الله السويدي

الشيخ أبو الخير عبد الرحمن زين الدين البغدادي السويدي، ابن أبي البركات، كان ذا باع طويل في العلوم الدينية واللسانية. فأرخه أخوه الشيخ أحمد السويدي بقوله من أبيات:
وفارقنا فرداً فقلتُ مؤرخاً أبو الخير في أزكى الجنان نزيلُ
وهو صاحب المؤلفات الأدبية العديدة كـ (شرح دلائل الخيرات) وكتاب (مقامات بليغة) و (الأمثال السائرة) و (الرحلة المكية) توفي سنة (١١٧٠هـ) (١٧٥٦م) وكان الشيخ أحمد المذكور إماماً في التصوف، وقد رد على الملحدين بكتاب سماه (الصاعقة المحرقة في الرد على أهل الزندقة). توفي سنة ١٢١٠، وكان مولده سنة (١١٥٣هـ) (١٧٤٠ - ١٧٩٥م).

الشيخ علي ابن الشيخ محمد سعيد السويدي

المتوفي سنة (١٢٣٧هـ) (١٨٢٢م) له كتاب في تاريخ بغداد وقد رثاه شاعر بأبيات ختمها بهذا التاريخ:

مذُ وُسِّدَ اللحدَ نادانا مؤرخهُ إنَّ المدارس تبكي عند فقد علي
ومنهم أيضاً الشيخ أبو الفوز محمد أمين السويدي أحد كبار الكتبة في بغداد، وله مؤلفات
جليلة في عدة فنون منها كتاب (سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب) الذي نشر بالطبع،
وقد مر لنا وصفه وكتاب (الجواهر واليواقيت في معرفة القبلة والمواقيت). وكتاب (رد على
الرافضة). و (رسالة في الواجب والممكن). وله (شرح تاريخ ابن كمال باشا) مع نظم لطيف.
كانت وفاته سنة (١٢٤٦هـ) (١٨٣٠م). واشتهر من السويديين في العهد الذي وصلنا إليه
الملا نعمان السويدي ابن الشيخ محمد سعيد بن أحمد وهو خاتمة السويديين توفي في رجب سنة
(١٢٧٩هـ) (١٨٦٣م).

البيتوشي

هو ابن محمد عبد الله بن محمد الكردي البيتوشي من كبار أدباء بلاده. ولد في بيتوش من قرى العراق سنة (١١٦١هـ) (١٧٤٨م) وجدّ في طلب العلم ثم تقدم بغداد طلباً لمعاش وارتحل منها إلى بلدة الأحساء فابتسم له الدهر وحسنت حاله واشتهر صيته، وانقطع إلى التأليف في الصرف والنحو ونظم كتاب كفاية المعاني وشرحه وذيل شرح الفاكهي على قطر الندى لابن هشام. وله نظم حسن منه قوله متشوقاً إلى وطنه:

ألا حيّ بيتوشاً وأكنافها التي يكاد يرّوي الصاديّات سراها
بلادها حلّ الشباب تماني وأول أرض مسّ جلدي تراها
لقد كان لي منها عرينٌ وكان من مقامي لي سُحب سُكوب زباها
ولم تشب لي إن ينبُ يوماً بأهله مكانٌ ولم ينعق عليّ غرابها
توفي البيتوشي سنة (١٢١٣هـ) (١٧٩٨م). وكان الأحقّ بنا أن نذكره في الأبواب السابقة فأثبتنا أخباره هنا بقيّة أفضل العراق، وكذا فعلنا بالشيخين الوارد ذكرهما.

(الشيخ عثمان بن سند البصري الوائلي) أصله من النجد فسكن البصرة، وكان يتردّد كثيراً إلى بغداد واشتغل بفنون لسان العرب وكان له في اللغة باع طويل وألف عدّة تآليف مفيدة منها كتاب في تاريخ بغداد أرّخ فيه ما وقع في زمانه من الوقائع وسماها (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) وقد طبع مختصره في بمبي سنة ١٣٠٤. ومن تآليفه منظومة في علم الحساب ونظم قواعد الإعراب والأزهرية ومغني اللبيب. وله رسائل أدبيّة كفاكهة المسامر وقوّة الناظر. ونسات السحر وروضة الفكر. وكانت له شهرة عظيمة في البصرة ونواحيها يُقبل كلامه جميع أهاليها. توفي سنة (١٢٥٠هـ) (١٨٣٤م).

محمد الأخفش

هو محمد سعيد أفندي البغدادي الشهير بالأخفش. قرأ على العلامة الألويسي، وشرح الألفية في النحو للإمام السيوطي. وكان محباً للآداب وله شعر حسن أخذته يد التلف، وكان كثير المزاح واللطائف توفي سنة نيف وثمانين بعد المئتين والألف (١٨٦٣ م). ومنهم الشيخ جمال الدين الكواز كان أصله من الحلة ويرتزق بحرفة الكوازة إلا أنه كان مشغولاً بالآداب خفيف الروح حسن المحاضرة، وله شعر كله في الغزليات، وقيل: إنه نظم الشعر قبل البلوغ. توفي في الحلة سنة (١٢٧٩ هـ) (١٨٦٢ م). ومنهم الشيخ عيسى البنديجي هو أبو الهدى عيسى أفندي صفاء الدين البنديجي أصله من بنديج على حدود بلاد العجم فسكن بغداد ودرس العلوم اللسانية والفقهية والأدبية حتى اشتهر فيها وكان ذا تقوى وصلاح، ودرس زمناً في مدرسة داود باشا وجعل رئيس المدرسين. ومن تأليفه كتاب (تراجم من دفن في بغداد وضواحيها) توفي سنة (١٢٨٣ هـ) (١٨٧٦ م).

مارون النقاش

هو مارون بن إلياس بن مخائيل النقاش ولد في صيدا سنة (١٨١٧) م ثم انتقل مع والده إلى بيروت وانكب على دروس اللغات والآداب العربية حتى حذق فيها وأخذ عن المرسلين اللاتينيين مبادئ اللغتين الفرنسية والإيطالية. وكان مارون مع سعة علمه فاضلاً تقياً متشبهاً بالدين مثابراً على تعاليمه وقد جعلته الحكومة السننية باشكاتباً لدواوين (كمارك) بيروت وملحقاتها. ثم تجول مدة في القطر المصري واجتمع بأدبائه ثم ساح في أنحاء أوروبا ورجع مغرى بفن التمثيل فعرب عدة روايات وسعى بتشخيصها، وكان أول من مهّد الطريق لهذا الصنف من الملاهي في هذه البلاد.

وقد طبع أخوه نقولا المحامي الشهير قسماً من رواياته بعد وفاته في كتاب سماه (أرزة لبنان) يحتوي روايات البخيل والمغفل والحسود هذا فيها مارون حذو الرواية عند موليار الفرنسي وأودعها كثيراً من العادات الشرقية. وجاراه في عمله أخوه نقولا المذكور وسليم ابن أخيه خليل، فراجت بذلك سوق الروايات ويا ليتها كسدت مع كثرة مضارها وقلّة من يراعون فيها الأدب الصالح. ثم سافر مارون النقاش إلى طرسوس للمتاجرة وفيها كانت وفاته سنة ١٨٥٥ فقال أخوه نقولا يرثيه:

بدر هوى لا بل ذوى	غصنٌ وذا مرقمٌ ذؤ
نقاشٌ علمٍ سيد العـ	لم ارتضى يسعدُه
يا رحمة المولى على	ماروننا تعضده
ويصبُّها طبل غيها	أرخ وتغمدُه

ثم نقلت بعد ذلك رفات المرحوم إلى بيروت ودفنت فيها سنة (١٨٥٦) فقال شقيقه:

ناديتُ مذ عاد سؤلي منتهى الأملِ	طرسوسٌ لاناقتي فيها ولا جملي
عودا كبدٍ تولاهُ الخسوف لدا	هاقد أرختُ سناهُ غير مكتملِ

وكان مارون صديقاً للشيخ ناصيف اليازجي يتناوبان على الرسائل الودية الأدبية، منها رسالة وجهها الشيخ ناصيف إلى مارون إذ كان في طرسوس أولها:

ماذا الوقوف على رسوم المنزل هيهات لا يجدي وقوفك فارحل
قال فيها:

يا أيها النحريرُ جهبذُ عصره إنَّ المَقْدَمَ للحكيم إفادةٌ
بَعْدَ المزارِ على مشوقٍ لم يكن وختمها بقوله:

إن كان قد بَعْدَ اللقاء لعلّة فأجابه مارون بما مطلعة:

وردت إليّ من المقام الأفضّل إلى أن قال:

يا من إذا سمح الزمان بنعمةٍ كلُّ الرجال إذا مضوا يُرجى لهم
أبقاك نوراً في الظلام لينجلي جاريتي فقصرتُ دونك همّة
بدلٌ سواك فلست بالمُسْتَبَدَلِ إنَّ الضعيف مقيّداً بلسانه
حتى عجزتُ فقد يحقُّ العذري فلما نعي إلى الشيخ صديقه بعد أشهر نظم في رثائه قصيدتين من أجود مراثيه قال في
الواحدة:

مات الحبيبُ الذي مات السرور به من القلوبِ وعاش الحزن والضَّرمُ
قد كنت أشكر بعباد الدار من قَدَمٍ فحبّذا اليوم ذاك البعد والقَدَمُ
ومنها:

أيُّ الفضائل ليست فيك كاملةً وأيُّ عيبٍ تراه فيك يُتَّهمُ

والحلم والحزم والإحسان والكرم
والشعرُ يرثيك حتى تنفذ الكلمُ
أقلام والصحفُ والآراء والهممُ
وكلُّ ديوانٍ قوم فيك ينتظمُ
وفي ختامها:

فيك التُّقى والنقا والعلم مجتمعُ
نرثيك بالشعرِ يا نقاشَ برده
تبكي عليك القوافي والمحابر وال
وكلُّ ديوانٍ شعرٍ كنت تنظمه
وفي ختامها:

نلتَ البقا حيث لا شيبٌ ولا هرمُ
بالخير في طاعة الرحمان تُحْتَمُ

إن كنت قد سرت عن دار الفناء فقد
إن السعيد الذي كانت عواقبه
ومما قال في المراثية الثانية:

منا كما نختار نحن فما اعتدى
كانت لبهجتها الدراري حُسدًا
لصُّ المنية خاطفًا متمردًا

الموت يختار النفس لنفسه
وقد نال منّا درة مكنونة
كنزٌ ذخرناه لنا فاغتاله
وختمها بهذا التاريخ:

أاريخ ذكرراً في القلوب مخلّدا
وكذلك رثاه الشاعر المفلق أسعد طراد بقصيدة طنانة أولها:

لو غبت عن نظر فقد خلّفت بالتد
وكذلك رثاه الشاعر المفلق أسعد طراد بقصيدة طنانة أولها:

أما تراه بربك العجب والعبرا

دهرٌ يغرُّ فخذ من دهرك الخورا
وختمها بتاريخ هذا منطوقه:

فإنه في نعيم الله قد حضرا
ولمارون النقاش ما خلا رواياته قصائد متفرقة وفقرات ورسائل جمع أخوه قسماً منها في آخر
كتاب (أرزة لبنان) منها منظومة في نحو مئتي بيت علم العروض والقوافي. ومن نظمه قصيدة
قالها في الشاعر الفرنسي دي لامرتين لما زار الربوع السورية دعاها (كوكب المغرب). ومنها أيضاً
قصيدة تهنته رفعها إلى سعيد باشا خديوي مصر سنة (١٢٧٠هـ) (١٨٥٣م) أولها:

لو غاب قُل في السما تاريخه سيرى
ولمارون النقاش ما خلا رواياته قصائد متفرقة وفقرات ورسائل جمع أخوه قسماً منها في آخر
كتاب (أرزة لبنان) منها منظومة في نحو مئتي بيت علم العروض والقوافي. ومن نظمه قصيدة
قالها في الشاعر الفرنسي دي لامرتين لما زار الربوع السورية دعاها (كوكب المغرب). ومنها أيضاً
قصيدة تهنته رفعها إلى سعيد باشا خديوي مصر سنة (١٢٧٠هـ) (١٨٥٣م) أولها:

وسعدُ سعيد مصر له خلودُ
له إذ فاض من كفيه جودُ

لسعدُ سُعود من سلفوا حدودُ
أتاه النيل معترفاً بفضلٍ

فهذا حكمه مدُّ وجرُّ وهذا حلمه طام مديدٌ
فقد بلغت مناقبه كمالاً ومهما ازداد مدحاً لا يزيدُ
وكتب من الإسكندرية مجيباً على قصيدة لخورى يوسف الفاخوري معلمه:

هل هلال هل أم أهل الكرم نثروا التبر على خط القلم
إلى أن قال:

أي أبي الروحي ولولا لائمي قلت من يشبه أباه ما ظلم
فهو بحر نلت من فيضانه وأنا تلميذ ذيك العلم
مخزن العلم وفي تدريسه معدن الحلم وكلي الهمم
قد كساني ثوب تعليم بما فتح الله عليه وقسم
لست أنسى جوده حاشا ولم أنس أياماً تقضت في نعم
وللمرحوم عدة تواريخ منها تاريخ على لسان أسعد ابن أخيه حبيب ومات صغيراً سنة

:١٨٤٢

إني هلالٌ قد دنوت من الثرى قبل أن أتمم فهكذا ربي أمر
لكن لعمرى لم أغب عن منزلي إلا لأشرق في النعيم كما القمر
وكما روى النقاش نقش تأريخي لأفوز أسعد بالسعادة عن صغر
(١٨٤٢م).

ومنها قوله مؤرخاً لوفاة البطريك يوسف الخازن وارتقاء خلفه غبطة السيد بولس مسعد
سنة (١٨٥٤):

في أفق كرسي أنطاكية عجبٌ بدرّ تواری وبدرّ فوق سدّته
إن غاب ذاك وأضنانا بعبيته فتاب هذا وأشفانا بنوبته
دعا الإله لذاك المرتضى خلفا أرخت بولس مختاراً لدعوته

رفاعة بك الطهطاوي

كان رفاعة بك من أشرف طهطا إحدى مدن الصعيد ويرتقي نسبة إلى فاطمة الزهراء، ولما ولد سنة (١٢١٦هـ) (١٨٠١م) كان الدهر أخنى على أسرته فذاق في حداثته مرائر العيش، ثم انتقل بعد وفاة والده إلى القاهرة سنة (١٢٢٢هـ) (١٨٠٧م) وانتظم في سلك طلبة الأزهر وطلب العلوم برغبة حتى روي منها وأحبه أستاذه لاجتهاده وقدمه. ونما خبره إلى محمد علي باشا إمام الدولة الخديوية فأرسله مع غيره من الشبان إلى فرنسا ليتلقوا فيها العلوم الأوروبية فدرس اللغة الفرنسية حتى أحسن فهمها واستقى من مناهل المعارف الغربية ما استلقت إليه الأنظار، ونقل كتاباً فرنسياً وسمه بـ (بقلائد المفاسر في غرائب عوائد الأوائل والأواخر) فكان ذلك داعياً لترقيته في المناصب. فقلده محمد علي وظيفة الترجمان في المكتب الطبي الذي أنشأه في جوار القاهرة سنة (١٢٤٢هـ) (١٨٢٦م) فنقل إلى العربية عدة تآليف إفرنجية مستحدثة. ثم عرّب في مدرسة الطوبجية كتباً هندسية وغيرها. وفي (١٢٥١هـ) (١٨٣٥م) ندبه صاحب مصر إلى رئاسة مصر الألسن الأجنبية التي عرفت بمدرسة الترجمة فأحسن تديرها حتى بلغ عدد تلامذتها (٢٥٠). فجازاه الخديوي بمنحه رتبة قائمقام، ثم رتبة أميرالاي. وأرسل مدة إلى الخرطوم لنظارة مدرستها وتولى نظارة المدرسة الحربية في مصر. ولم يزل يتقلب في المناصب وإدارة المدارس والتعليم والكتابة. وكان رفاعة بك لا ينقطع يوماً عن التأليف أو الترجمة.

وهو الذي باشر أول جريدة عربية في بلاد الشرق وهي الوقائع المصرية سنة (١٢٤٨هـ) (١٨٣٢م). ثم تولى في آخر حياته إدارة جريدة روضة المدارس. ولرفاعة بك نحو عشرين كتاباً بعضها من تأليفه كرحلته إلى باريس و (مباهج الألباب المصرية) وكتاب (تاريخ مصر الحديث) وأكثرها من ترجمة كـ (جغرافية ملطبرون) و (أخبار تليهاك) و (هندسة ساسير) و (رسائل طبية) وله غير ذلك من التأليف والمقالات والمنظومات التي لم يطبع منها إلا القليل.

وقد رأيناه كثير التصرف في ترجمة كتبه إلا أنه سبق أهل وطنه بتعريب التآليف الغربية فنال فضلاً بتقدمه. وكانت وفاته سنة (١٢٩٠هـ) (١٨٧٣م) فرثاه الحاج مصطفى أنطاكي الحلبي بقصيدة مطلعها:

ألا لَطَرَفَ المجد دام ودامعُ على وجنة العلياء هام وهامعُ
إلى أن قال مشيراً إلى فهمي أفندي نجل المتوفى:
وكادت تميذُ الأرض لو لم يكن بها له خلفٌ يجيي المآثر بارعُ

أحمد فارس الشدياق

كان مارونياً لبناني الأصل مولده في عشقوت سنة (١٨٠٤) ثم انتقل إلى والديه إلى ساحل بيروت سنة (١٨٠٩) فسكن الحدث ودرس مبادئ العلوم اللسانية في عين ورقة، ثم قصد القطر المصري فأتقن فيه العربية وجعل يكتب في أول جريدة ظهرت هناك أي الوقائع المصرية وفي سنة (١٨٣٤) دعاه المرسلون الأميركان إلى مالطا وولوه إدارة مطبعتهم فتظاهر بالدين البروتستاني وخدم الرسالة الأميركية بنشاط وطبع في مالطا بعض مصنفاته وألف هناك كتابه الموسوم بـ (الواسطة في معرفة مالطا) ثم تجول مدة في أنحاء أوروبا وخصوصاً في فرنسا وإنجلترا، فأكرم أهل تلك البلاد مثواه، وصنف حينئذ كتابه (الفارياق) الذي لم يرع فيه جانب الأدب وشفعه بكتاب آخر أجدى نفعاً وأصوب نظراً دعاه (كشف المخبأ عن أحوال أوروبا) واشتغل في لندرا في تعريب ترجمة التوراة فزادت بذلك شهرته.

ولما جاء باي تونس أحمد باشا زائراً مدينة باريس مدحه الشدياق بلامية جارى فيها لامية كعب بن زهير فأعجب من حسن نظمه ودعاه إلى خدمة دولته في تونس فلبى دعوته ورحل إلى المغرب، وكان هناك محرر جريدة الرائد التونسي.

وفي مدة إقامته في تونس سُئل إليه أعيانها بأن يعتنق الدين الإسلامي فأسلم. وفي سنة (١٢٧٤هـ) (١٨٥٧م) طلبته الصدارة العظمى إلى الأستانة، وعهدت إليه تصحيح مطبوعاتها بضع سنوات. وهناك باشر السنة (١٢٧٧هـ) (١٨٦٠م) جريدته الشهيرة بالجوائب فظهرت ٢٣ سنة بإنشائه وإنشاء ولده سليم إلى سنة ١٨٨٤، فأبطلت وحصلت بينه وبين شيوخ الإسلام منافرات فنسبوه إلى المرء في دينه الحديث.

وكانت وفاة أحمد فارس بعد ذلك بثلاث سنوات توفي في الأستانة سنة ١٨٨٧، ثم نقلت رفاتة إلى لبنان كما أوصى قبل موته فرثاه شعراء زمانه. وقد هجاه بعض مواطنيه بهذا التاريخ:

يا مَنْ رحلتَ إلى الجحيم مسوكراً لم يبقَ بعدك للسفاهة باقٍ

ناداك إبليسُ الرجيم مؤرخاً هتتت بأحمد فارس الشدياق
 وكانت امرأة فارس الشدياق من بيت صولا تدعى وردة. ولأحمد فارس مؤلفات جليلة
 غير التي ذكرناها أخصها (سر الليال في القلب والإبدال) على شكل معجم لم يتمه.. ثم
 (الجاسوس على القاموس) انتقد فيه على القاموس الفيروزأبادي. وكتاب (غنية الطالب ومنية
 الراغب). وكتابان في تعليم اللغتين الإنكليزية (الباكورة الشهية) والفرنسية (السند الراوي)
 وردود على انتقادات الشيخ إبراهيم اليازجي اللغوية.

وبهمة المترجم طبعت في مطبعة الجوائب عدة كتب أدبية قديمة استخرجها من مكاتب
 الأستانة فنشرها بالطبع بالحرف الإسلامبولي المشرق. ومن مآثره أيضاً عدة قصائد
 ومنظومات طبع منها نبذة في (٢١٩) صفحة سنة (١٢٩١). فمن أقواله الحسنة ما وصف به
 الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا. وهذا مطلع تلك القصيدة التي تزيد عن مئة بيت:

أصبيت فرنسا بالرجال والمال	فيها ويحها من بعد عز وإقبال
أعدت جيوشاً للقتال وجهزت	بوارج حرب في البحار كأجبال
وقالت إلى برلين يا جندي انقروا	فتلك التي قد كدرت صفو أحوالي
وتلك التي قد زاحمتني على العلا	ولم تك قبل اليوم تخطر بالبال
وصولوا على جرمانيا كلها فقد	أراها بدا منها تحاول إذلاي
فلي قيصر قرم جليل تهابه	جميع ملوك الأرض هيبة رئبال
إذا أنذر الأملاك حرباً تزلزلت	ممالكهم من بأسه أي زلزال

وقال في مطاردة الألمان لنابوليون وفي موقعة سيدان وخلع الإمبراطور:

فطارده جيش العدو معقبا	قولي إلى شالونَ يمزع كالرال
ومنها إلى سيدان بالجيش كله	عقيب معاناة وبؤسى وأجال
وذلك حصن عند بلجيكا حوله	ربا وتلال جذا الورز العالي
ولكنهم ناوا سفاهاً عن الربا	فحلّت بها الجرمان من دون إمهال

هنالك عمّ الويلُ والشُرُّ والرّدى
وتبضيّع أرابٍ وتقطيع أوصالٍ
وبزّتهمُ الجرمانُ فاستسلموا لهم
فلم يبقَ من ذا الجيشِ أجمعٍ راجلٌ
فلما درت باريسَ ذا الخطبِ أعولت
وقالت منتني دولةٌ قيصريةٌ
وإنّ صلاحي دولةٌ جمهريةٌ
فنادت بخلع الإمبراطور وابنه
وختمها بهذا البيت الحكمي المقتبس من المزامير وهو نعم ختام:
إذا لم يكن للمرء من ربه هدىً
فلا شيء يهديه من القيل والقال

إبراهيم بك المويلحي

ولد في مصر سنة (١٢٦٢هـ) (١٨٤٦م) وتوفي سنة (١٣٢٢هـ) (٢٩/ك/٢ / ١٩٠٦م) تقلب في عدة أعمال وغلب عليه الأدب والسياسة فخدم وطنه مصر في أيام الخديوي إسماعيل باشا ورافقه بعد استقالته إلى أوروبا فكان أمين أسراره وسكن مدة باريس ونابولي معه، ثم تردد مراراً إلى الأستانة فحظي بالنعمة السلطانية والرتب عند عبد الحميد.

أنشأ عدة جرائد مثل الخلافة في نابولي والرجاء في باريس ونزهة الأفكار ومصباح الشرق في القاهرة، وله عدة مقالات في الصحف العربية غيرها. وكان لم يستقر على خطة مع كونه شديد الذكاء بليغ الإنشاء كثير التفنن من الانتقاد، وهو منشئ جمعية المعارف لنشر الكتب المفيدة.

ومن آثاره كتابه الشهر (ما هنالك) وصف فيه أسرار يلدز، وسياسة السلطان عبد الحميد، وله شعر قليل وإنشائه أقرب إلى الإنشاء العصري لا تصنع فيه كمن سبقه. وإنما يزينه بالنكت البديعة والمعاني المستطرفة. ومما وقفنا له من قلمه ما كتب في (الإنشاء والعصر) وهو كلام طويل ينتقد خمول المصريين بصناعة الإنشاء مع تزايد المطابع وانتشار التعليم وكثرة المدارس، ويبحث عن أسباب انحطاطها فقال في ذلك: إنما السبب عند جمهور الباحثين هو سوء طريقة التعليم والتلقين للعلوم العربية بين طلبة المدارس وضعف العناية في اختيار الكتب النافعة للتدريس.

وليس هذا في نظرنا السبب الوحيد لما نشاهده من التأخر والانحطاط في صناعة الإنشاء والتحرير وقلة العاملين فيها فذلك مهما جئت به من التحسين والتعديل لطريقة التعليم لا ينفع في ملكة الإنشاء في أذهان التلاميذ التي عليها المعول في حسن الصناعة؛ لأن المدة لدرس اللغة العربية في المدارس لا تكفي لغير الحصول على أصول اللغة وقواعدها، ولا تفيد لتكوين الملكة لشيء صالح.

ولا يخفى عن علمك أن الطالب يتجرع هذه القواعد والأصول في الدرس ولا يكاد يسيغها ولا يتناولها إلا كما يتناول المحموم مرّ الدواء ولا تمكث في صدره إلا ريثما يمجّجها عند أخذ الشهادة.

على مثل هذا يخرج المتخرجون في المدارس سواءً الفائز منهم بالشهادة والخائب فيها، ثمّ ينصرف كل واحد منهم إلى الأشغال التي تلهيه عن كل صحيفة وكتاب ولا يجد أمامه مجالاً لنمو ملكة الكتابة... أما إذا ابتلاه الله بالدخول في خدمة الحكومة فقل يا ضيعة العلم والأدب ويا بؤس صناعة الإنشاء والتحرير ويا زوال ملكة الإفصاح والتعبير! إذ يتلقى هناك لساناً جديداً ولغةً حديثة لا يهتدي فيها إلى قاعدة ولا ترتبط برابطة ولا تفضل لغة البرابرة.

ولو أنه ذهل يوماً وجاء في بعض عمله بجملة صحيحة وعبارة مستقيمة في اللغة وانحرف عن ذلك اللسان المصطلح عليه شيئاً قليلاً لأصبح عرضةً للتهكم عليه والاستهزاء به بين العمال فيعمد إلى التوبة من الذنب... ويأخذ بلسانهم فيأمن من مكرهم.

ومن سوء الحظ لم تلتفت الجرائد السيارة إلى إتقان صناعة التحرير ولم تعمل لهذا المقصد النبيل ولم ير أربابها أن يتعبوا أنفسهم ويكدوا خواطهم للتفنن في بلاغة القول وفصاحة التعبير وانتقاء الألفاظ وتنويع التركيب وتجديد الأسلوب وما شابه ذلك من محاسن هذه الصناعة التي تتوق للنفس وتطرب إليها القلوب... فينبغ النوابع من الفصحاء والبلغاء ويكثر بيننا عديد الكتاب والأدباء... وفاتهم أن الواجب على الكتاب المجيدين الذين يضعون أنفسهم أمام القارئ في الهادي والمرشد ومقام الربّي والمعلم أن يرتفعوا بذهن القارئ إلى درجة أذهانهم، لا أنهم ينزلون بأفكارهم إلى درجة أفكاره.

ومن فصوله الحسنة ذكره في كتابه (ما هنالك) ص ١٣٠ - ١٣٢ الموكب السلطان عبد الحميد في الأستانة يوم الجمعة (السلاملك) تلك حفلة حضرناها مرّة فأحسن المويلحي بوصفها قال: وإذا صدرت الإدارة السنّيّة بتعيين مسجد صلواته اجتمعت العساكر في ساحة المسجد أمام الباب السراي واصطفت صفوفاً مضاعفة بعضها وراء بعض.

وفي هذه الأثناء تتسابق مركبات المشيرين والوزراء والمشايخ والأجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء، ومن كان معهم من عليّة قومهم الوافدين على الأستانة في قاعة

الجيب الهمايوني المطلة على تلك الساحة التي لا يسمع السامع فيها قياً ولا صهياً إلا صليل
الأسياف وترديد الأنفاس هيبية وإجلالاً وانتظاراً واستقبالاً لإشراق نور الحضرة السلطانية،
فإذا حان وقت الصلاة أشرقت المركبة السلطانية المذهبة كالشمس ضياءً من مطلع السراي
تحمل الإمام نائب الرسول صلى الله عليه وسلم ويجلس أمامه الغازي عثمان باشا.

والمشيريون وكبار رجال المايين حافون من حول المركبة مشاة خشع الأبصار ترهقهم ذلة
من جلال تلك الإمامية وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الزمان وقياصرة الرومان كبراً
وجبروتاً وكلهم في أمواج الملابس الذهبية يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تحطف
الأبصار وتأخذ الأبواب حتى أن الناظر ليكاد يوالي الحمد لله تبعاً على ما منحه للدولة من
عديد الرجال الصادقين في خدمة الملة بشهادة الكلمات الناطقة فوق النياشين.

فإذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون في القلب كانت كبائع يغش الناس بوضعه
على زجاجة الخل عنوان ماء الورد... ثم تسير المركبة بالعز والإجلال والسعادة والإقبال
تحسدها الكواكب وتحفظها المواكب.. ثم يصعد السلطان إلى المكان المخصص لصلاته فيصلي
فيه وحده وصفوف العساكر العثمانية واقفون في تلك الساحة ينتظرون تشریف جلالتهم
للسراي بعد تأدية الصلاة.

وفاء أفندي محمد

المتوفى سنة (١٣١٩هـ) وقيل (١٣٢٢هـ) (١٩٠١ - ١٩٠٤م) كان أمين المكتبة الخديوية
وهاك مثلاً من رسائله يهنئ بعض السادة بالعيد:

(كيف أهنتك وحدي وأنتك العالم في واحد. فقد انطلقت الألسن بتهنتك حيث أجمعت
القلوب على محبتك وقد وافانا يوم العيد الأكبر فالناس بين مهلل ومكبر. وهذا الربيع قد
احتفل بيمن طالعك السعيد فنشر على الربا مطارفه السندسية ورفع أعلامه الزبرجدية، وبعث
برسول النسيم، إلى الروض فتلقاه بوجه وسيم، وثمر بسيم، ونشر من الزهر النضير، دراهم
ودنانير، ورقصت الغصون فغنت الطيور فوق الأفنان، بفنون الألحان، فهكذا تكون إشارات
التهاني، وإن لم تف بوصفها الألفاظ والمعاني، والية بمن أولاك، رفعة تصافح السماء وولاك،
رتبة لا تدانيها الجوزاء، عن صحيح الفهم في دار علاك لعليل، وإن اللسن وإن شحذ اللسان
في وصف مجدك لكليل والسلام.

مصطفى بك نجيب

المتوفى سنة (١٣٢٠ هـ) (١٩٠٢ م) وكان رئيس قلم بنظارة الداخلية وهو أحد الأدباء الفضلاء الذين اشتهروا بفصاحة القلم ونشر المواعظ وجيليل الحكم فمن قوله نبذة وصف فيها الفونغراف قال ٥ الفونغراف مثال القوة الناطقة، من غير إرادة سابقة، يقتطف الألفاظ اقتطافاً، ويخطف الصوت اختطافاً، أشد من الصدى في فعله، في إعادة الصوت على أصله، كأنه الوتر عن يد الضارب، والقصب عن فم القاصب، يحفظ الكلام ولا يبيده، ومتى استعدته منه يعيده، كأنها حفظ الوديعة، في نفسه طبيعة، فلو تقدم له الوجود في مرتبة الزمن لأسمعنا كلام السيد المسيح في المهدي، وصوت ألعازر من اللحد، وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم، وأنشده كلمتهم، فرأينا به غرائب اليونان، وبدائع الرومان... نديم ليس فيه هفوة النديم، وسمير لا ينسب إليه تقصير، تسكته وتستعيده، وتذمه وتستجيده، وتنقصه وتستزيده، وهو في كل هذه الأحوال، راض بما يقال، لا يكل من تحديث، ولا يمل من حديث، نمام كما ينم لك ينم عليك، وينقل لغيرك كما ينقل إليك، فهو المتكلم بكل لغة ولا يجهد الأداء، ولا يضره اختلاف شكل، ولا تباين أصل، بل تعدت شدة حفظه البشرية من اللغات، إلى حفظ أصوات العجماوات، إلى تركة اصطكاك الجمادات).

جرجي زيدان

وأشهر الأدباء الذين غادروا هذه الفانية سنة (١٩١٤م) جرجي زيدان ولد في بيروت في أواسط كانون الأول سنة (١٨٦١م) ودرس في مدرسة طائفته المعروفة بالثلاثة الأقمار. ولما فتحت الكلية الأمريكية مدرستها الطبية كان بين أول الطلبة الذين انتظموا فيها وقد نشر عليه ابنه في الهلال خبر ما حدث في المدرسة من المنازعات التي كان فيها نصيب وافر، ثم ما حصل بين المعلمين من الانقسام بسبب تعليم الإنكليزية بدلاً من العربية.

على أنه لم يهمل دروسه الطبية حتى نال شهادة المأذونية فيها. ثم انتقل إلى مصر سنة (١٨٨٢م) وحرر مدة في جريدة الزمان المصرية، ثم رافق الحملة الإنكليزية على السودان بقيادة غوردون باشا فقام فيها مدة ١٤ شهراً ضرب الأتباع ولقي أصناف الأخطار حتى نجا من أهوال تلك الحرب في أوائل سنة (١٨٨٥م). فعاد إلى بيروت وصرف فيها سنة يشتغل مع أعضاء المجمع العلمي الشرقي ونشر إذ ذاك كتابه (الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية). ثم سنحت له الفرصة للسفر إلى إنكلترا فأكمل في لندن دروسه الطبية واجتمع بمشاهير المستشرقين وتردد على المتحف البريطاني.

ثم عاد إلى مصر وزاول الكتابة والتعليم في مدرسة الأورثوكس الكبرى. ثم انتدبته مجلة المقتطف ليكتب فيها فنشر عدة مقالات مستحسنة حتى أمكنه من إنشاء مطبعة على حسابه أخذ تنشر فيها مجلته الهلال الشهيرة في تشرين الأول من سنة (١٨٩١م) فلم يزل يديرها وينشئ مقالاتها إلى سنة وفاته. وله فيها سلسلة روايات تاريخية تكرر طبعها ونقلت إلى لغات شتى. ومن تأليفه التي أقبل عليها الجمهور:

١ - كتاب تاريخ آداب اللغة العربية.

٢ - وتاريخ التمدن الإسلامي.

٣ - وتاريخ العرب قبل الإسلام.

- ٤ - وتاريخ مصر وجغرافيتها.
- ٥ - ومختصر تاريخ اليونان والرومان.
- ٦ - وتاريخ إنكلترا.
- ٧ - وأنساب العرب القدماء وطبقات الأمم وعجائب الخلق.
- ٨ - كتاب علم الفراسة.
- ٩ - تاريخ الماسونية العام.

علي باشا مبارك

هو أحد أركان النهضة المصرية ولد من عائلة فقيرة في قرية برنبال من مديرية الدقهلية سنة (١٢٣٩هـ) (١٨٢٣م) فتقلبت به الأحوال إلى أن توفى إلى دخول مدرسة القصر المعيني وأرسل إلى باريس فدرس فيها فن الحرب، ثم ألقى بالجيش المصري وحضر حرب القرم سنة (١٨٥٤). ثم انتدبه الحكومة المصرية لوكالات ونظارات ودواوين مختلفة أبدى في جميعها عن مقدرة عظيمة. وقد خدم الآداب العربية بتنظيم مكاتب القاهرة والبنادر وإنشاء مدارس جديدة أخصها مدرسة دار العلوم وفتح المكتبة الخديوية وتولى نظارة المعارف فأجرى فيها إصلاحات مهمة.

وفي آخر حياته اعتزل الأعمال إلى سنة وفاته ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م، وله تآليف ذات شأن أجراها (الخطط التوفيقية) هذا فيها حذو (الخطط المقرينية) فوصف الخطط الجديدة التي أنشئت في القاهرة ومدنها القديمة والشهيرة في ستة مجلدات. ومنها كتاب نخبة الفكر في تدبير نيل مصر وكتاب الميزان في الأقيسة والأوزان وكتاب علم الدين في عدة أجزاء على طرز رواية أدبية عمرانية أودعها كثيراً من المعارف والفنون كالتاريخ والجغرافية والهندسة والطبيعات، وغير ذلك مما قرب إلى قرائه فهمه بمعرض شهى.

الشيخ الأبياري

هو الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري أحد الكتبة المعدودين في أواخر القرن السابق. ولد في أيار في جهات مصر السفلى سنة (١٢٣٦هـ) (١٨٢١م) وأخذ عن والده مبادئ الآداب، ثم حضر دروس أساتذة الأزهر كالشيخ البيجوري والشيخ الدمنهوري وغيرهما. ولم يزل يكدر ويجد في تحصيل العلوم حتى نال منها ما لم ينله إلا القليلون من معاصريه فعهد إليه الخديوي إسمايل باشا تثقيف أولاده.

وتصدر للتعليم في الجامع الأزهر فذاع صيته في أنحاء القطر المصري وجعله الخديوي توفيق باشا إمام المعية ومفتيها فقام بمهام رتبته إلى وفاته سنة (١٣٠٦هـ) (١٨٨٨م) وكان يجله الأدباء ويراسله فضلاء عصره، وقد جمعت مكاتباته للشيخ إبراهيم الأحمد في كتاب (الوسائل الأدبية في الرسائل الأحادية). ومن تأليفه الشهيرة كتاب (سعود المطالع) في مجلدين ضمنه كلاماً واسعاً في ضروب العلوم العربية. ومنها كتابه (نفع الأقسام في مثلثات الكلام) كمثلثات قطرب. وكتاب (الفواكه في الآداب). واتخذها صاحبها الجوائب والبرجيس كحكم ليفصل المناظرات اللغوية التي قامت بينهما فكتب كتابه (النجم الثاقب في المحاكمة بين البرجيس والجوائب) فنظم أحمد فارس قصيدته الدالية التي يقول فيها شاكرًا:

أبدي لنا في مصرَ نجماً ثاقباً	لكن ثناءه بكل مصرٍ هادٍ
فيه الفوائد والفرائد فُصِّلت	موصولة البرهان بالإسنادِ
إن قال لم يترك لقوالٍ مدىً	أو صالَ هالاً وطال كلَّ معادِ
هو فيصل في الفكر يرضى فصله	من لم يقنع من الأشهادِ
لولا أنه لم يُقَطَّع لسانُ المفتري	عني ولم يفصل جدالُ بلادِ
فلذاك كان على الجوائب مدحُه	حقاً وإيجاباً مدى الآبادِ

البستانيون

اشتهر البستانيون في ترقية الآداب العربية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وكان أشهرهم المعلم بطرس البستاني. ولد في الدبية من إقليم الخروب سنة (١٨١٩) من عائلة مارونية وجبهة، وفي صغره تلقى العلوم في مدرسة عين ورقة وهو يريد الانتظام في سلك الأكليروس، ثم جنح إلى البرتستانية وأخذ عن مرسلها المعارف المستحدثة ودرس عليهم العبرانية وعلم في مدرسة أعبية لرسالتهم الأمريكية وأظهر من الاجتهاد في التحصيل والبراعة في التعليم ما حبه إلى أصحاب تلك الرسالة كالدكتور عالي سميث والد الدكتور فان ديك فاستدعوه إلى بيروت بمؤازرتهم في أعمال مطبعتهم فساعدهم في عدة تأليف أخصها ترجمة التوراة من العبرانية إلى العربية وتولى مدة منصب الترجمة في قنصلية أميركا، ثم تفرغ للتأليف ووضع عدداً من الكتب المدرسية في الصرف والنحو والحساب، ثم باشر بقاموسه المطول المعروف بـ (محيط المحيط) واختصروه في (قطر المحيط) فنال من السلطان عبد العزيز الوسام المجيدي من الطبقة الثالثة ومبلغاً وافرأ من المال كجائزة على عمله.

ولما رأى الصحافة في سورية ضيقة النطاق عدل إلى إنشاء الصحف فحرر مع آله الجنان والجنة والجنينة، وكانت الجنان مجلة تتضمن المباحث السياسية الحرة والمقالات العلمية والتاريخية والأدبية، ثم عهد إلى ابنه سليم مواصلة هذا العمل وابتدأ أول دائرة علمية ظهرت في اللغة العربية فأبرز منها سبعة أجزاء قبل وفاته.

وكان المعلم بطرس مع وفرة هذه الأعمال يتعاطى التدريس فأنشأ في بيروت مدرسته الوطنية التي نالت بهمته نجاحاً إلى أن اضطرت أعباء الأشغال إلى انتداب ابنه سليم إلى إدارتها، ثم أفلت بعد حين. وكانت وفاة المعلم بطرس فجأة في غرة أيار سنة ١٨٨٣، وممن رثاه الشيخ خليل اليازجي فقال من قصيدة:

يا قَطْرَ دائرة المعارفِ والحجا ومحيط فضل فاض في إمداده

تبكي العلوم عليك واللغة التي بقريـضها تـريـثـك في إنـشاده
 فإذا المحيط بكاك لم يكُ دمعهُ دون المحيط يزيد في إزباده
 يبكي الحسابُ عليه متَّخذاً لهُ دمعاً يسيل عليك من أعداده
 تبكي المدارس والجرائد حسرةً والشرق بين بلادِه وعباده

وفي السنة الثانية ١٨٨٤ نشبت محالب المنون في نجله سليم البستاني، وكان سليم يتقيل أباه في نشاطه وحمته وآدابه وقد ساعده في تحرير مجلة الجنان فكتب فيها فصولاً واسعة وتولى إدارة صحيفة الجرائد وأنجز الجزء السابع من دائرة المعارف ونشر الجزء الثامن. ولم يظهر من هذا التأليف بعد ذلك إلا ثلاثة أجزاء تولى نشرها شقيقاه البستانيان نجيب ونسيب ولاسيما أن عمهم سليمان النابغة الشهير المتوفى حديثاً.

ولسليم البستاني روايات قصصية نشر كثيراً منها في الجنان وروايات تمثيلية كرواية الإسكندر وقيس وليلى، جرى تمثيلها في الجمعية السورية، وكان أحد أعضائها الممتازين. ونشر أيضاً باسمه تاريخ فرنسا بمجلد كبير وإنما الفضل في تأليفه لجناب الشيخ خطّار الدحداح. توفي سليم البستاني في (١٣ أيلول ١٨٨٤) وكان مولده في أعبية في (٢٨ ك ١ سنة ١٨٤٨) وكان في العربية أحد المتخرجين على الشيخ ناصيف اليازجي.

- بطرس البستاني: رئيس أساقفة صور وصيدا. على الموارنة (١٨١٩ - ١٨٩٩) وأحد تلامذة عين ورقة خلف عمّه المطران عبد الله البستاني منشى مدرسة مشموشة في تدبير كرسي صور وصيدا، وكان متضلعا بالعلوم الدينيّة والفقهية واشتهر بتعليم الحقوق والفرائض واتخذ السيد البطريك بولس مسعد لكتابة أسراره مدة إلى أن سمّاه أسقفاً سنة (١٨٦٦) واستصحبه إلى رومية في رحلته إليها سنة (١٨٦٧) احتفالاً بالتذكار المئوي لاستشهاد القديسين الرسولين بطرس وبولس وسنة (١٨٧٠) لحضور المجمع الواتيكاني. توفي في ٢ تشرين الثاني ١٨٩٩.

عبد الرحمن الكواكبي

(ولد في حلب سنة ١٢٦٥هـ) (١٨٤٩م) من أسرة آل الكواكبي القديمة التي إليها تنسب في الشهباء المدرسة الكواكبية. وفيها تلقى العلوم اللسانية والشرعية وبعض العلوم الحديثة ثم أنس بالكتابة فحرر عدة جرائد كالفرات والشهباء والاعتدال وخدم الدولة متقلباً في مناصبها العلميّة والإدارية والحقوقية إلا أن ما طبع عليه من الإباء والنخوة ودقة النظر وحب الانتقاد في العصر الحميدي حمل أعداءه إلى الوشاية به إلى المراجع العليا فزُج بالسجن وجرّد من أملاكه.

ثم خرج سائحاً إلى البلاد وطاف جانباً من إفريقية وجزيرة العرب حتى توغل في صحاريا وبلغ اليمن، ثم رحل إلى الهند وسكن الاستعباد) آخرأ في مصر وفيها توفي سنة ١٩٠٣. ومن آثاره ما يثبت له سعة اطلاعه على تاريخ الشرق ولاسيما تاريخ الممالك العثمانية فعرف أدواءها وحاول علاجها كالأفغاني. ومما ألفه في ذلك كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وكتاب (أم القرى) نظر فيه الشيخ محمد عبده. وكان الكواكبي مع أنفته من الاستبداد رقيق الجانب عطوفاً على الضعفاء والمساكين.

الباب التاسع
النقد الأدبي
في العهد العثماني

الباب العاشر
الحكمة والفلسفة العربية
في العهد العثماني

الضهرس

- الباب الأول: الحياة العامة في العصر العثماني ١١
- مقدمة: العلاقات العثمانية المملوكية وفتح الوطن العربي ١٣
- الباب الأول: الفصل الأول: الحياة السياسية ١٥
- أ - الحملة الفرنسية على مصر وسورية - ١٧٩٨ - ١٨٠١ م ١٥
- ب - تطور السودان ٢٧
- ج - تطور دول الخليج العربي ٢٩
- د - تطور أقطار المغرب العربي وليبيا ٣١
- الباب الأول: الفصل الثاني: الحياة الاقتصادية في العهد العثماني ٤١
- الباب الأول: الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية في العهد العثماني ٤٥
- الباب الأول: الفصل الرابع: الحياة الثقافية في العهد العثماني ٤٧
- الباب الأول: الفصل الخامس: النهضة العربية في نهاية العصر العثماني ٤٩
- الباب الثاني: حال الأدب في العصر العثماني ٥٣
- الباب الثاني: الفصل الأول: الأغراض التقليدية في الشعر في العصر العثماني ٥٥
- الباب الثاني: الفصل الثاني: حال الشعر في بلاد الشام في نهاية العصر العثماني ٦١
- ١ - في الأردن وفلسطين ٦١
- ٢ - في سوريا ولبنان ٦٣
- ٣ - في الجزيرة العربية ٦٤
- أ - السعودية ٦٤
- ب - في الكويت ٦٥
- ج - في قطر - ١٨٠٠ - ١٩١٩ م ٦٥
- د - في عُمان - ١٦٢٢ - ١٩١٦ م ٦٦
- هـ - في البحرين ٦٧

- ٦٨ ٤ - في اليمن
- ٦٩ ٥ - في العراق
- ٧٠ ٦ - في مصر والسودان وليبيا
- ٧٠ أ - حالة الشعر في مصر
- ٧٤ ب - حالة الشعر في السودان
- ٧٥ ج - حالة الشعر الليبي - ١٥٥٣ - ١٩١٦ م
- ٧٧ ٧ - في المغرب العربي في نهاية القرن التاسع عشر
- ٧٧ أ - حالة الشعر في (مراكش) المغرب
- ٧٧ ب - في تونس
- ٧٨ ج - في الجزائر
- ٧٩ ٨ - حال الشعر الموريتاني
- ٨١ الباب الثالث: حال الأدب قبل سقوط العثمانيين
- ٨٣ - أولاً - حال الأدب قبل سقوط الدولة العثمانية
- ٨٥ - ثانياً - أحداث وشخصيات مثلت النهضة
- ٨٧ - ثالثاً - من المؤلفين في العصر العثماني
- ٨٨ - رابعاً - شواهد على ضعف الشعر وانحطاطه في أغراضه وتعبيراته
- ١٠٣ الباب الرابع: اتجاهات الأدب في العصر العثماني
- ١٠٥ الباب الرابع: الفصل الأول: الاتجاه القومي في الأدب العربي في آخر العهد العثماني
- ١٠٥ أ - القومية العربية والثورة
- ١٠٧ ب - عوامل تفتح الوعي السياسي
- ١٠٩ ج - سمات الوعي السياسي ونزعاته
- ١١٠ د - تجاذبات الفكرة القومية
- ١١١ هـ - مواقف الأدباء من الواقع السياسي
- ١١٤ و - الشكل الفني للشعر نهاية العصر العثماني - الكلاسيكية الجديدة

- الباب الرابع: الفصل الثاني: الاتجاه الديني في (الأدب) الشعر ١١٧
- الباب الخامس: أشكال الشعر ١٢١
- الباب الخامس: الفصل الأول: الأشكال الشعرية في العصر العثماني ١٢٣
- الباب الخامس: الفصل الثاني: نقد الصياغة الشعرية ١٢٧
- الباب الخامس: الفصل الثالث: الصنعة الفنية في الشعر العثماني ١٢٩
- الباب السادس: رموز الشعر في العصر العثماني ١٣١
- ١ - منجك اليوسفي (١٠٠٧ - ١٠٨٠ هـ) - (١٥٩٨ - ١٦٦٩ م) ١٣٣
- ٢ - شهاب الدين بن معتوق الموسوسي ١٠٣٥ - ١٠٨٧ هـ - ١٦١٦ - ١٦٧٦ م ١٣٥
- ٣ - عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (١٠٥٠ - ١١٤٣ هـ) - (١٦٤١ - ١٧٣١ م) .. ١٣٧
- ٤ - الشيخ حسن بن محمد العطار ١٣٩
- ٥ - الشيخ حسن قويدر ١٤١
- ٦ - الشيخ أمين بن خالد آغا ابن عبد الرزاق آغا الجندي ١٤٢
- ٧ - نصر الله الطرابلسي ١٤٥
- ٨ - بطرس كرامة ١٤٨
- ٩ - جرجس بن يوسف بن إلياس آبيلا ١٥٤
- ١٠ - السيد مصباح البربير محمد بن محمد البربير ١٥٦
- ١١ - الأمير محمد بن الأمير أمين أرسلان ١٥٨
- ١٢ - علي الدرويش ١٦٠
- ١٣ - شهاب الدين ١٦٢
- ١٤ - إبراهيم بك مرزوق ١٦٥
- ١٥ - الشيخ علاء الدين الموصلبي ١٦٧
- ١٦ - عبد الحميد الموصلبي ١٦٨
- ١٧ - عبد الجليل البصري ١٧٠
- ١٨ - السيد محمد سعيد ١٧٢

- ١٧٣ ١٩ - عبد الباقي العمري الفاروقي
- ١٧٧ ٢٠ - محمود قبادو
- ١٧٩ ٢١ - جبرائيل المخلع
- ١٨١ ٢٢ - عبد الغفار الأخرس
- ١٨٤ ٢٣ - الحاج عمر الإنسي
- ١٨٨ ٢٤ - أبو النصر علي
- ١٩١ ٢٥ - محمود صفوت
- ١٩٢ ٢٦ - صالح مجدي بك
- ١٩٤ ٢٧ - أبو السعود أفندي
- ١٩٦ ٢٨ - الحاج حسين بيهم
- ١٩٩ ٢٩ - محمد أكنسوس
- ٢٠١ ٣٠ - بنو اليازجي
- ٢١٨ ٣١ - آل المراش
- ٢٢٢ ٣٢ - رزق الله حسون
- ٢٢٦ ٣٣ - جرجس عيسى
- ٢٢٨ ٣٤ - جرجس إسحق طراد
- ٢٣٠ ٣٥ - قيصر أيبلا
- ٢٣٢ ٣٦ - الشيخ يوسف الأسير
- ٢٣٥ ٣٧ - الشيخ إبراهيم الأحذب
- ٢٣٧ ٣٨ - أبو الحسن الكستي
- ٢٤١ ٣٩ - عبد السلام الشطي
- ٢٤٣ ٤٠ - محمد الميقاتي
- ٢٤٥ ٤١ - عبد الفتاح اللاذقي
- ٢٤٧ ٤٢ - محمد سليم القصاب

- ٢٤٩ ٤٣ - السيد محمود حمزة الحسيني
- ٢٥٠ ٤٤ - الأمير عبد القادر الجزائري
- ٢٥٢ ٤٥ - الشيخ محمد الشهبال الطرابلسي
- ٢٥٣ ٤٦ - الشيخ محمد الهلاي
- ٢٥٥ ٤٧ - عبد الله باشا فكري
- ٢٥٧ ٤٨ - الشيخ علي الليثي
- ٢٥٩ ٤٩ - السيد عبد الله نديم
- ٢٦١ ٥٠ - محمد عثمان جلال
- ٢٦٣ ٥١ - حسن حسني الطويراني
- ٢٦٥ ٥٢ - الملا حسن الموصلي البزاز
- ٢٦٧ ٥٣ - صالح القزويني
- ٢٦٨ ٥٤ - الشيخ إسماعيل الموصلي
- ٢٦٩ ٥٥ - عبد الله أفندي العمري الموصلي
- ٢٧١ ٥٦ - حيدر الحلي
- ٢٧٢ ٥٧ - جعفر الحلي
- ٢٧٣ ٥٨ - الشيخ ملا كاظم الأوزي
- ٢٧٤ ٥٩ - سليم بن موسى بستر
- ٢٧٦ ٦٠ - المعلم إبراهيم سر كيس
- ٢٧٨ ٦١ - إسكندر أبكار يوس
- ٢٨٠ ٦٢ - أديب إسحق
- ٢٨٢ ٦٣ - إلياس صالح
- ٢٨٤ ٦٤ - إلياس صالح
- ٢٨٦ ٦٥ - أنطون صقال
- ٢٨٨ ٦٦ - سليم دي نوف

- ٢٩٠ ٦٧ - إبراهيم بك كرامة
- ٢٩٢ ٦٨ - أسعد طراد
- ٢٩٤ ٦٩ - جبرائيل حبيب طراد
- ٢٩٥ ٧٠ - سليم بك نقلا
- ٢٩٧ ٧١ - نقولا نقاش
- ٣٠٠ ٧٢ - يوسف الشلفون
- ٣٠٢ ٧٣ - شاکر شقير
- ٣٠٤ ٧٤ - أمين شمیل
- ٣٠٧ ٧٥ - حنا بك أسعد الصعب
- ٣٠٩ ٧٦ - الشيخ نجيب حداد
- ٣١٢ ٧٧ - سليمان الصولة
- ٣١٤ ٧٨ - عبد اللطيف الصيرفي
- ٣١٦ ٧٩ - عائشة التيمورية
- ٣١٨ ٨٠ - السيد إبراهيم الطباطبائي
- ٣١٩ ٨١ - مصطفى كامل
- ٣٢١ ٨٢ - الشيخ علي أبو يوسف الأزهري
- ٣٢٢ ٨٣ - بشارة الشدياق
- ٣٢٣ ٨٤ - سليم الشدياق
- ٣٢٤ ٨٥ - إلياس جرجس طراد
- ٣٢٥ ٨٦ - الشيخ أمين الحداد
- ٣٢٦ ٨٧ - الشيخ نجيب الحداد
- ٣٢٧ ٨٨ - نقولا رزق الله
- ٣٢٩ ٨٩ - الشيخ إبراهيم الحوراني
- ٣٣٠ ٩٠ - جرجي الكنديرجي

- ٣٣٢ ٩١ - عبد الباقي العمري الفاروقي
- ٣٣٧ الباب السابع: دراسة موسعة لحياة البارودي وشعره
- ٣٣٧ محمود سامي البارودي ١٢٥٥ - ١٣٢٢ هـ / ١٨٣٨ - ١٩٠٤ م
- ٣٣٩ أ - استفاضة
- ٣٤١ ب - عصر البارودي
- ٣٤٤ ج - عصر البارودي الفكري والأدبي
- ٣٤٥ د - حياة البارودي
- ٣٥٣ هـ - مكوناته البيئية والثقافية
- ٣٥٥ و - شعر البارودي القديم والجديد
- ٣٥٨ ز - القديم في شعره
- ٣٦١ ح - الجديد في شعره
- ٣٦٦ ط - منزلته في عصره وأثره في حركة الشعر
- ٣٦٩ الباب الثامن: النشر الفني في العصر العثماني
- ٣٧١ الباب الثامن: الفصل الأول: أنواع النشر في هذا العصر
- ٣٧٥ الباب الثامن: الفصل الثاني: رسائل التأليف
- ٣٧٩ الباب الثامن: الفصل الثالث: فن الخطابة
- ٣٨٣ الباب الثامن: الفصل الرابع: فن المقامة
- ٣٨٧ الباب الثامن: الفصل الخامس: الأمثال والحكم
- ٣٨٩ الباب الثامن: الفصل السادس: النشر الفني الديني
- ٣٩٣ الباب التاسع: أعلام النشر الفني في العصر العثماني
- ٣٩٥ ١ - جمال الدين الأفغاني
- ٣٩٦ ٢ - الشيخ محمد عبده
- ٣٩٧ ٣ - أبو الثناء شهاب الدين محمود أفندي الألوسي
- ٣٩٩ ٤ - عبد الحميد الألوسي

- ٤٠١ ٥ - الشيخ أبو البركات عبد الله السويدي
- ٤٠٢ ٦ - الشيخ علي ابن الشيخ محمد سعيد السويدي
- ٤٠٣ ٧ - البيتوشي
- ٤٠٤ ٨ - محمد الأخفش
- ٤٠٥ ٩ - مارون النقاش
- ٤٠٩ ١٠ - رفاعة بك الطهطاوي
- ٤١١ ١١ - أحمد فارس الشدياق
- ٤١٤ ١٢ - إبراهيم بك المويلحي
- ٤١٧ ١٣ - وفاء أفندي محمد
- ٤١٨ ١٤ - مصطفى بك نجيب
- ٤١٩ ١٥ - جرجي زيدان
- ٤٢١ ١٦ - علي باشا مبارك
- ٤٢٢ ١٧ - الشيخ الأبياري
- ٤٢٣ ١٨ - البستانيون
- ٤٢٥ ١٩ - عبد الرحمن الكواكبي
- ٤٢٧ الباب التاسع: النقد الأدبي في العهد العثماني
- ٤٢٩ الباب العاشر: الحكمة والفلسفة العربية في العهد العثماني